سلسلة بناء العبد الرباني

نُور

السيرة النبوية

الجزء 1 (من الميلاد إلى حادثة الإفك)

مصطفى حسني

دار نهضة مصر

نور

السيرة النبوية

الجزء 1 (من الميلاد إلى حادثة الإفك)

مصطفى حسني

العنوان:

نور: السيرة النبوية (الجزء الأول)

(من الميلاد إلى حادثة الإفك)

تأليف:

مصطفى حسني

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 978-977-14-6355-9-

رقم الإيداع: 3351 / 2024

طبعة: يناير 2025

نهضة مصر للنشر

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

12 شارع أحمد عرابي – المهندسين – الجيزة

تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com

رف 404
t.me/Rff404

الإهداء

إهداء إلى كل من أراد الوصول إلى الله، فهذا هو طريقك أيها السائر إلى ربك.. خلف رسول الله الذي إذا عرفت سيرته وعشت بكل كيانك قصة حياته أحببته، وأدركت احتياج حياتك بكل تفاصيلها إلى حياته بكل تفاصيلها.

مصطفى حسني

المحتويات

1. صفحة العنوان
2. حقوق النشر
3. الإهداء
4. ما هي سلسلة بناء العبد الرباني؟
5. تمهيد
6. ولادة سيدنا محمد ﷺ وتغير الحياة بعد مجيئه
7. زواج النبي ﷺ وبداية علامات النبوة
8. بداية الوحي وإسلام أوائل الصحابة
9. إيذاء المشركين للمسلمين الأوائل
10. إسلام عُمر وتفاني أبي بكر في الدفاع عن النبي ﷺ
11. هجرة الحبشة وبداية عام الحزن
12. رحلة الطائف وإسلام وفود الجن
13. رحلة الإسراء والمعراج
14. بداية ظهور الأنصار في حياة النبي ﷺ
15. بيعة العقبة وأشهر قصص هجرة الصحابة
16. قصة هجرة النبي ﷺ
17. استقبال الأنصار للنبي ﷺ في المدينة
18. تقبُّل النبي ﷺ للجميع وبداية ظهور المنافقين
19. فرض الصيام والزكاة وبداية الحرب مع مكة
20. معركة بدر
21. زواج النبي ﷺ من حفصة وزواج علي من فاطمة
22. شهامة المسلمين في معركة أُحد
23. قصص شُهداء أحد
24. معركة حمراء الأسد وأحداث هامة بعد معركة أُحُد
25. حادثة بئر معونة وغدر بني النضير
26. الخاتمة

ما هي سلسلة بناء العبد الرباني؟

الأزمة الحقيقية التي يواجهها عالمنا الإسلامي هي الفهم السليم، ثم التطبيق الرحيم للدين الإسلامي العظيم .. فهناك فجوة بين الشريعة الكاملة النقية وبين فهم العقول لمراد الله منها، وكيفية تطبيقها بالشكل الصحيح على واقع العصر الذي نحياه معًا.

وطالما حلمتُ بأن أسهم بما أتعلم من العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية في بناء شخصية مؤمنة تحمل بين جنبيها نفسًا سوية وعقلًا مستنيرًا، نفسًا تصلح أن تكون خليفة الله في الأرض، نفسًا تحب العلم وتحترمه وتبحث عن صفات الله الظاهرة في الكون لتتعرف إليه .. لتتعلق به وتحبه، ثم تنشر هذه الصفات بين الخلق، فترحم برحمة الله، وتعطي بكرم الله، وتسامح كما رأت ربها يعفو ويسامح، نفسًا ترى عمارة الأرض واجبًا لا يقل عن الصلاة التي تقدسها بين يدي ربها.

وهذا مصداق قول الله في آية وصفت المتقين الصادقين:

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[البقرة : 177]

دين شامل .. عقيدة أثمرت عبادة ظهرت آثارها في رقي معاملة الخلق وبناء الحضارة ..

وهذا هو غاية الهدف والرسالة السامية التي أحملها على كتفي منذ أن بدأت طريق الدعوة من سنين عديدة، وهو بناء العبد الرباني العابد لسيده ومولاه، المنشغل بعمارة وطنه وأرضه، المتخلق مع الخلق بأخلاق ربه، حتى نعمل بوصية الله الخالدة لنا

﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[آل عمران : 79]

ستجدون في سلسلة بناء العبد الرباني كتبًا تتناول البناء الكامل المتزن لهذا العبد الذي نحلم به ..

- كتبًا في بناء العقل السوي المستنير وضبط المفاهيم.
- كتب إصلاح القلب وتأهيله للفهم عن رب العالمين؛ ليظهر ذلك في سلوكيات من يحمل الخير والحق والجمال للخلق.
- كتبًا عن العبادات؛ فهمًا لمعناها، وتعلُّمًا لكيفيتها، وسعيًا لارتقاء الروح بها.
- كتبًا عن المهارات الشخصية وتطوير النفس التي هي أمانة الله؛ لتصبح أكثر فاعلية في الحياة العملية وعمارة الأرض.
- كتب المعاملات بين المسلمين؛ للارتقاء في معاملاتنا مع بعضنا، وتقبُّل الطبيعة البشرية لكلٍّ منا.

- كتبًا عن السيرة النبوية وقصص الأنبياء العظيمة، والتي نستوحي منها الطرق العملية للتصرُّف السليم في جميع المواقف التي نتعرض لها في حياتنا اليومية.
- كتبًا عن القرآن الكريم وتعلُّم كيفية فهمه وتدبُّره وتطبيقه بشكل عملي في حياتنا حتى نكون من «أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته».

وأسأل الله أن يمن علينا بالعلم النافع، والرزق الواسع، والقلب الرحيم، والعقل الواعي المستقيم .. وصلِّ اللهم وسلم على راحم المساكين.. والحمد لله رب العالمين .

تمهيد

راودني حلم منذ زمن بعيد أنا والفريق أن نقدم عملًا عن قصة حياة سيدنا محمد ﷺ.. ولكن لكل عمل وقت محدد ومقدر من الله سبحانه وتعالى، وهذا الإذن بالبداية قَدَرٌ منه سبحانه، ومنذ سنوات طويلة من انتقال النبي ﷺ للرفيق الأعلى والعلماء يؤلفون ويكتبون في قصة حياة سيدنا محمد، وعندنا آلاف الكتب التي تحفظ لنا جميع أفعال وكلام النبي ﷺ، وأتمنى من الله أن أقدِّم عبر صفحات هذا الكتاب قيمة مضافة في سيرة سيدنا محمد ﷺ بما يتناسب مع هذا العصر حيث يستفيد الكبير والصغير، كما أتمنى أن أكون حلقة الوصل ما بين كتب العلماء التي من الممكن أن نجد فيها بعض الصعوبة في القراءة وبين أجيالنا الحديثة التي تحتاج إلى أن تتعرف على جميع جوانب حياة النبي ﷺ، بحيث إننا قبل أن نتحرك أي حركة في حياتنا ننظر أولًا في حياة النبي ﷺ لنعرف كيف كان يتصرف فيها ونقتدي به، كما أمرنا الله سبحانه وتعالى بذلك، فقال:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:21]

فالأسوة هي القدوة التي تهديك للخير، وليس أهدى لنا من حياة رسول الله ﷺ.. فمن يرد صلاح حاله فليقتد بالنبي ﷺ وليَسِرْ على خطاه.

سبب اختيار اسم نور

وعن اختيار الله لنا لاسم (نور)؛ لأن هذا الاسم وهذه الصفة هي صفة سيدنا النبي ﷺ التي اختارها له ربه سبحانه وتعالى في القرآن.. قال تعالى:

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[المائدة:15]

فـ(الكتاب المبين): هو القرآن، وأما **(النور)**: فعند كثير من المفسرين عبر التاريخ هو النبي ﷺ الذي أخرج البشرية من ظلمات الجاهلية إلى أنوار معرفة الله سبحانه وتعالى، فالنور عند البشر هو العنصر

الذي عندما يتركز على شيء ما تظهر حقيقته.. وهذا ما فعله معنا رسول الله ﷺ الذي أرانا حقيقة كل شيء...

(حقيقة معرفة الله سبحانه وتعالى، وحقيقة نفوسنا، وحقيقة الدنيا، وحقيقة الآخرة، وحقيقة الخير والشر...)..

لأن الناس كانوا يعيشون قبل القرآن الكريم والنبي ﷺ في ظلمات الجاهلية، والشرك بالله، وعبادة الأصنام، ويأكل القويُّ الضعيفَ، وهناك إساءة للجِوار، وقَطْع للأرحام، ولا يوجد أي خط مستقيم تمشي عليه البشرية؛ لأن البشرية رفضت الوحي، فجاء سيدنا محمد ﷺ فنوَّر كل جزء من العقول المظلمة، وأراح قلوب الناس ورسم لهم طريق رب العالمين منيرًا واضحًا، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور.

فهو ﷺ من قال قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى:

> **«قدْ تركتُكمْ على البيضاءِ ليلُها كنهارِها، لا يَزِيغُ عنها بعدي إلا هالكٌ»**[(1)].

وفي رواية «على المحجة البيضاء»، **فـ(المحجة)** تعني الطريق.. **فـ(حج)** أي قصد وسار في الطريق، فالنبي ﷺ أخبرنا بأنه تركنا على الطريق الواضح؛ ليله منير، ونهاره أيضًا منير، فإذا كان الليل يرمز إلى الأزمات والابتلاءات، والنهار يرمز إلى النعم والأفراح.. فتستطيع في كلتا الحالتين أن تعرف حقيقة تصرفك؛ لأنك اقتديت بالنبي ﷺ في أفراحه وفي أحزانه.

(1) رواه السيوطي.

ولادة سيدنا محمد ﷺ وتغير الحياة بعد مجيئه

الحياة قبل رسول الله ﷺ

قبل مجيء سيدنا النبي ﷺ كانت الدنيا مظلمة.. قال سيدنا جعفر بن أبي طالب:

> «كنَّا قومًا أَهْلَ جاهليَّةٍ نعبدُ الأصنامَ، وَنَأْكلُ الميتةَ، وَنَأْتي الفواحِشَ، ونقطَعُ الأرحامَ، ونُسيءُ الجوارَ، ويأكلُ القويُّ منَّا الضَّعيفَ، فَكُنَّا على ذلِكَ حتَّى بَعثَ اللهُ إلينا رسولًا منَّا نعرفُ نسبَهُ، وصِدقَهُ، وأمانتَهُ»(2)

.. هكذا يصف سيدنا جعفر حالهم قبل مجيء النبي ﷺ بأنهم كانوا بعيدين كل البعد عن الإنسانية.. فكانوا يعبدون شيئين؛ الأصنام والأوثان وهناك فارق بينهما:

أما (**الأصنام**) فهي الأحجار التي تكون على شكل كائنات حية مثل «إنسان، طائر، حيوان»، **قال تعالى:**

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾[ابراهيم: 35]

وأما **(الأوثان)** فهي حجارة ليس لها شكل محدد؛ يمكن أن تكون مربعة أو دائرية أو مستطيلة، **قال تعالى:**

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[الحج: 30]

فكانوا يسجدون لمثل هذه الأشياء.. فلنا أن نتصور، كيف كانت العقول حينئذ؟!

وكان من عاداتهم اليومية شرب الخمر مثل الماء وأكثر، لدرجة أنه بعد تحريم الخمر ألقوها في الطريق، فيصف سيدنا أنس المشهد فيقول: **(فخرجنا نخوض في الخمر)**. فمن كثرتها أغرقت أرض المدينة، وكانت الخمر موجودة في براميل كبيرة، فقال سيدنا طلحة حينئذ لسيدنا أنس: **(قم يا أنس ألق الجراب)**..

ولم يكن لديهم تحرٍّ للمال الحلال، حتى إنهم عندما أرادوا بناء الكعبة مرة أخرى لم يستطيعوا تكملة بنايتها؛ لأن أغلب أموالهم كانت من طرق فيها معصية أو أذية للخلق، فكانوا يخشون أن يضعوا الأموال الحرام في بناء الكعبة.

ويكفي (العنصرية) الشديدة التي كانت لديهم في تملكهم للفقراء وتسميتهم بـ (العبيد)، فإذا قتل أحدهم عبده أو أهانه فلا يلومه أحد؛ لأنه عبد مملوك لديه، وكذلك البنت في عصور الجاهلية قبل بعثة النبي ﷺ كانت تُقتل بمجرد ولادتها

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير :8، 9]

وإذا استمرت حياتها ولم تُقتل وتزوجت بشخص ما، فإنه إذا توفي تصبح جزءًا من الميراث ومن الممتلكات يأخذها أهل المتوفى مع الميراث، فنزل القرآن الكريم لينهى عن ذلك، **قال تعالى:**

﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾[النساء: 19]

حرب البسوس

قديمًا قبل بعثة النبي ﷺ قامت حرب بين المشركين تسمى (حرب البسوس) وكانت بين قبيلتي (تغلب) و(بني شيبان)، والسبب في هذه الحرب هو أنه كان هناك جمل قد قُتل تملكه امرأة اسمها (البسوس بنت المنقذ)، فظلت الحرب 40 عامًا.. أربعين عامًا من القتل والعدوان بسبب قتل جمل.. وفي أثناء هذه الأحوال المظلمة جاء النبي ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى أنوار رب العالمين.

لاتندهش

لا تندهش من مثل هذه الأحوال المظلمة الظالمة قبل مجيء النبي ﷺ؛لأن هذا كان حال أهل الأرض، حتى في بعض الحضارات الأخرى التي كان عندها بعض الأخلاق؛ فإن الكثير من القيم والمبادئ اختفت منها بسبب الغرائز والمصالح والشهوات.

فوجود رب العالمين في حياة الإنسان يضبط قيمه التي يستقيها منه، فلا تطغى مصالحه حينها على قيمه.. فقوانين المجتمع مستقاة من الإله الذي قال عن نفسه:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك: 14]

فهو سبحانه يعلم ما يصلح خلقه، وعند عدم وجود الرب في حياة الإنسان تتشوه قيمه وتسيطر مصالحه عليها، وبالتالي فإن قوانين المجتمع وقتها يحكمها الأقوى والأكثر سيطرة، وتقوده شهواته وغرائزه مثلما كان العالم تسيطر عليه العنصرية والعديد من الأشياء السيئة، فجاء النبي ﷺ لكي ينير حياة الناس ويمحو مثل هذه الأشياء.

ولذلك فنحن نحتاج إلى نور النبي ﷺ؛ لأن البشر تتكون سلوكياتهم **بـ(التقمص) يعني التقليد**، فمثلًا الأصحاب أو العائلات أو الأزواج من خلال معرفة بعضهم لبعض تجد بعد فترة أن أغلب تصرفاتهم أصبحت متشابهة في طريقة الكلام أو الضحك أو الغضب أو... وذلك لأن الإنسان يقلد غيره في طريقته وأخلاقه وسلوكياته بسبب طول العشرة؛ ولذلك أرسل الله سبحانه وتعالى لنا إنسانًا مثلنا (بشرًا وليس مَلَكًا).. إنسانًا رباه وعلمه وزكاه، وأخبرنا بأن هذا هو المعيار الذي نقتدي به.. **قال تعالى:**

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب: 21]

فنبدأ نتسابق في أخلاقنا وشخصياتنا وأرواحنا لكي نقترب من هذا المعيار والأسوة، وكلما اقتربت من نور سيدنا محمد ﷺ فإنه ينير طريقك لرب العالمين.

من هو سيدنا محمد ﷺ

هناك بعض المعلومات في بداية قصة سيدنا رسول الله ﷺ من المهم أن نعلمها، فالعلماء حفظوا لنا حوالي عشرين اسمًا في نسب النبي ﷺ فلنتعلم خمسة منها..

فالنبي ﷺ هو..

(سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف)، وأم النبي ﷺ زوجة عبد الله والد الرسول هي **(السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة)** ويلتقيان في الأجداد فهم أقارب.

فقد تزوج (عبد الله) من السيدة (آمنة بنت وهب).. وقال النبي ﷺ معلومة هامة في هذا الشأن...

قال النبي ﷺ:

> **«خلق الله الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مُضَر، واختار من مضر قريشًا، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار إلى خيار»**[(3)].

وهذه شهادة من سيدنا النبي ﷺ أنه كان في خير نسب، وهذا أقوى دليل عند العلماء أن أجداد النبي ﷺ لم يكونوا كفارًا ممن يعبدون الأصنام؛ لأن النبي ﷺ شهد لهم بالخيرية.

فتزوج (عبد الله) من السيدة (آمنة بنت وهب) وحملت بالنبي ﷺ وهي تقول: **(ما شعرت أني حملت به ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء)**[(4)].

وفاة عبد الله والد النبي ﷺ ويُتمه ﷺ قبل ولادته

عندما كان (عبد الله) والد النبي ﷺ في سن الخامسة والعشرين خرج في تجارة من مكة إلى الشام (رحلة الشتاء والصيف)، ففي الشتاء كانت رحلة العرب في التجارة لليمن، وفي الصيف إلى الشام.. وفي أثناء خروجه للتجارة هذه المرة مرض، وكان ذلك في طريق عودته فنزل عند (بني عدي بن النجار) أخواله في المدينة المنورة (يثرب) حينها، ومكث عندهم حتى يشفى، وعادت القافلة مرة أخرى إلى مكة، ولكن حينها توفي (عبد الله) في المدينة ودُفن في مكان يسمى (دار النابغة) جنوب غرب المسجد النبوي، وحزن عليه أبوه (عبد المطلب) جد النبي ﷺ حزنًا شديدًا عندما علم بوفاته. وحينها أصبح سيدنا النبي ﷺ يتيمًا وهو لا يزال جنينًا في رحم أمه السيدة آمنة.

مولد أعظم مخلوق ﷺ

في يوم 20 إبريل عام 571 م، 12 ربيع الأول ولد النبي ﷺ، وهناك خلاف على 8 أقوال في ميعاد مولده ﷺ، ولكن جمهور العلماء ومنهم رأي سيدنا جابر بن عبد الله الصحابي وسيدنا ابن عباس الصحابي أن ميلاد النبي ﷺ كان في 12 ربيع الأول وقالوا: **(إن هذا اليوم ولد فيه، وفيه بُعث، وفيه أُسري به، وفيه هاجر، وفيه مات)**.. وكان ميلاد النبي ﷺ في مكة بعد 50 يومًا من واقعة الفيل لأبرهة الذي جاء لهدم الكعبة، والذي قال تعالى فيها:

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[الفيل: 3-5]

وعند ولادته – كما ذكر الإمام السيوطي – قال النبي ﷺ:

«رأَتْ أُمِّي كأَنَّهُ خرجَ منها نورٌ أضاءَتْ منه قصورُ الشامِ»[5].

وفي بعض الروايات التي ضعفها العلماء أن النبي ﷺ نزل معتمدًا بيده على الأرض وكان مختونًا، مقطوع الحبل السُّرِّي؛ لأنه ﷺ نزل في أبهى صورة يمكن أن يكون عليها إنسان.

وفرح به جده عبد المطلب فرحًا شديدًا وشعر بمسئوليته تجاهه لوفاة أبيه عبد الله، وبعد سبعة أيام من ولادته ﷺ ذبح من الذبائح ما يكفي لطعام أهل مكة جميعهم، وعندما سألوه: ماذا ستسميه؟ قال: (محمدًا) حتى يحمده الله في السماء، ويحمده الناس في الأرض.. وأتى بثويبة جارية أبي لهب عم النبي وطلب منها أن ترضعه، فالسيدة ثويبة أرضعته ﷺ، كما أنها أرضعت حمزة عم النبي ﷺ والذي كان يكبر النبي ﷺ بعامين، فصار سيدنا حمزة عمَّ النبي وأخاه في الرضاعة أيضًا..

ثم بدءوا يبحثون له ﷺ عن مرضعة من خارج مكة؛ لأن مكة في ذلك الوقت كان بها وباء.

حكمة الله في الأحداث

نشأة سيدنا محمد ﷺ كانت مليئة بالنور، فالله سبحانه وتعالى يرزق بالسبب وبغير السبب وبضد السبب، ففسرها العلماء بأن الله سبحانه وتعالى إذا أخذ منك شيئًا بقدرته، عوضك عنه، وليس معنى أن ينشأ شخص يتيم الأب أو يتيم الأم أو يتيم الأب والأم أن تكون حياته ناقصة؛ وذلك لأن حصته في الرعاية والعناية تكون من الملك سبحانه وتعالى.

وصدق أجدادنا عندما قالوا حكمة: ***(ما يربي إلا ربي سبحانه وتعالى)***.

فـ(الرب) الذي يخلق ويملك ويرزق ويتولى الشئون، قال لسيدنا محمد ﷺ ولنا:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾[الضحى: 6]

فالله سبحانه وتعالى قد يخلق إنسانًا يتيم الأب أو الأم، لكنه سبحانه يضع الحنان والرعاية والإكرام في قلوب أناس آخرين تجاهه.

فبالتأكيد لا يوجد عوض عن الأب أو الأم، ولكن هناك عطاء بديلًا يتكفل به الله سبحانه وتعالى؛ لأن الرحمة الموجودة بداخل الأب والأم تجاه الأبناء هي من خَلْق الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى.

وفي وسط مجتمعاتنا عبر الزمان نجد أن أيتامًا كانوا أكابر ومؤثرين وعظماء وعلماء.. فليس كل شخص فقد في طفولته نوعًا معينًا من الرعاية من شخص معين سيصبح لديه نقص في حياته؛ وذلك لأن الله يعوضه في رحلة الحياة.

هل آباء وأجداد النبي ﷺ كانوا مؤمنين أم كفارً

أنا مطمئن جدًّا لإيمان والدي النبي ﷺ لعدة أسباب:

أولًا: لأن النبي ﷺ قال: «فأنا خيار من خيار» فهو من نسل سيدنا إسماعيل ابن سيدنا إبراهيم، فكلما تفرعت الأجيال اختار الله سبحانه وتعالى للنبي خير الأجيال، فليس من الممكن أن يمدح النبي مشركين أو كفارًا ويصفهم بالخيرية.

ثانيًا: أنه في عقيدة المسلمين أن (أهل الفترة) هم الأشخاص الذين كانوا موجودين في فترة انقطاع إرسال الرسل؛ أي لم يكن هناك أنبياء، فسيدنا محمد ﷺ وُلد عام 571 م؛ أي بعد رفع سيدنا عيسى عليه السلام بقرون.. وهناك من وُلد في هذه القرون ولم يرسل إليهم رسول.. **قال تعالى:**

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: 15]

فعقيدة أهل السنة أن هؤلاء الناس -إن شاء الله- يكونون من الناجين يوم القيامة.

ثالثًا: لاختيار الله لاسم (عبد الله) والد النبي ﷺ، والسيدة (آمنة) والدته ﷺ، فأنا مطمئن جدًّا مع آراء الكثير من العلماء بإيمان جميع آباء وأجداد النبي ﷺ.

رحلة البحث عن مرضعة للنبي ﷺ

يبحث عبد المطلب جد النبي ﷺ عن مرضعات من خارج مكة حتى يأخذوا حفيده محمدًا ﷺ ليرضعوه، وهذا كان حال قريش قديمًا؛ يبحثون لأطفالهم عن مرضعات من خارج مكة، وذلك بسبب مجيء العديد من القبائل التي تقصد الكعبة للحج لوجود 360 صنمًا حولها وفي جوفها تخص العديد من القبائل وقتها؛ فلكثرة الأعداد واختلاف أماكنهم كانوا يأتون للحج ويأتون معهم أيضًا بالأمراض والأوبئة.. لذلك عند ولادة أي طفل وقتها في مكة كانوا يخرجونه خارج قريش للرضاعة إلى أن يقوى ويعيدوه مرة أخرى.

فجاءت قبيلة (بني سعد)، وهي قبيلة مشهورة جدًّا بالمرضعات اللاتي يأخذن الأطفال الصغار خارج مكة للرضاعة، وكانت من بينهن السيدة (حليمة السعدية) التي تقول: «جئنا ونحن خمس؛ أنا وزوجي وابني الذي يبكي بشدة من الجوع لعدم وجود لبن يكفي لإرضاعه وإشباعه لوجود مجاعة في المنطقة الموجود فيها بنو سعد، وكان معنا (أتان) - وهي الحمارة الأنثى - كنت أركب عليها ومعنا جمل عجوز ضعيف يركب عليه الزوج».

تعليق: نلاحظ صعوبة الحال فيما سبق؛ الأب مرهق والأم مرهقة، والابن يبكي من شدة الجوع، والأتان ضعيفة، والجمل عجوز.. شيء في قمة الفقر والضعف.. وفي حين أن سيرهم كان ببطء شديد تجد أن جميع المرضعات اللائي سبقنهم أسرعن بالدخول والبحث عن الأطفال الرضع وبدأن في السؤال عن عائلاتهم؛ مَن أبوهم؟ ومَن جدهم؟ ليضمنَّ حصولهنَّ على المال الوفير منهم أجر إرضاعهن لأبنائهم، وعندما علمن أن سيدنا النبي ﷺ يتيم تركنه؛ لأنهن لن يحصلن منه على مال بسبب أبيه المتوفى.. وفي هذه الأثناء وصلت حليمة السعدية وزوجها وابنها فوجدت المرضعات قد أخذن جميع الرضَّع عدا النبي ﷺ، فقالت لزوجها إنها لن تتركه وستأخذه؛ لعل الله يجعل لهم فيه بركة. وبالفعل أخذت النبي ﷺ،

فلما أخذته فوجئت وقالت: (التقم ثديي) ببركة الله، فرضع ورضع معه أخوه الذي كان يبكي بشدة من الجوع حتى ناما، وبعدها ركب ﷺ معها في حضنها على الأتان فإذا بها تمشي أسرع ببركة النبي ﷺ.. فالله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا يقول له: كن فيكون، فخلق القوة في هذه العائلة بسبب صُحبة النبي ﷺ، فبدأت الأتان تمشي مسرعة، وبدأ الجمل العجوز يمشي بسرعة أيضًا ونام الطفلان.. النبي ﷺ وابن حليمة السعدية، فكان شيئًا في منتهى الاستقرار، وكانت الأتان تمشي بسرعة لدرجة أنها سبقت جميع المرضعات صديقاتها فقلن لها: (اربعي على نفسك يا حليمة). فقال لها زوجها: (يا حليمة، لقد أخذنا نسمة مباركة). (نسمة) أي روحًا.. وكأنه يقول: إن هناك شيئًا ما سيتغير في حياتنا بسبب مجيء هذا الرضيع محمد ﷺ معنا.

فكم من تأخُّر يصيبنا وفقر وشدة تعرقل مسيرتنا؛ لتتقاطع سبلنا مع من يشبهنا ليعين كل منا الآخر بعد طول معاناة وصبر! فكم من شدة تحمل في طياتها الخير والنصر الكبير ولكن لا ندري!

كم من ضعيف بداخله قوة!

وكم من فقير هزيل بين ذراعيه الوفرة والنعمة!

وعندما وصلوا كان هناك مجاعة في هذه المنطقة، فكانت سنة شهباء؛ أي بها مجاعة، وكانت الأغنام هناك ضعيفة وهزيلة، فبعد مجيء النبي ﷺ بدءوا يخرجون ضعافًا هزالًا للمرعى ثم يأتون سمانًا أقوياء ببركة النبي ﷺ، فبدأ أناس من القبيلة يقولون: (**سرحوا أغنامكم حيث تسرح أغنام حليمة السعدية**). تقول السيدة حليمة: (فلم نَزَلْ نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه، وفصلته)[6].يعني فطمته عن الرضاعة.

وظل النبي ﷺ معها إلى أن أتمت فطامه من الرضاعة بعد عامين فأعادته إلى أمه، ولكن السيدة حليمة طلبت منها أن تعيده معها مرة أخرى؛ لأن الوباء لا يزال موجودًا في مكة، وبالفعل عاد مع حليمة السعدية مرة أخرى.

حادثة شق الصدر

وبعد أن أتم النبي ﷺ أربع سنوات، وفي أثناء لعبه مع الأولاد حدثت حادثة غير تقليدية؛ جاء ثلاثة رجال أخذوا النبي ﷺ وهو يلعب، والحديث في «صحيح مسلم»، والنبي ﷺ هو من قص علينا هذه القصة عندما أظهر للصحابة شقًّا موجودًا في صدره ﷺ كان يقول عنه سيدنا أنس: «إنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ أتاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وهو يَلْعَبُ مع الغِلْمانِ، فأخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عن قَلْبِهِ، فاسْتَخْرَجَ القَلْبَ، فاسْتَخْرَجَ منه عَلَقَةً، فقالَ: هذا حَظُّ الشَّيْطانِ مِنْكَ. ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ مِن ذَهَبٍ بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ، ثُمَّ أعادَهُ في مَكانِهِ، وجاءَ الغِلْمانُ يَسْعَوْنَ إلى أُمِّهِ، يَعْنِي ظِئْرَهُ، فقالوا: إنَّ مُحَمَّدًا قدْ قُتِلَ. فاسْتَقْبَلُوهُ وهو مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ، قالَ أنَسٌ: وقدْ كُنْتُ أرَى أثَرَ ذلكَ المِخْيَطِ في صَدْرِهِ»[7]. وكان عمر النبي ﷺ وقت هذه الحادثة أربع سنوات.. وعند ذلك هرول الأطفال إلى السيدة حليمة يخبرونها بما حدث، فأسرعت إليه وهي

خائفة أن يكون قد حدث له مكروه وهي تصيح: واصفياه! واحبيباه! فوجدت النبي ﷺ عائدًا وقد ظهر عليه التعب والإرهاق.

ومن هنا كانت البداية.. بداية الغيب والأحداث التي أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نؤمن بها، وسأوضح لك كيف تؤمن بهذه الحادثة فيما يلي.

كرم الله لصاحب النية الطيبة

الإنسان صاحب النية الطيبة يكرمه الله تعالى بفضله، فالسيدة حليمة السعدية عندما رأت أن المرضعات تركن سيدنا محمدًا الرضيع وقتها؛ لأنه يتيم قررت أن تأخذه معها ولا تتركه، فلما أخذته جعل الله البركة في حياتها إلى أن ماتت، والسر في كرمها، وبسر بركة وأنوار النبي ﷺ.

ولم أندهش قط من خَلْق الخالق اللبنَ في ثديها حتى يرضع النبي ﷺ هو ورضيعها، وصدق زوجها عندما قال: **(لقد أخذنا نسمة مباركة)**.

تكرار حادثة شق الصدر.. والمقصود بعلقة الشيطان

إن حادثة شق الصدر حدثت للنبي ﷺ ثلاث مرات وليس مرة واحدة؛ مرة وهو طفل صغير، ومرة قبل النبوة قبل أن يرى سيدنا جبريل عليه السلام، ومرة قبل رحلة الإسراء والمعراج.

ونحن أكثر الأجيال التي من الطبيعي أن تؤمن بهذه المعجزة؛ لأن البشر استطاعوا شق صدر الإنسان واستخراج قلبه ليعالجوه ويعيدوه مرة أخرى والشخص حي في أمان.. فالله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء؛ لأن البشر أنفسهم استطاعوا أن يفعلوا مثل هذه الجراحة الدقيقة، فما بالك برب البشر سبحانه؟!

ولقد تواصلت مع أحد أطباء جراحة القلب فأخبرني أنهم يضخون محلولًا للقلب حتى يوقفوه يسمى (محلول شلل القلب)، ويُنشئون دورة دموية صناعية تسمى (ماكينة القلب الصناعي)حتى يظل الجسم حيًّا، ويتم العمل في القلب وهو مشلول عن حركته وكل فترة يضخون محلول شلل القلب بحسب احتياج المريض، ومن الممكن أن تستغرق العملية ثلاث ساعات أو أكثر من ذلك أضعاف المدة، فإذا كان البشر قد استطاعوا أن يشقوا الصدر ويستخرجوا القلب ويصلحوا ما به من أمراض ويعيدوه مرة أخرى، فالله سبحانه وتعالى قادر على استخراج قلب النبي ﷺ لاستخراج علقة الشيطان منه.

مفهوم علقة الشيطان

هناك قولان للعلماء عن **مفهوم علقة الشيطان:**

القول **الأول** أنها تعبر عن تأثير الشيطان بالوسوسة على سيدنا محمد ﷺ.

وأما القول **الثاني** – وهو الأقرب إلى قلبي – فهو أخْذ نصيب الشيطان من رحمة النبي ﷺ به؛ لأن النبي ﷺ رحمة للعالمين، والشيطان ليس مكتوبًا له الرحمة؛ لأنه مطرود من رحمة الله سبحانه وتعالى، فتم أخْذ علقة الشيطان؛ أي رحمة النبي بالشيطان، وكان هذا هو حظ الشيطان كما يقول بعض العلماء.

وفاة السيدة آمنة أم النبي ﷺ وكفالة جده عبد المطلب له

بعد حادثة شق الصدر لسيدنا النبي ﷺ وهو تقريبًا في سن أربع سنوات خشيت السيدة حليمة السعدية عليه أن يصيبه مكروه، فأعادته إلى مكة عند أمه السيدة (آمنة بنت وهب)، وعاش ﷺ مع أمه من سن 4 سنوات حتى سن 6 سنوات، وهو في السادسة توفيت أمه السيدة آمنة، فأصبح ﷺ يتيم الأب والأم، ودفنت أمه في منطقة تُسمى (الأبواء)، وازداد تعاطف عبد المطلب جد النبي ﷺ معه؛ لأنه أصبح يتيم الأم والأب، فاحتضنه وكفله، وكان لعبد المطلب هيبة كبيرة جدًّا، فكان لديه فراش عند الكعبة ممنوع أن يجلس عليه أحد غيره حتى أولاده، وإذا اقترب منه أحد يعنفونه لخوفهم من غضب عبد المطلب إلا سيدنا محمدًا ﷺ عندما كان يأتي ليقعد لا يزيحه أحد، بل كان عبد المطلب يصيح بهم ويجلسه معه على فراشه بجانبه، وكما ورد في الأحاديث أن عبد المطلب كان يظل يتحسس شعر النبي ﷺ وينظر إليه برحمة وحب.

وفاة عبد المطلب جد النبي ﷺ ووصيته لابنه أبي طالب بكفالة النبي ﷺ

عندما بلغ النبي ﷺ 8 سنوات توفي جده (عبد المطلب) عن عمر 82 عامًا ودفن في منطقة في مكة تسمى (الحَجُون)، ولكنه قبل وفاته استدعى (أبا طالب) عم النبي ﷺ، وأوصاه برعاية وكفالة النبي ﷺ.

وقذف الله في قلب أبي طالب حب النبي ﷺ لدرجة أن من يشاهده معه يحسبه ولده، فما كان يدخل ولا يخرج إلا معه ﷺ من شدة تعلقه به.

وعلَّمه رعي الغنم وهو في الثامنة من عمره حتى الثانية عشرة، قال ﷺ:

> «ما بعثَ اللهُ نبيًّا إلَّا راعيَ غنَمٍ. قالَ لَهُ أصحابُهُ: وأنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: وأَنا»[8].

أربع سنوات من الخلوة والتدريب على الصمت والتأمل في الطبيعة أثناء رعي الغنم، وكان أبو طالب عم النبي ﷺ لا يتحرك إلا ومعه النبي ﷺ، وكان لا يجلس للطعام مع أولاده إلا في حضور النبي ﷺ معهم؛ لأن أبا طالب كان فقيرًا؛ فعندما كانوا يأكلون بدون النبي ﷺ كان الطعام لا يكفي، ولكن في وجوده ﷺ كان الطعام يكفيهم ويفيض عن حاجاتهم، فكان يطلب منهم عدم الأكل إلا عندما يحضر ابن أخيه محمد ﷺ.

بركة النبي ﷺ في نزول الغيث

عندما بلغ النبي ﷺ 12 عامًا حدثت مجاعة كبيرة ولم يكن هناك أمطار في مكة، فخرج أبو طالب ومعه النبي ﷺ وألصق ظهر النبي بالكعبة، ورفع يدي النبي ﷺ ليدعو الله أن ينزل المطر، والناس وقتها كانوا مؤمنين بوجود إله في السماء هو الإله الأوحد، ولكنهم كانوا مشركين يعبدون آلهة أخرى معه.. فدعوا بنزول المطر، وأنشد أبو طالب فقال:

وأبيـض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فمن سينقذ اليتامى والأرامل هو هذا الغلام الأبيض بدعائه لله بأن ينزل الغمام والمطر لمعرفتنا بحب الله له.

قصة بحيرى الراهب وسبب تحذيره لأبي طالب

وفي أثناء إحدى رحلات الصيف إلى الشام.. أخذ أبو طالب النبي ﷺ معه في القافلة، وبينما هم في طريقهم إذ مروا من أمام صومعة كانت ديرًا لراهب، وكان يرى القبائل تمر ولا يلتفت إليهم أو يذهب إليهم أو يستضيفهم، ولكنه وجد هذه المرة سحابة تسير خلف القافلة تُظِل شخصًا واحدًا منهم وكأنها مخصصة له فقط، ورآهم جالسين أمام الصومعة تحت ظل شجرة والسحابة أيضًا وقفت معهم فوق شخص منهم وهي تُظل سيدنا النبي ﷺ، وهذا من حفظ الله سبحانه وتعالى للنبي ﷺ، وأيضًا تظله أغصان الشجرة، فذهب إليهم الراهب ودعاهم لوليمة وطلب منهم أن يأتي معهم الكبير والصغير، العبد والسيد، الغني والفقير، وألا يتركوا أحدًا؛ لأن (بحيرى الراهب) كان من أهل الكتاب، وكانت صفات النبي ﷺ مكتوبة بالنص عند أهل الكتاب، ومنها (حفظ الله له بهذه الطريقة)، ولكنه كان منتظرًا علامة أخرى ليتأكد من هذا النبأ.. وبالفعل لبى الناس دعوته للوليمة، ولكنهم تركوا النبي ﷺ مع الأمتعة والأغنام، فلما وجدهم لاحظ غياب شخص منهم فطلب مجيئه وظل يتفحص النبي ﷺ ويقارن صفاته بالصفات المكتوبة لديه، فقال الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: هو ابني. قال: ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا. قال: فابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حُبلى[9]... وظل يتفحص النبي ﷺ في كتفه فوجد (خاتم النبوة)، فجميع الأنبياء لديهم وحمة أو مثل الحسنة الكبيرة في أعلى العمود الفقري بها شعيرات بيضاء تسمى (خاتم النبوة) فعندما وجد هذا الخاتم قال لأبي طالب: (ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن عرفوا منه ما أعرف لَيبغُنَّه عنتًا). يعني يحاولون إيذاءه، فخاف عليه أبو طالب وعاد به إلى مكة.

إذا فتح الله لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء

لو تطلعنا في الأحداث السابقة فسنجد أن:

رعاية أبي ***طالب وعطفه هما .. (عناية الله).***

تحذير بحيرى الراهب هو .. (حفظ الله).

موت أبي النبي ﷺ وأمه هو .. (إرادة الله).

فإذا وضعنا بعد اسم الجلالة (الله) اسم الله (الرحيم) ونرى وقْع ذلك على قلوبنا..

تصبح..

رعاية أبي طالب وعطفه (عناية الله الرحيم).

تحذير بحيرى الراهب (حفظ الله الرحيم).

موت أبي النبي ﷺ وأمه (إرادة الله الرحيم).

فستدرك حينها أن الله سبحانه وتعالى هو من بيده كل شيء، وهو الذي يأخذ ويعطي

(إذا فتح الله لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء)[10]..

ومن ثَمَّ، فإن منع الله سبحانه وتعالى عنك خيرًا ما متمثلًا في شخص أو رزق، فليس هذا دليلًا على أنه قد غضب عليك!!..هذا ليس صحيحًا، فنشأة اليتامى بدون أب أو أم أو كليهما ليس دليلًا على غضب الله عليهم، وهذا بالضبط ما حدث مع النبي ﷺ، فقد أخذ سبحانه وتعالى (الرحيم) منه أغلى الأشخاص عليه، وفي المقابل ألقى العناية والرعاية والمحبة في قلوب جميع من حوله تجاهه.. كما ألقاها على سيدنا موسى عليه السلام من قبل عندما قال له:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[طه:39]

وهناك معتقد هام جدًّا قاله ابن عطاء الله وهو:

(العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان).

فعندما يتعلق قلبك بعطاء الخلق يبدأ لديك الشعور بالخوف من انقطاع العطاء، سواء بالترك أو الموت؛ لأن عطاءهم بيد الله، وهذا العطاء منهم يسمى (التعلق غير الآمن **insecure attachment**)؛ لأن الخلق من الممكن أن يتركوك بالهجر أو الموت، ولكنك إذا رأيت العطاء من الله تسكن نفسك ويطمئن قلبك، وإذا رأيت المنع أيضًا من الله تعرف أنه منع لصالحك حتى وإن لم تظهر حكمة المنع، فالعطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، صلاة عبد قلَّت حيلته ورسول الله وسيلته.. وأنت لنا يا ربنا مُجير من كل كرب عظيم.. ففرِّج عنا ما نحن فيه بسر (بسم الله الرحمن الرحيم).. رب اغفر لنا ذنوبنا، واستجب دعائنا، وحقق أمنياتنا، واجمع شملنا، واكفنا شر ما نخاف ونحذر.. إنك أنت السميع العليم

---

(2) رواه ابن خزيمة.
(3) رواه الحاكم.
(4) ابن سعد في الطبقات الكبرى.
(5) رواه السيوطي.
(6) رواه ابن إسحاق.
(7) رواه مسلم.
(8) رواه البخاري.
(9) رواه ابن سعد.
(10) الحكم لابن عطاء الله.

زواج النبي ﷺ وبداية علامات النبوة

علامات حفظ الله لرسوله ﷺ

نكمل معًا في «نور» سيرة سيدنا النبي ﷺ.. سيرته التي عندما نتعرف عليها تنير لنا كل جزء مظلم في حياتنا، ونحن الآن نكمل عندما كان عمر النبي ﷺ تقريبًا عشرين عامًا، ظهرت عليه علامات لحفظ الله له ﷺ حتى قبل بعثته.. ولتعرف أن النبي ﷺ لم يسجد لصنمٍ قط، ولم يشرب الخمر، ولم يأكل من الذبائح التي كانت تُذبح للأصنام قط مهما دُعي إليها وكانت تسمى (الأنصاب)، ولم يحدث في عمره كله أن أقسم باللات والعزى، أو تلك الأصنام التى كان يعبدها المشركون وقتئذ، فظهرت عليه علامات مختلفة عن أهل مكة وقتها، حيث كان ﷺ يعمل بالتجارة ولديه شريك يُسمى (السائب بن أبي السائب)، كان رجلًا طيبًا، وكان أمينًا جدًّا «لا يداري ولا يماري»؛ أي كان لا يتشاجر كثيرًا، وكان سهلًا في البيع والشراء، فشاركه النبي ﷺ.. وتذكَّرْ هذا الاسم؛ لأنه سيحدث منه موقف بعد أكثر من 20 عامًا من شراكته للنبي سنتعرف عليه في الصفحات التالية في رحلتنا.

«حرب الفِجَار»: سببها والسر في هذه التسمية

بينما كان النبي ﷺ في سن العشرين من عمره قامت حرب شديدة بين قريش ومعها قبيلة تسمى (كنانة)، ضد قبيلة أخرى تسمى (قيس بن عيلان)، وكانت تسمى هذه الحرب بـ«حرب الفِجار» أو «الفُجَار» من الفُجر.

سببها أن أحد الأشخاص من قبيلة (قيس بن عيلان) أخذ جملًا من شخص من قبيلة كنانة، فصاحبُ الجمل من قبيلة كنانة قال للآخر: (إن هذا الجمل ملكي هو والأمتعة الموجودة على ظهره). فرفض الآخر أن يعطيه الجمل والبضاعة، فقال له الرجل: (أتريد أن تمنعني من حاجتي؟). رد الآخر: (بل أمنعها من كنانة ومن جميع الخلق). وكأنه يقول بالتعبير العامي: «إنت واللي يتشدد لك». فتشاجرا وقتل صاحب الجمل.. وكان هذا الوقت حينها في الأشهر الحُرم التي يحرُم فيها القتال حتى قبل الإسلام.. فكان من الفُجر القتالُ فيها.

فمن حفْظِ الله لسيدنا رسول الله ﷺ عندما قامت هذه الحرب أنه لم يشترك فيها مع أهل مكة، بل قال: «كنت أنبل على أعمامي»[(11)].. أي أحمي أعمامي بالدرع من الأسهم التي كانت تضرب عليهم.. فحمى الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ وحفظه من أن يحارب أو يقتل، بل كانت وظيفته حتى قبل البعثة حماية أقاربه من هجوم القبائل الأخرى عليهم.

ثم بعد فترة تكوَّن حِلف سُمي (**حِلف الفضول**)، وكان عبارة عن اتفاقية بين قبائل مكة جميعها، مفادها أنه حرام أن يدخل أحد إلى مكة للحج ويتعرض للظلم.. فقرر معشر قريش أن يتحالفوا مع القبائل وينشئوا (حلف الفضول)، وتأتي تسميته من الفضل أو حلف (المطيبين)، فأي قبيلة ستدخل هذا الحلف لا تُظلم أو تتعرض للسرقة أو يمسها أحد بسوء، والنبي ﷺ كان ضمن من تحالفوا في هذا الحلف، يقول ﷺ بعد ذلك:

«ما أحب أن لي به حُمْرَ النعم، ولو دُعيت به في الإسلام لأجبت»[(12)]

لأنه حلف ينصر الحق وينهى عن الظلم أو التعدي على أحد بسوء.

«ميسرة بطل جديد في سيرة خير الناس ﷺ

اشتهر سيدنا محمد ﷺ وهو في بداية العشرينيات في مكة بالمهارة والإتقان في التجارة، بالإضافة لشهرته بالصدق والأمانة، فكان ﷺ لا يخرج في رحلة من رحلات التجارة إلا ويعود بضعف الربح ببركة الله سبحانه وتعالى له، وفي هذه الفترة كانت سيدة عظيمة وغنية تكبره ﷺ تسمى (خديجة بنت خويلد)، كانت تملك من المال ومن التجارة الكثير، فكانت تستأجر الرجال ليتاجروا لها ويبيعوا لها تجارتها؛ لأنها لا تذهب بنفسها في رحلات التجارة، وكانت تعطيهم نسبة من الربح، فعندما سمعت عن سيدنا محمد ﷺ بعثت إليه ميسرة خادمها يستأذنه بأن يتولى تجارتها، فوافق النبي ﷺ.. وبالفعل خرجا في رحلة من الرحلات في الصيف إلى الشام، وشهد منه ميسرة وقتها الأعاجيب.. شهد سحابة تمشي فوق النبي ﷺ تظله من الشمس الحارقة، وأيضًا وهما في طريقهما جلسا تحت شجرة فخرج راهب من صومعته فنادى ميسرة وسأله: من أنتم؟ فما جلس أبدًا تحت هذه الشجرة إلا نبي.. ثم سأل الراهب ميسرة: هل من يجلس تحت هذه الشجرة في عينيه حُمرة؟ أجاب ميسرة: نعم، حمرة لا تفارقه. فقال له الراهب: هذا نبي آخر الزمان. وكانت هذه علامات يعلمها الراهب من صفات النبي الذي أوشك أن يبعث.

وكأن هناك إشارات تثبت لميسرة أن هذا الرجل ليس رجلًا عاديًّا، وعندما سار النبي ﷺ مع ميسرة في طريقهما – والنبي هو من هو وقتها ﷺ وميسرة كان خادمًا – إذا بالنبي ﷺ يركب مرة وينزل فيركب ميسرة مرة، برغم أن ميسرة هو الموكل بخدمة النبي ﷺ، ولكنه ﷺ كان يعامله بلطف.. فاستعجب ميسرة من هذه الأخلاق وأنه لم يجد من أي سيد من سادات مكة هذا اللطف والحنان.. وفي رحلتهما للتجارة طلب أحد التجار من النبي ﷺ أن يحلف باللات والعزى حتى يصدقه.. قال ﷺ:

«ما حلفت بهما»[(13)]

قال الرجل: إذن أنت صادق حتى إذا لم تحلف.. فهيبة النبي ﷺ وصدقه الظاهر جعلا الرجل يصدقه فيما يقول..

وعندما عادا بالتجارة بعد ذلك إلى مكة وقد ربحت الضعف، انبهرت السيدة خديجة بما حكاه لها ميسرة من صفات النبي وأخلاقه التي شهدها منه في رحلته معه، وبأنه سيكون نبي آخر الزمان وفقًا لكلام الراهب، وأنه رفض القَسَم باللات والعزى، وانبهرت كذلك بمهارته في التجارة التي عاد منها بربح كبير.. كما انبهرت السيدة خديجة بكل هذا وحدث شيء في قلبها تجاهه ﷺ، وطلبت منه ﷺ أن يقبل بضعف الأجر الذي تم الاتفاق عليه؛ لأنه أتى لها بضعف الربح المتوقع من التجارة.

الموقف الأول:

(حلف الفضول).. نورلنا فيه النبي ﷺ معلومة هامه لكل مسلم.. وهي أنه ليس معنى أن من أتعامل معه مشرك يعبد صنمًا أو وثنًا أن جميع تصرفاته خاطئة.. ففي حلف الفضول اتفقت قريش ألا يُظلم أحد، وسيدنا النبي ﷺ قال: «**ولو دعيت به في الإسلام لأجبت**»(14). وكان هذا تعليقه على هذا الحلف بعد الإسلام، ونتعلم من ذلك أنه عندما تتقابل مع إنسان مختلف معك في أكبر وأهم شيء في حياتك وهي **(العقيدة)**.. لا تكره كل أفعاله.. فإذا قام معك بفعل متسق مع مبادئك وأخلاقك ودينك، فثمِّن هذا الفعل وقدِّره وامدحه واشكره عليه؛ وذلك لأن المشتركات الإنسانية ما بين البشر كثيرة جدًّا حتى إذا اختلفنا في العقيدة.

فالاختلاف في العقيدة -مادام أن الإنسان لا يعتدي عليَّ- لا يفسد الود والاحترام والحب، وهذا ليس معناه تمييع الدين أو التنازل عن المبادئ، فالنبي ﷺ يقول: «**لو دعيت لهذا الحلف في الإسلام لأجبت**» بسبب سمو هدف هذا الحلف.

الموقف الثاني:

عرض السيدة خديجة لسيدنا محمد ﷺ قبل زواجهما أن يعمل لها في تجارتها، وذلك قبل بعثته وسنُّه حينها 25 عامًا تقريبًا.. نفهم من هذا الموقف أنه إذا كنت ماهرًا في عملك محافظًا على قيمك وتحاول إتقان عملك.. فتأكد أن الله سبحانه وتعالى سيسخر لك قلوب الأقوياء في مجالك يمنحونك دفعات إلى الأمام.. فمنهم من يشاركك، ومنهم من يمنحك ربحًا ومرتبًا أكبر، ومنهم من يحسِّن من سمعتك بأنك رائد في مجالك ومتفوق فيعود ذلك عليك بالنفع من جميع الجهات؛ لأن المحسن المتقن يعطيه الله سبحانه وتعالى دفعات في الرزق ويسخر له العباد.. قال تعالى:

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[الكهف: 30]

وهذا أيضًا ما حدث مع سيدنا يوسف في السجن عندما كان يدعو الناس إلى الله ويحسن معاملتهم، فعندما طلبوا منه تفسير الرؤيا قالوا له:

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: 36].

أي أن لديه مصداقية وسمعة طيبة.

وبالتالي ركِّز في عملك وأتقنه، وبجانب ذلك كُن صادقًا وأمينًا، وساعد من حولك، فالله سبحانه وتعالى عالم بحالك وسيبعث لك الأغنى والأكبر والأكثر تمكنًا في وظيفتك وتخصصك وسيعطيك دفعة كبيرة في الرزق.

انبهرت السيدة خديجة بأخلاق النبي ﷺ القوي الأمين؛ أمين في التجارة، وأمين على العبد الفقير ميسرة، وقوي في مهنته فجاء لها بضعف الربح..

والسيدة خديجة هي (**خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى**)، كانت امرأة من شريفات سيدات قريش مالًا وجاهًا ونسبًا، وكانت متزوجة من (أبي هند).. (**النباش بن زرارة**)، وأنجبت منه ولدين (**هندًا وهالة**)، وبعدما مات (أبو هند)، تزوجت (**عتيق بن عابد**) وأنجبت منه بنتًا سمتها (**هندًا**) أيضًا، وتوفي عتيق.. فهي الآن لديها ثلاثة أبناء؛ بنتان وولد، وأصبح عمرها 40 عامًا.

أرسلت السيدة خديجة صديقتها (نفيسة) دسيسة إلى رسول الله ﷺ، لتتعرف على أخباره ورأيه في الزواج من خديجة، وبالفعل ذهبت السيدة نفيسة إلى النبي ﷺ وقالت له: (**يا محمد، ما يمنعك من الزواج؟**). **قال لها ﷺ: «ما عندي ما يكفيني للزواج». قالت: (فإن كفيتك ذلك ودعوتك لذات الحسب والنسب والجمال والمال؟). قال: «فمن؟». قالت: (خديجة). قال: «وأنى لي بخديجة؟!».. قالت: (أنا أكفيك ذلك)..** وكأنها تقول أنا سأتحدث معها في هذا الأمر.. فوافق النبي ﷺ وبالفعل ذهب النبي ﷺ مع عمه أبي طالب للتقدم إلى السيدة خديجة وطلبها للزواج من عمها (**عمرو بن أسد**) والذي قال عنه: (هذا الفحل الذي لا يُقدع أنفه). وهذه الكلمة عند العرب كانت كناية عن الفخر بأن هناك شخصًا سيعلي من شأن ونسب العائلة فـ(لا يقدع أنفه): كانت تطلق على ذكر البقر الذي كان إذا أراد الزواج، وكان هذا الذكر ضعيفًا وستكون سلالته ضعيفة مثله كانوا يضربونه على أنفه حتى يبتعد عن البقرة، لكن إذا كان هذا الفحل قويًّا وضخمًا وسيحسِّن من السلالة ويجعلها أقوى بكثير يقولون عنه: (هذا الفحل لا يُقدع أنفه).

فقام عمرو بن أسد عم خديجة لمدح النبي ﷺ بأنه هو من سيرقى به نسبنا ويزيدنا تشريفًا، وقال أبو طالب في هذا المشهد الرائع: (**الحمد لله الذي شرفنا فجعلنا من نسل إبراهيم ومن زرع إسماعيل، وجعلنا حصنة البيت وسُوَّاس الحُجاج، وهذا محمد لا يوزن بأحد من الرجال إلا رجح.. أما المال فإنه ظل زائل، ولقد علمتم من محمد شرفًا ونسبًا وعزة**).

فعائلة النبي ﷺ تنتهي إلى نسل سيدنا إسماعيل، وكانت موكلة بخدمة الحجاج وتجهيز الطعام والشراب لهم، فقال عمرو بن أسد: (رضيت). وتزوج النبي ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها في مشهد مليء بالبركة والجمال وبداية لأجمل قصة حب وأجمل عائلة عرفتها البشرية.

إضاءات من نور في قصة زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة

هناك أكثر من مشهد منير في عرض السيدة خديجة للزواج من سيدنا محمد ﷺ، فسيدنا محمد ﷺ كان قدوة للرجال وللنساء أيضًا.. فإذا كنت إنسانًا مركزًا في حياتك تقوم بالمطلوب منك بإتقان، وتقوم بدورك الآن على أكمل وجه.. فمثلًا في العمل.. تجتهد وتحترم الناس وتكون صادقًا وأمينًا معهم.. فالله سبحانه وتعالى حينها سيَجْبُرك وسيدبر احتياجاتك التي لم يكن في حسبانك أنها ستتحقق.. فإذا كنت متصورًا أنك فقط من يفكر في احتياجاتك تكون قد نسيت أن لك ربًّا مدبرًا ووكيلًا لك، فالله سبحانه

وتعالى هو الوكيل الذي يدبر شئونك على أحسن حال.. اطمئن لذلك، وبالتالي سيدنا محمد ﷺ كان قمة في الصدق والأمانة، فأتى أمامه عرض الزواج الذي يعبر عن احتياجات المرحلة وقتها بالنسبة له فيسَّره الله له وبارك له فيه.

والسيدة خديجة رضي الله عنها لم تظهر في الصورة مطلقًا وقت عرض الزواج، وهذا رد على الكثير من الفتيات اللاتي يتساءلن: هل يجوز لنا عرض الزواج على شخص نحبه؟ فهي رضي الله عنها لم تكن ظاهرة في هذا المشهد، بل طلبت من صديقتها السيدة نفيسة وأرسلتها إلى النبي ﷺ وعرضت عليه الموضوع وهل هو مناسب أم لا؟ وإذا كان الرد بعدم القبول كان الحديث سينتهي بين سيدنا محمد ﷺ وبين السيدة نفيسة بدون أي ظهور للسيدة خديجة؛ وذلك حفاظًا على مقام البنت وعلى وضعها وكرامتها.. وأيضًا سيدنا محمد ﷺ كان موضع ثقة، فعندما بعثت السيدة خديجة صديقتها نفيسة أرسلتها للصادق الأمين ولمن يتحلى باحترام أسرار الخلق واحترام خواطرهم.. فكان هذا التصرف السليم مع الإنسان السليم.

أولاد النبي ﷺ

سيدنا رسول الله كان عمره وقتها 25 عامًا، وتزوج السيدة خديجة وعمرها 40 عامًا، وكان هذا شيئًا طبيعيًّا وقتها ومقبولًا اجتماعيًّا في زمن النبي ﷺ وفي أزمان أخرى أيضًا.

وأريد منك أن تتخيل الآن شجرة أسرة النبي ﷺ، فالنبي ﷺ من سن 25 عامًا حتى 35 عامًا رزقه الله -سبحانه وتعالى- من السيدة خديجة بستة من الأبناء؛ 4 بنات، وولدين، هم:

- (السيدة زينب الكبرى).. تزوجت من (أبي العاص بن الربيع) ابن خالتها وأنجبت منه (عليًّا وأمامة).

- (السيدة رقية).. تزوجت من سيدنا (عثمان بن عفان) وأنجبت منه (عبد الله) وتوفيت في غزوة بدر 2هـ.

- (السيدة أم كلثوم).. تزوجت من سيدنا (عثمان بن عفان) بعد وفاة السيدة رقية ولم تنجب منه وتوفيت 9 هـ.

- (السيدة فاطمة).. تزوجت من سيدنا (علي بن أبي طالب) وأنجبت منه (الحسن والحسين) وتوفيت بعد النبي ﷺ بـ 6 أشهر.

- (عبد الله).. كان ملقبًا بـ(الطاهر).

- (القاسم).. وبه كان يكنى النبي ﷺ فكان يكنى بـ(أبي القاسم).

وعبد الله والقاسم توفيا وهما صغيران في العمر.. فهؤلاء أولاد وبنات النبي ﷺ من السيدة خديجة.

تحكيم النبي ﷺ في واقعة وضع الحجر الأسود في الكعبة

حدث شيء مهم جدًّا والنبي ﷺ عمره 35 عامًا؛ أي قبل 5 سنوات من البعثة؛ حيث بدأت الكعبة تتصدع وتحدث فيها شقوق كثيرة من عوامل الزمن وبسبب السيول وغيرها، فقررت قريش حينها أن تعيد بناءها مرة أخرى بناءً أقوى مما كانت عليه، وكان هناك بحر بعيد عن مكة به بعض السفن الغارقة

فألقاها البحر على الشاطئ فتوافرت الأخشاب اللازمة للبناء، وأيضًا كان يوجد في مكة وقتها أحد البناة الماهرين فتوافر العامل مع الخشب، ولكنهم كانوا متخوفين من فكرة هدم الكعبة حتى لا يحدث لهم مثلما حدث لجيش أبرهة، فلم يتجرأ أحد على هذا الفعل.. إلى أن جاء (الوليد بن المغيرة) وبدأ في إزالة الحجارة وقال: (يا ألله.. لم تُرع). يعني لا تخف يا رب إنما نريد إصلاحًا وإعادة البناء. فأخذ في هدم بعض الأحجار، وباتوا هذه الليلة وقالوا إنه إذا نزلت صاعقة من السماء على الوليد بن المغيرة فمعنى ذلك أن الله لا يريد أن تهدم الكعبة، وإذا لم تنزل الصاعقة فسيستكملون الهدم وإعادة البناء، وبالفعل لم يحدث شيء فقرروا الهدم، ولكنهم اتفقوا على ألا يضعوا في بناء الكعبة أي مال حرام من ربًا، أو من مهر بغي «من تجارة الدعارة» وكانت منتشرة وقتها.. أو أي مال مسروق أو مغصوب من أحد بالظلم.

وبالفعل قاموا بإعادة البناء، ولكن لقلة المال الحلال لم يكف ما لديهم لإعادة البناء كما كانت على قواعد سيدنا إبراهيم، فبنوها على الشكل الموجود حاليًّا.. وهي الكعبة، مربعة فيها جزء يسمى ***«حجر إسماعيل»*** نصف دائري أبيض، هذا الجزء كان من الكعبة في قواعد سيدنا إبراهيم؛ ولذلك لا بد للمعتمر أو الحاج أن يطوف من حول حِجر إسماعيل وليس من داخله؛ لأنه جزء من الكعبة.

وحدث مشهد رائع جدًّا ظهرت فيه عظمة النبي ﷺ.. فبعدما أعادوا بناء الكعبة تبقَّى أهم شيء.. وهو وضع الحجر الأسود في مكانه، فمن سينال شرف وضعه من القبائل؟!

اختلفوا اختلافًا شديدًا لدرجة أنهم ذهبوا وارتدوا ثياب الحرب، وكانوا سيقتتلون لوضع الحجر الأسود، وظلوا خمسة أيام يتجهزون للحرب إلى أن جاء رجل يسمى **(أبا أمينة)** وكان أكبرهم سنًّا، فقال لهم: هل نتشاجر ونحن نبني الكعبة ويصل بنا الأمر للحرب وسفك الدماء؟! فنحن سنحكِّم أول شخص يدخل علينا الكعبة الآن ونأخذ برأيه في هذا الموقف.. فإذا بالنبي ﷺ هو من دخل عليهم، فلما رأوه قالوا: **(جاء الأمين.. جاء الأمين)**.

فسألوه: من يضع الحجر الأسود في موضعه؟ فأشار عليهم بإحضار ثوب كبير يضع عليه الحجر الأسود، وكل رئيس قبيلة يمسك الثوب من طرف إلى أن يصل الحجر أمام موضعه فيأخذه ﷺ بيده ويضعه في موضعه، فقالوا: **(رضينا بحُكم الأمين علينا)**؛ لتظهر حكمة سيدنا محمد ﷺ المعهودة أمام قريش وأنه ليس شخصًا عاديًّا ولكن رأيه قمة في الحكمة، وكأنه يتجهز للنبوة.

تعامل النبي ﷺ مع المرأة وتغيير فكرة المجتمع الجاهلي الكعبة

لا بد أن يرى قلبك الجزء المنير في أقدار الله -سبحانه وتعالى- لك، في رد اعتبار الأنثى في قصة حياة سيدنا محمد ﷺ، فالمجتمع قبل بعثة النبي ﷺ وصف الله حاله في تعامله مع المرأة في قوله تعالى:

﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[النحل: 58، 59].

أي إن الشخص الذي ينجب أنثى يخجل من العار الذي حدث له بإنجابه الأنثى ويفكر؛ هل يتركها تعيش وهو في قمة الخجل أم يدسها ويدفنها في التراب؟ ومن هنا ظهرت عادة «وأد البنات»؛ أي دفنهن أحياء.

وفي وسط هذا المجتمع الذي يدفن البنات أحياء رُزق ﷺ بـ 4 بنات (زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة) وأصبحن قرة عين له، وسنتعرف طوال رحلتنا في سيرة الرسول ﷺ على أروع المواقف بينه وبين بناته وكيفية إكرامه لهن، وذلك حتى يرى المجتمع الجاهلي وقتها كيف أن رجلًا هو سيد الدنيا والآخرة ﷺ يُعظِّم ويكرم ويرحم بناته.

سمعة النبي ﷺ توقف الحرب

في قصة بناء الكعبة أثناء وضعهم للحجر الأسود، وبينما كانت ستنشب الحرب بينهم بسبب خلافهم على من سيضع الحجر الأسود.. سمعة النبي ﷺ هي ما أوقفت هذه الحرب، وهذا تراكم سنوات من الصدق والأمانة والشهامة ومساعدة الخلق والطيبة مع الأقارب والحب مع الناس المحترمة.. فبمجرد رؤيته رضوا به حكمًا وقالوا: (جاءنا الأمين.. رضينا بحكمه).

فاليوم إذا أردت التأثير في أولادك أو أحبابك أوالتأثير في شخص تتمنى له الهداية.. فتراكمُ سمعتك يمكن أن يغير من طريقة تفكير ظلت مترسخة لديه لسنوات طويلة.. ففي قصتنا قبائل كانت تتجهز للحرب ولكن بمجرد وصول النبي ﷺ أوقفوا فكرة الحرب واستمعوا لرأيه وقالوا: سمعًا وطاعة يا محمد..ثقة في تاريخ سمعة النبي ﷺ.. فإذا أردت التأثير فيمن حولك.. فركز مَن أنت بالنسبة لهم؛ لأن الناس يعاندون الشخص المؤذي ويخضعون لصاحب الفضل عليهم.

تبني النبي ﷺ لزيد بن حارثة

قبل بداية رحلة نزول الوحي ونزول سيدنا جبريل عليه السلام على النبي ﷺ أود أن أعرفك إلى شخصين من أبطال قصة حياة النبي ﷺ.. أولهما شخصية (زيد بن حارثة).. وتبدأ قصته مع حكيم بن حزام بن خويلد، والذي تكون السيدة خديجة عمته، حيث عاد بتجارة من الشام ومعه عبيد وغلمان صغار ليخدموا في قريش، فطلب منها أن تختار أحدهم، فاختارت (زيد بن حارثة) وذهبت به للنبي ﷺ وأهدته له ليخدمه، فاستوهبه النبي ﷺ؛ أي طلب منها أن يكون له ملكه، فوهبته له السيدة خديجة، فعندما أصبح ملكه أعتقه، وكان عمر النبي ﷺ وقتها تقريبًا 35 عامًا قبل بعثته، وتبناه فأصبح يُسمى (زيد بن محمد)، وذلك قبل نزول حكم النهي عن التبني بعد ذلك وتحريمه في المدينة، عاش سيدنا زيد أجمل أيام حياته في كنف أبيه النبي وقتها، وعاش معه الحب والاحتواء والدعم، ومرت الأيام وإذا بشخص يتجول في مكة يُسمى (حارثة) يبحث عن ولده وسط القبائل، فدلوه أنه في مكة مع النبي ﷺ وبالفعل ذهب له وطلبه من سيدنا رسول الله ﷺ فرد عليه ﷺ:

«ادعوه فأخيره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني، فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحدًا»[15].

وجيء بسيدنا زيد بن حارثة فاختار وفضَّل أن يعيش مع النبي ﷺ وطمأن والده بأنه في الحفظ والعناية، ويعيش عيشة سوية جدًّا مع النبي ﷺ، فذهب أبوه وهو مقتنع وراضٍ.. وعاش بعدها سيدنا زيد مع سيدنا محمد ﷺ سنوات طويلة سنكمل قصتها فيما بعد..

قصة انتقال سيدنا (علي بن أبي طالب) إلى بيت النبي ﷺ

أما البطل الثاني من أبطال قصتنا فهو سيدنا (علي بن أبي طالب)، وكان طفلًا صغيرًا وقتها..فماذا حدث له؟ وكيف جاء إلى بيت النبي ﷺ وتربى عنده؟.. في مكة في هذا الوقت حدثت مجاعة كبيرة جدًّا في قريش وافتقر أبو طالب فقرًا شديدًا، فذهب سيدنا محمد ﷺ إلى عمه العباس أخو أبو طالب فقال له: «هل لنا في أن نكفي أبا طالب مؤنة أولاده؟»[16]. أي: هل يمكن أن نساعد معه ونحمل عنه مسئولية بعض أولاده؛ لأن لديه الكثير من الأولاد؟ وبالفعل ذهبا إليه وعرضا عليه هذا العرض فشكرهما على هذه الخدمة الكبيرة وطلب منهما أن يتركا له (عقيلًا) أو (طالبًا) - وكان هو أكبر أبنائه الذي يكنى به - وأن يأخذا من يشاءان من باقي الأولاد، فسيدنا العباس أخذ سيدنا (جعفر بن أبي طالب)، وكان من كرامة الله -سبحانه وتعالى- لسيدنا علي أن النبي ﷺ اختاره ليتربى في بيته، ومن هنا تبدأ شخصية سيدنا (علي بن أبي طالب) في الظهور في حياة النبي ﷺ.

ثلاثة أشياء توحي بقرب بعثة النبي ﷺ

هناك ثلاثة أشياء حدثت تنبئ بنزول الوحي وقرب بعثة النبي ﷺ:

الشيء الأول: انقطاع استماع الشياطين لأخبار السماء:

فقديمًا عندما كان الله -سبحانه وتعالى- يأمر الملائكة بأمر كانوا يتحدثون مع بعضهم ويتناقلون الأمر بينهم، فكانت الشياطين تضع آذانها عند السماء وتسَّمع الأخبار وتنزل الأرض تبلغ بها الكهنة ممن يدَّعون معرفة المستقبل ويخبرون بحدوث هذه الأشياء؛ لأنهم سمعوا عنها من الشياطين.. وهذا كان موجودًا حينها، وسورة الجن في الجزء الـ(29) تحكي لنا وتخبرنا بهذا، ولكن قبل بعثة النبي ﷺ جاء الأمر من الله سبحانه وتعالى بمنع الشياطين من استراق السمع، يقول تعالى في سورة الجن:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[الجن: 8، 9]

فكانت الشُّهب تُرمى على الجن حتى تمنعهم من معرفة أخبار السماء مع اقتراب بعثة النبي ﷺ.

الشيء الثاني:

أن سيدنا محمداً ﷺ عندما كان يمشي في طرق مكة قبل البعثة قال:

«فأسمع الشجر والحجر يقولون: السلام عليك يا رسول الله، وإني لأعلم حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ بالرسالة قبل أن أبعث»[(17)].

الشيء الثالث:

أن النبي ﷺكان إذا رأى رؤيا تتحقق كفلق الصبح.. أي يجدها تحققت كما رآها بالضبط، فهناك أكوان تتعامل مع النبي ﷺ وتسلم عليه، وهناك أحداث يراها تتحقق.. فهناك شيء في مخاطبة السماء لقلب وعقل رسول الله ﷺ تجهيزًا لنزول سيدنا جبريل بالوحي على رسول الله ﷺ بعد ذلك في غار حراء.

لقطات مضيئة في اهتمام النبي ﷺ بحقوق الطفل ومنحه إياها

انظر إلى النور الذي علمه لنا النبي ﷺ في قصة حياة زيد بن حارثة وقصة سيدنا علي.. فعندما قدمت له السيدة خديجة سيدنا زيد بن حارثة والذي كان عبدًا حينها، طلب منها النبي ﷺ أن يكون ملكه، فوافقت فقال له: «أنت حُرٌّ لوجه الله». فالمجتمع وقتها كان يستعبد الكبير والصغير، فكأن النبي ﷺ أراد أن يقول إن الطفل لا يصح أن يحدث معه ذلك، فلا بد من الاهتمام بالأطفال وتربيتهم في أوساط سوية؛ بأن يأخذوا قدرًا كافيًا من الحنان ومن العناية والاهتمام والحب والاستماع، وليس أن يكونوا عبيدًا يخدمون ويهانون وهم أطفال صغار، فينشأ الولد ولديه نقص كبير جدًّا في حبه لنفسه؛ لأنه لم يأخذ الحب من طفولته.

وأود أن أخاطب كل إنسان منفق ينفق على الأسر المكافحة حتى يتعلم أبناؤها، ويحميهم من عمالة الأطفال ويتسبب في دخولهم أحسن المدارس والجامعات، أدعو الله له أن يُبعث في ركاب سيدنا محمد ﷺ الذي كان يرى العبد فيعتقه وأولهم سيدنا (زيد بن حارثة).

النبي ﷺ الوفي

الشيء الثاني المنير.. هو وفاء النبي ﷺ لعمه أبي طالب الذي كفله بعد وفاة أبيه وأمه وجده، وكان يعامله كأولاده، وعلمه رعي الأغنام، وبالتعبير الدارج (شق له طريقه) بأن علمه التجارة، وكان يأخذه معه في رحلات التجارة ويعطيه خبراته، فلما كبر النبي ﷺ وحدثت الضائقة المالية لعمه رد له هذا الجميل في رعاية أبنائه، فكفل سيدَنا علي بن أبي طالب، ويا لحظ سيدنا علي الذي تسببت الضائقة المالية لوالده في أكبر فتح عليه في الدنيا والآخرة بأن نشأ في كنف سيدنا محمد ﷺ!

وهذا الشيء يحدث معنا.. ولكن نتعرف عليه عندما ننظر بنور النبي إلى مشاقِّ الحياة.

فالكثير من مشاق الحياة تستنفر بداخلنا الكثير من الخيرات، وتنقلنا من الظلمات إلى النور، ومن الأنانية إلى العطاء، ومن الذاتية حول النفس إلى الإقبال على الناس ومساعدتهم، فإذا قل المال أو الزاد اقتسمناه.

سيدنا النبي ﷺ (الوفي) يعلمنا أنوار الوفاء، وقصة سيدنا علي تجعلنا نتفكر في أنه في كثير من الأحيان تكون المصيبة والمشاق سببًا في خير مستمر في الدنيا والآخرة.

اللهم صلِّ على من أُعليت له الرتب، وكُشفت له الحجب، فرقي إلى ما لم يرق إليه إبراهيم الخليل، ووصل إلى ما لم يصل له جبريل، ورأى ما لم يره موسى الكليم، ووصفه الله بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم.

اللهم إنا لا نملك لأنفسنا ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولن نستطيع أن ننال من خيراتك إلا ما أعطيتنا، ولن نستطيع أن نتقي من الشرور إلا ما وقيتنا.. فوفقنا يا ربنا لما تحب وترضى من القول والعمل يا مولانا ويا سيدنا.

---

(11) رواه ابن هشام.
(12) رواه أحمد.
(13) ورد في الأثر الشريف.
(14) رواه أحمد.
(15) رواه ابن حجر.
(16) رواه في الخبر.
(17) رواه مسلم.

بداية الوحي وإسلام أوائل الصحابة

بداية بعثة النبي ﷺ وإسلام أوائل الصحابة

نكمل قصة حياة النبي ﷺ في رحلتنا في «نور».. فكل موقف في القصة وكل معلومة وكل فِعل فيها ينير المناطق المظلمة في حياتنا، فكلما سِرت خلف النبي ﷺ قلَّت مناطق الظلام في حياتك وأنت في طريقك لرب العالمين.. ونستكمل معًا في هذا الفصل أسعد لحظات البشرية على الإطلاق ألا وهي: **لحظة اتصال السماء بالأرض وبداية الوحي ونزول سيدنا جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ..**

فسيدنا محمد ﷺ ظل فترة كلما سار في مكة كان يُسلم عليه الحجر والشجر: السلام عليك يا رسول الله، ومشركو العرب عمومًا يعلمون بوجود إله للكون ولكنهم يشركون معه آلهة أخرى من الأصنام؛ ظنًّا منهم أنها تنفع أو تضر، ولكن النبي ﷺ لم تمر عليه لحظة شرك إطلاقًا في حياته، فهو ﷺ يعلم أن الله -سبحانه وتعالى- هو خالق الكون لا شريك له، ثم مع الرؤيا الصادقة التي كان يراها وتتحقق كفلق الصبح، وسلام الجمادات عليه من الحجر والشجر، فجميع هذه الأحداث والعلامات هيأت قلب النبي ﷺ لاستقبال حدث هام.

من تفسيرات آية ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾

وهذا تفسير العلماء للآية السابعة من سورة الضحى..

فكلمة «ضال» في حقنا أي عاصٍ، ولكن في حق النبي ﷺ حاشاه أن يكون معناها عاصيًا، ولكنها تعني هنا بلوغه «**أعلى درجات المحبة**»، فيسمى الشخص الذي أحب شيئًا أو تعلق به تعلقًا شديدًا بأنه «ضال»..

فأبناء سيدنا يعقوب وصفوا تعلُّق أبيهم الشديد بسيدنا يوسف فقالوا:

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[يوسف: 8].

وقال النسوة عن امرأة العزيز:

﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[يوسف: 30].

فمعنى ذلك الضلال هو أعلى درجات التعلق، يعني وجدك متعلقًا بربك فهداك إلى الوحي والقرآن، وأيضًا من معاني ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾.. أن الشجرة عندما تكون وحيدة وسط الصحراء تسمى (شجرة ضالة) فهي الوحيدة الموجود تحتها ظل والوحيدة التي تحتها النجاة، ويقال إن **معنى** ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أن الناس لم تكن تعرف قيمتك فهدى الناس إليك.

معانٍ كثيرة توضح لنا لماذا كان النبي ﷺ يذهب ليتعبد وحده ليلًا في غار حراء، ففي البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها تقول:

(فَكانَ يَأْتي حِرَاءً فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وهو التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ- ويَتَزَوَّدُ لذلكَ)[18].

فيتصل بالله منتظرًا شيئًا منه سبحانه وتعالى.

نزول الوحي على سيدنا رسول الله ﷺ وكيفية استقباله له

كان النبي ﷺ يجلس كعادته في الغار وكل بضعة أيام يذهب ليأتي بالطعام أو تحضره له السيدة خديجة، ولما كان في الليلة الموعودة وبينما ينظر النبي ﷺ إلى السماء فإذا بالمَلَك -سيدنا جبريل- يظهر له، والحديث يقول:

(يسد الأفق له 600 جناح)، ونزل على سيدنا محمد ﷺ وهو في غارِ حِراءٍ، فَجاءَهُ المَلَكُ فقالَ: اقْرَأْ. قالَ: ما أنا بقارِئٍ. قالَ: فأخَذَنِي فَغَطَّنِي حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ. قُلتُ: ما أنا بقارِئٍ. فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ. فَقُلتُ: ما أنا بقارِئٍ. فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾[العلق: 1 – 3] (19)

وذهب المَلَك، وهنا نستحضر معنى آية:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[البقرة: 3]

فأولى صفات المؤمنين هي: الإيمان بالغيب والذي منه الملائكة، والإيمان بصدق رسول الله ﷺ.

نزل رسول الله ﷺ بعد تلك الآيات يرجف فؤاده من ثِقَل التكليف فدخل على السيدة خديجة رضي الله عنها فلم يذهب ليخبر عمه أبا طالب أو صديقه المقرب أبا بكر الصديق، ولكنه ذهب ﷺ مسرعًا إلى زوجته، صاحبته ومأواه، وأول ما دخل عليها قال: «**لَقَدْ خَشِيتُ علَى نَفْسِي**». ومعناها هنا «**خشيت من ثقل التكليف**»، فأخبرته بأن مَن مثلك لن يضيعه الله فقالت: (**لا واللَّهِ ما يُخْزِيكَ اللَّهُ أبَدًا؛ إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ علَى نَوائِبِ الحَقِّ**)، فليس من الممكن أن يتركك الله ولا يعينك على التكليف.. فأنت من يصل رحمه ويسأل عن أقاربه (وتحمل الكَل)؛ أي إنك تعين الضعيف وتكون دعمًا وسندًا له حتى تقضي له مصلحته، (وتقري الضيف)؛ أي عندما يأتيك الضيوف تكرمهم أشد الكرم وتشبعهم بكل ما يحتاجون إليه، (وتعين على نوائب الحق)؛ فمن يقع في أزمة تقف بجانبه وتسنده.. فمن مثلك لا شك سيعينه الله تعالى.

وطلبت منه ﷺ أن يذهبا إلى ابن عمها (**ورقة بن نوفل**)، وكان يقرأ الإنجيل ويكتبه بالعبرانية، وبالفعل ذهب ﷺ وزوجته إليه وقص عليه ما رآه فقال له ورقة: (هذا النَّامُوسُ الذي نَزَّلَه اللَّهُ علَى

مُوسَى). الناموس: تعني رسول الخير، وقال له: (يا لَيْتَنِي فيها جَذَعًا، لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا إذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ). قال: «أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟». هل سيخرجونني ويطردونني من البلد؟ قال: (نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلَّا عُودِيَ). ومرت بعدها أسابيع قليلة وتوفي ورقة بن نوفل بعدما أخبر النبي ﷺ بتفسير ما رآه وشرح له عواقب ذلك.

سِر اختيار النبي ﷺ لزوجته خديجة كأول داعم ومأوى له

أهم مشهد في حياة النبي ﷺ رؤيته سيدنا جبريل عليه السلام الذي كان يسد الأفق وتكليفه بالنبوة.. في وسط أهمية هذه الأحداث لم يذهب كما ذكرنا لعمه (أبي طالب) الذي رباه وكان سندًا له طوال حياته، ولم يذهب لسيد الرجال سيدنا (أبي بكر الصديق) أقرب صديق له، ولكنه تركهم جميعًا وذهب مسرعًا إلى زوجته خديجة رضي الله عنها لماذا؟ وما الصفة التي كانت منيرة لدى السيدة خديجة رضي الله عنها وجعلتها ملجأ لزوجها؟

هناك كلمة عند المتخصصين في العلوم النفسية تسمى (التصديق والتأكيد)، ومعناها أنه إذا أتى إليك أحد يحكي لك مشكلة فلا تُنظِّر عليه أو تنصحه أو تبين خطأه في أشياء فعلها، خصوصًا إذا كان الشخص مهزوزًا ولديه مشكلة أو قلق من شيء.. فالأصح أن أقف بجانبه بمشاعري وأشعر به وأخبره بأني أشعر بشعوره وأفهمه.

فيبدو أن ذلك كان من طبع السيدة خديجة ﷺ فعندما حدث للنبي ﷺ هذا الحدث الجلل في حياته لم يجد من سيفهمه ويقف بجانبه أكثر من زوجته خديجة رضي الله عنها فلو أن أي امرأة أخرى غيرها في موقفها لكانت من الممكن أن تعاتبه بأنه حدث له ذلك بسبب جلوسه بمفرده وترك منزله وعائلته لمدة كبيرة.. ولكنها قالت له: (**كلا.. والله لا يخزيك الله أبدًا**). وبدأت تخبره بتاريخه المنير مع جميع من حوله: (**إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتَقرِي الضيف، وتعين على نوائب الحق**).

فالرجل يريد أن يكون ملجأ لزوجته، وعلى الناحية الأخرى تريد أيضًا الزوجة أن تكون ملجأ لزوجها، واعلم أن النصيحة في غير وقتها تكون ثقيلة جدًّا على القلب، وتجعل الشخص إذا مر بأزمة مرة أخرى أو انشغل باله بشيء يتردد ويبتعد عمَّن يُنظِّر عليه، ويلجأ فقط لمن يستمع إليه بأريحية؛ لأن الإنسان في كثير من الأحيان ينسى المعلومات ويتذكر فقط الشعور الذي وفرته له وقتها، وهذا ما فعلته السيدة خديجة رضي الله عنها وأيضًا على الفور أصبحت جزءًا من العون وجزءًا من الحل، فطلبت منه الذهاب إلى ابن عمها (ورقة بن نوفل)؛ لأنه على دراية بموضوع الوحي وسيساعده ويخبره بالخطوة القادمة وماذا سيفعل بها..

وكانت السيدة خديجة رضي الله عنها نورًا لكل امرأة بل لكل رجل يتعلم من أخلاقها.

- هل لاحظت أن **أول** مسلم في الأرض بعد سيدنا محمد ﷺ كانت امرأة وهي السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وهذا كان اختيار الله سبحانه وتعالى في الأمة؛ أن أول مُوحِّد على الإطلاق مع سيدنا رسول الله ﷺ تكون (زوجته).

- **وثاني** من أسلم كان صاحبه المقرب جدًّا (أبو بكر الصديق).. **فـ(أبو بكر الصديق).. اسمه: عبد الله بن عثمان، وكنيته: أبو بكر، ولقبه: الصديق.** وفي أثناء رحلتنا في السيرة سنفهم أكثر عن حكاية الاسم واللقب والكُنية.

(أبو بكر الصديق) في الجاهلية لم يسجد لصنم وكان لا يحب ذلك، ولم يشرب الخمر قط، وعندما سألوه عن ذلك قال: **(أصون عرضي وأحمي مروءتي)**. وكان قد رأى رؤيا قبل بعثة النبي ﷺ أن القمر كان ساطعًا في مكة وظل يدخل في كل منزل منها وبعد ذلك خرج وسقط في حجره.. فذهب حينها وحكى الرؤية لبعض الرهبان فقالوا له: **(يا أبا بكر، هذا زمان نبي آخر الزمان، وستكون أنت أسعد الناس به)**. ومن هنا كان موضوع النبوة موجودًا في عقل وقلب سيدنا أبي بكر الصديق من قبل، فلما بُعث النبي ﷺ ذهب إلى صديقه المقرب أبي بكر وحدثه، فيقول النبي ﷺ عن هذا الموقف:

> **«ما كلمت في الإسلام أحدًا إلا أبَى عليَّ وراجعني الكلام، إلا ابن أبي قحافة، فإني لم أكلمه في شيء إلا قَبِلَه واستقام عليه»**[(20)]

.. فكل من كلمه عن الإسلام كان يتردد ويطلب منه التفكير إلا أبا بكر أسلم بدون لحظة تردد.

- **ثالث** من أسلم كان سيدنا (علي بن أبي طالب)، وكان وقتها هو الطفل الذي لم يتجاوز عمره عشرة أعوام، كان يعيش مع النبي ﷺ ومع السيدة خديجة، فآواه النبي ﷺ، ورباه على يديه، وذات مرة دخل عليٌّ على سيدنا رسول الله ﷺ فوجده ساجدًا ومعه السيدة خديجة رضي الله عنها وكان أول ما بدأ الإسلام أن فُرضت صلاة على النبي ﷺ، وكانت عبارة عن ركعتين صباحًا وركعتين مساءً.

فسألهم وقتها: ماذا تفعلان؟ فأخبره النبي ﷺ وطلب منه ترك الأوثان التي تعبد من دون الله، فأخبره علي بأنه لن يستطيع أن يفعل مثل هذا إلا بعد أن يستأذن والده أبا طالب، ولكن النبي ﷺ قال له: «**يا علي، إذا لم تسلم فاكتم**». فلا تتكلم الآن مع أبيك؛ لأن النبي ﷺ وقتها لم يؤمر بأن يعلن الإسلام للناس، فذهب علي وبعدها عاد وطلب من سيدنا محمد تعريفه إلى ما يدعو، فأخبره النبي ﷺ وقال له:

> **«تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد». ففعل عَلِيٌّ وأسلم**[(21)]

وبدأ يصلي مع النبي ﷺ، وذات يوم وبينما كان سيدنا محمد يأخذ عليًّا ليصليا خارج مكة إذ رآهما أبو طالب فسأل ابنه: ما هذا؟ وماذا تفعلان؟ فأخبره النبي ﷺ عن التوحيد وعن الإسلام وقال له النبي ﷺ:

«أي عم، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم» قال: «أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت». فأنت في حمايتي، وإذا أردت تبليغ دعوتك فافعل.. وقال لابنه علي: (أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه)[22]

.. اذهب وسر معه في طريق النور.

السيدة خديجة أم المؤمنين

السيدة خديجة أم المؤمنين التي يتمنى كل المسلمين رؤيتها في الجنة، لم نسمع مطلقًا أنها اختلفت ذات مرة مع سيدنا النبي ﷺ طوال حياتها، بل كانت دائمًا السند الأمين والمأوى له، وهذا يجعلك تجيب عن تساؤل كيف أنها كانت أول إنسان مسلم في الكون مع سيدنا محمد ﷺ.. فهذه هي إرادة الله سبحانه وتعالى بأن يكون أول إنسان يقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله).. امرأة.

أولًا.. هو رد لكل بنت تهتز ثقتها أحيانًا في قيمة المرأة في ديننا، فكان اختيار الله أن تكون المرأة أول إنسان أسلم وأصبحت مع سيدنا محمد في هذا المقام الأعظم المحمود.

وهناك نقطة هامة ينير بها النبي ﷺ طريقنا وهي أنه إذا كان لديك أي تطور هام في حياتك، فأشرك فيه زوجتك، فهذا يقوي المحبة والمشاركة التي تحيي الحب وتحميه، وأيضًا بالنسبة للزوجة لا بد أن يكون هناك تجاوب مع تطور زوجها العلمي أو العملي؛ لأننا نعاني من مشكلة وهي أنه بعد 10 أو 15 عامًا من الزواج هناك من يتوقف عن الآخر، فإما أن تطور الزوجة من نفسها وذاتها بالعمل أو التعلم مثلًا والرجل لا يفعل ذلك، أو العكس يكون التطور من نصيب الزوج.. فنصيحتي أن تكونا بجانب بعضكما حتى يكون بينكما مواضيع مشتركة تستطيعان النقاش فيها.

إضاءات في قصة إسلام سيدنا (أبي بكر الصديق)

الشيء الجميل المنير في قصة سيدنا أبي بكر الصديق صاحب رسول الله أنه يعرف إلى من يُسلم قلبه وعقله، فالنبي ﷺ يقول: «**ما من أحد حدثته عن الإسلام إلا تردد إلا أبا بكر أسلم على الفور**» لأن تاريخ وسمعة النبي ﷺ لديه تؤكد صدقه، فعلام التردد؟

إسلام سيدنا (علي بن أبي طالب) وحكمة كبيرة نتعلمها من قصته

الجزء المنير الذي أريد أن ننير حياتنا به في قصة سيدنا (علي بن أبي طالب)، والذي كان قدره أن تحدث الأزمة المالية في بيت أبيه أبي طالب فيتربى في بيت النبي ﷺ ليكون من أوائل من دخلوا في الإسلام..

فلا بد أن تنظر إلى أقدارك التي فيها أزمات، فتعلم أن العاقبة دائمًا خير؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يأخذ منا شيئًا ليتعبنا.. ولكنه سبحانه إذا أخذ منك شيئًا يرده إليك أعظم في الدنيا قبل الآخرة.. وإذا كان الكرماء من الخلق يفعلون ذلك بحيث لو أخذ أحد منك شيئًا فإنه ينميه لك ويعيده إليك ويبهرك

بعطائه.. فسيدنا علي أخذ الله منه الغنى في طفولته وأعطاه النبي وصحبته في الدنيا والآخرة، وسنتعرف فيما بعد على مقام سيدنا علي بن أبي طالب.

فعندما تجد جزءًا مظلمًا في حياتك وأنت منزعج منه وفيه ابتلاء..فاصبر؛ فإن العاقبة للمتقين.

موقف يظهر علو الهمة في إسلام سيدنا (أبي بكر الصديق)

أسلم سيدنا أبو بكر الصديق بدون تردد ولو للحظة وآمن مع صاحبه، ولكن الشيء العجيب الذي لاينساه النبي ﷺ أبدًا.. أن أبا بكر ذهب وأتى ومعه خمسة أسلموا معه، وكأنه شعر بواجبه تجاه صاحبه وفكر كيف يساعده، فأرشده الله إلى ذلك التصرف، ويبدو أن أبا بكر الصديق من جمال سمعته كانت الناس تثق به، فذهب وأتى ومعه 5 من الـ(10) المبشرين بالجنة وأسلموا على يديه وهم: **(عثمان بن عفان- الزبير بن العوام- طلحة بن عبيد الله - عبد الرحمن بن عوف- سعد بن أبي وقاص)**.

خمسة من العشرة المبشرين بالجنة أسلموا على يد «ثاني اثنين» - سيدنا أبي بكر الصديق- وهذا وصفه في القرآن.. وقد بدأت دعوة النبي للإسلام بدفعة كبيرة جدًّا من صاحبه، وبالطبع بتوفيق الله سبحانه وتعالى أولًا.. وهذا ما جعل النبي ﷺ بعد سنوات طويلة يقول:

> **«ما لأحدٍ عندنا يدٌ، إلا وقد كافأْنَاهُ، ما خلا أبا بكرٍ، فإن له عندنا يدًا يكافئهُ اللهُ بها يومَ القيامةِ»**[(23)].

فلا أستطيع مكافأته على ما فعل.. ومن هنا بدأت رحلة الدعوة بالهمة والسعي، وبدأت بالسند والدعم.. ولنكمل معًا سند سيدنا أبي بكر وعونه له في كل خطوة.

إسلام سيدنا (عبد الله بن مسعود

ذات يوم كان سيدنا محمد ﷺ خارج مكة هو وصديقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه يعبدون الله في الخفاء، ومع بداية الدعوة السرية وكلام النبي ﷺ مع أعداد قليلة من الناس ودعوتهم إلى التوحيد والإسلام كانت هناك أخبار تتردد في مكة بأن هناك من يدعي النبوة، ومنهم من يقول إنه شاعر أو ساحر أو كاهن أو مجنون، فمر النبي ﷺ وهو في طريقه على راعي غنم يسمى (عبد الله بن مسعود) كان يرعى الغنم لشخص يدعى(عقبة بن أبي معيط)، وهذا الشخص من عُتاة الكفار الذين قاموا بإيذاء النبي ﷺ أذى شديدًا.. فبينما كان النبي ﷺ سائرًا في الصحراء ومعه صاحبه أبو بكر طلب من (عبد الله بن مسعود) أن يسقيهم من لبن الغنم، فرد عليه بأن هذه الأغنام ليست ملكه ولكنه مُستأمن عليها يرعاها، فسأله النبي ﷺ: هل يوجد شاة لم يقع عليها الذكر، وبالتالي ليس في ضرعها لبن؟ قال: نعم. وأتى بها إليه، فأخذها رسول الله ﷺ ثم مسح على ضرعها فنمى الضرع، وهذه معجزة من عند الله تعالى..وقدرة الله بـ(كُن فيكون)، ثم ببركة يد النبي ﷺ، ثم قاما بإحضار صخرة مقعرة مثل الكوب وبدأ النبي في حلب الشاة وشرب هو وأبو بكر من اللبن.. كل هذا وابن مسعود واقف في عجب، فسأل النبي ﷺ: **(ما هذا يا أخا العرب؟)**. فحدثه النبي ﷺ عن النبوة وعن الإسلام، وكان الكثير من أهل الجزيرة العربية يعرفون أن

عبادة الأصنام غير مقنعة؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ولديهم بقايا من عقيدة سيدنا إبراهيم عليه السلام من التوحيد، وبقايا من عقيدة أهل الكتاب.. فأسلم سيدنا (عبد الله ابن مسعود) من هذا الموقف ومن تلك اللحظة.

النبي الأمين ﷺ في قصة إسلام (عمرو بن عنبسة)

وهناك مشهد آخر لا أستطيع تخطيه في سيرة النبي ﷺ برغم عدم شهرته في السيرة، حيث كان هناك شخص من قبيلة خارج مكة يسمى (عمرو بن عنبسة) كان يرى أن الناس ليست على شيء، وأن عبادة الأصنام لا يُرجى منها فائدة أو منفعة.. فقلبه وعقله غير مقتنع بدين الآباء والأجداد، فكيف يتحدث مع أصنام ويطلب منها الدعم؟! وكيف يأخذ معه في سفره صنمًا أو وثنًا ليتبرك به ويحميه ويرشده إلى الطريق؟!

فقال: كنت أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت عن رجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفٍ، جرآء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: أنا نبي. فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله. فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء. قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: حر وعبد. قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به. فقلت: إني متبعك. وكأنه كان يشتاق إلى معرفة الحقيقة ومعرفة مثل هذا الكلام الذي يتفق مع العقل والمنطق، وبالفعل أسلم وطلب من النبي ﷺ أن يبقى معه، فقال له النبي: «ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأْتني».

فانظر إلى مدى صدق النبي ﷺ معه؛ فلم يطلب منه البقاء، وذلك لأنهم كانوا لا يزالون ضعفاء وأنه لن يستطيع تحمُّل الصعاب المقبلة، فلذلك أمره بالرجوع إلى أهله. وبالفعل مرت 10 سنوات أو أكثر وأتى عمرو بن عنبسة إلى النبي ﷺ في المدينة وذكَّر النبي ﷺ بنفسه:

> **فقلت: يا رسول الله، أتعرفني؟ قال: «نعم، أنت الذي لقيتني بمكة»**[(24)]

ليكمل حياته مع النبي ﷺ.

أنا لم أستطع تمرير هذا الموقف دون شرحه؛ لأن سيدنا النبي ﷺ كان من الطبيعي أن يتركه معه ليكون سندًا له، ولكنه طلب منه الذهاب حتى يصبحوا أقوى ويلحق به بعد ذلك.. فهو الصادق الأمين ﷺ.

مجهود عظيم من أبي بكر في الدعوة

هذا المشهد من شدة عظمته لا أستطيع أن أتخيله، وهو أن النبي ﷺ بمجرد أن دعا سيدنا أبا بكر الصديق إلى الإسلام.. أسلم بدون لحظة تردد واحدة وذهب وأتى ومعه خمسة من أعظم من عرفتهم

البشرية؛ خمسة من العشرة المبشرين بالجنة: **(عثمان ابن عفان- الزبير بن العوام- طلحة بن عبيد الله – سعد بن أبي وقاص- عبد الرحمن ابن عوف)**.. كل شخص منهم كان أمة وحده، خمسة أسلموا على يد سيدنا أبي بكر، فلتتخيل ميزانه يوم القيامة.. فسيدنا رسول الله ﷺ يقول:

«واللهِ؛ لأن يَهْدِيَ اللهُ بكَ رَجُلًا واحِدًا، خَيْرٌ لكَ مِن أنْ يَكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[25].

سواء أكان هذا الشخص سببًا في هداية أحد أم لا، وسواء أكان يصلي كثيرًا أم لا.. تخيل هذا الثواب العظيم!

ما بالك بمن كان سببًا في هداية خمسة من العشرة المبشرين بالجنة!

أول نقطة.. سيدنا أبو بكر الصديق كان دائمًا يفكر في أن يكون جزءًا من العون، وجزءًا من الحل، فلم يكن قط واقفًا مكتوف الأيدي، وإنما كان دائمًا يتحرك للأمام ليساعد.

النقطة الثانية.. لا تأخذ هذا الموضوع بعد قراءته وتذهب مباشرة لمن حولك تدعوهم للهداية والصلاة وسائر العبادات فقط، فالأمر أوسع من ذلك، فقد تدعو أحدًا للخير بتعليمه كيف يؤدي عمله على الوجه الأكمل.. أو ترشده كيف يبدأ تجارته الجديدة، فتقف بجانبه لتعلمه أصول هذا العمل وكيفية النجاح والتميز فيه فيكسب لقمة عيشه حلالًا وتصبح حياته مستقرة، فيتعرف أكثر إلى الله وهو آمن مستقر، أو حتى ابدأ ممارسة خلق رحيم في منزلك والجميع يقتدي بك، مثلًا: لا تتشاجر في البيت أو تصح بصوت عالٍ.. لا تنتظر من أمامك أن يبدأ هو بالسلام أولًا، بل ابدأ أنت وأرجع الضحكة للمنزل مرة أخرى بعد المشاكل التي كانت فيه.

فهذا هو الدين الذي يثقل ميزان حسناتك في الدنيا والآخرة.. بالطبع لا بد أن ندعو بعضنا إلى الشعائر الدينية فهي الفرائض وهذا أهم شيء، ولكن لا تقصر الدعوة للخير على هذا فقط؛ لأنه في وقت من الأوقات سيفتح الله عليك ويكون لديك أفكار لمشاريع بسيطة يكسب منها الناس رزقًا حلالًا وتستقر حياتها فتعيش حامدة لله بسببك برغم أنك لم تعلم أحدهم آية من القرآن، ولكنك علمته كيف يشق طريقه ويكسب رزقًا حلالًا، وهذا على الحقيقة ما دعا إليه القرآن الكريم..فكل خير يحبه الله، فالدعوة إليه دعوة إلى الله....

فكن مثل سيدنا أبي بكر الصديق الذي قال عنه النبي ﷺ وهو في آخر حياته: كل شخص كان له فضل عليَّ شكرته في الدنيا عليه إلا أبا بكر له علينا يد يجزيه الله بها.

إسلام مصعب بن عمير وأبي ذر الغفاري)

قبل أن أقص عليك فيما بعد مرحلة الدعوة الجهرية وإسلام سيدنا حمزة وسيدنا عمر بن الخطاب.. أود أن أعرفك إلى شخصيتين مهمتين جدًّا في رحلة سيدنا النبي ﷺ.. فالوضع الآن أن النبي ﷺ بدأ يتحدث مع الناس عن الإسلام بشكل أكبر، وبدأ عدد المسلمين يصل إلى حوالي ثلاثين شخصًا يجتمعون ليتعلموا أمر دينهم في دار الأرقم.. فمنهم من يتعلم من النبي، ومنهم من يستفسر أكثر عن الإسلام،

وكان هناك شيء من عدم العلانية تجنبًا للإيذاء من زعماء مكة.. فأسلم وقتها (سيدنا بلال وعبد الله ابن مسعود وأبو بكر الصديق) وبقية الـ5 المبشرين بالجنة معه وغيرهم، وكان هناك شاب يحبه النبي ﷺ ولكنه لم يكن قد أسلم بعد، وكان اسمه **(مصعب بن عمير)** وهو من الشخصيات الهامة جدًّا في رحلتنا في السيرة، فقد كان شابًّا رقيقًا، وكان يلبس الحضرمي من النعال و«كأنه يلبس المستورد من الملابس والأحذية» من خارج مكة، وكان أكثر أهل مكة تعطرًا، وكان يقول عنه سيدنا محمد ﷺ:

«ما رأيت بمكة أحدًا أحسن لمةً، ولا أرق حُلةً، ولا أنعم نعمةً من مصعب بن عمير»[(26)].

(اللمة): أي تسريحة الشعر الطويل، فهو مهتم بنفسه وبثيابه ومظهره، فلما بلغ سيدنا (مصعب بن عمير) أن النبي ﷺ يدعو للإسلام ذهب إليه ورق رقة شديدة لدعوة سيدنا النبي ﷺ المليئة بالرحمة فأسلم معه رضي الله عنه. وسنكمل رحلتنا معه في طريق الدعوة في الفصول التالية.

ثاني شخصية من الشخصيات الهامة التي أسلمت وله قصة جميلة جدًّا.. هو (سيدنا أبو ذر الغفاري)، وكان من قبيلة اسمها (غفار).. كان يؤمن بوجود الله قبل مقابلة النبي ﷺ بثلاث سنوات، فالعرب منهم المشركون الذين يعبدون الأصنام ولكنهم متأكدون أنه يوجد إله للكون.. قال تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[لقمان: 25]

.. فهم يعلمون بوجود الله ولكنهم يشركون معه عبادة الأصنام.. ولكن أبا ذر لم يكن مشركًا، بل كان موحدًا لله ولكنه لم يكن يدري كيف يعبد الله، وكان يقرأ في الكتب الموجودة وقتها من بقايا كتب أهل الكتاب، وكان يعرف أن هذا هو زمن نبي آخر الزمان، فسمع أن هناك من يدعي أنه نبي في مكة، وبالفعل ذهب إلى مكة ليلًا، ويقول: (تضاعفت رجلًا). أي سألت رجلًا ضعيفًا حتى لا يؤذيني، فسألته عن الرجل الذي يدعي النبوة، قال: فصاح الرجل بأعلى صوته: (الصابئ.. الصابئ)، أي عليكم بالذي بدل دينه، فتجمع الناس فقال لهم: هذا الصابئ جاء يبحث عن الدين الجديد. فقاموا عليه بكل عظم وحجر؛ أي ظلوا يضربونه بالعظم والأحجار، يقول: حتى أصبحت وكأني **نُصب أحمر**.. أي تمثال أحمر من كثرة الدم الذي غطى جسدي.

وهربت منهم ونزلت في بئر زمزم ظللت فيه ثلاثين يومًا ليس لي طعام إلا ماء زمزم حتى تكسرت عُكَنُ بطني؛ أي أصبح فيها من الشحم والدهون الكثير، وذات يوم خرجت من البئر وكانت البئر مختلفة حينها عن شكلها الآن، فخرج منها فوجد امرأتين تطوفان حول الكعبة وتسجدان لصنمين اسمهما (إساف ونائلة)، فهما صنمان أحدهما ذكر والآخر أنثى، فمن كثرة غيظه من الأصنام قال للمرأتين: (أنكحا أحدهما للآخر). زوجاهما لبعضهما فجرت المرأتان وهما تصيحان (الصابئ.. الصابئ) كيف يتجرأ على الآلهة؟!

و في نفس الوقت مر النبي ﷺ وأبو بكر الصديق فوجدا أبا ذر الغفاري، فسأله النبي ماذا يقول، قال: (إساف ونائلة) يعبدونهما ويسجدون لهما قلت لهما: زوجاهما لبعضهما. فسأله النبي ﷺ: «من أين

أنت؟»، قال: (من غفار). وكانت قبيلة تعمل في قطع الطريق وسرقة الناس، فوضع النبي ﷺ يده على رأسه، فطمأنه أبو ذر بأنه أتى يبحث عن النبي، وسأله عن الإسلام فعرض النبي ﷺ عليه الإسلام وأسلم، وقد سأله النبي ﷺ عن مكانه وكم بقي في مكة، فأجابه بأنه ظل في مكة ثلاثين يومًا في بئر زمزم يشرب ماء زمزم، قال النبي ﷺ:

«زَمزَم طعامُ طُعمٍ وشِفاءُ سُقْمٍ»[27]

أي إنها تكفي وتشبع، وأيضًا هي شفاء للأمراض.. وأسلم سيدنا أبو ذر الغفاري وهو شخصية من الشخصيات المؤثرة في رحلة حياة سيدنا محمد ﷺ.

كن غنيًا مؤثرًا مثل سيدنا (مصعب بن عمير)

من المؤثر فيَّ جدًّا قصة إسلام سيدنا (مصعب بن عمير) وقصة حياته.. وأود أن أبين شيئًا لكل الأغنياء، فمن الممكن أن يكون مظهرهم جيدًا وسياراتهم فارهة وشكلهم جذابًا للقلوب والعيون.. سيدنا مصعب بن عمير كان كذلك وكانت حياته كذلك، وذلك بشهادة سيدنا رسول الله ﷺ نفسه، وكان يلبس الحضرمي من النعال وكأنه يلبس المستورد من الثياب، وكان مُترفًا.. فليس جميع المترفين غافلين، ولكن كثيرًا من الشخصيات التي وسع الله عليها، كلما رزقه الله شعر بالامتنان تجاه الله، فيريد شكر الله على نعمه في طريقته المتواضعة واهتمامه بصلواته واحترامه للفقراء وسعيه في عمل الخير وطيبة قلبه وهو يتعامل مع الناس.. فلا يشعرك بالتميز عنك تكبرًا عليك..بل يسخر الخير في يديه لخدمة الخلق.. وأنت إذا كان مظهرك حسنًا وسيارتك فارهة وتسكن في مكان (شيك) فقد تكون جذابًا لمن حولك، فيتمنى الناس أن يصبحوا مثلك، فإذا نظر إليك من حولك ووجدوك مختارًا لرب العالمين في حياتك، فمثلًا تضع سيارتك الجميلة أمام المسجد لتصلي، ومثلًا في الشاطئ في القرية السياحية الراقية يجدونك قائمًا تصلي.. فمعنى ذلك أن الدنيا لم تأخذك وتلهيك عن عبادة رب العالمين.. وكأنك بذلك تبعث برسالة أنه من الممكن أن أكون قريبًا من رب العالمين وأنا مستمتع بالدنيا بالحلال فيها.

وعلى النقيض عندما يوسع الله على الشخص وتكون حياته بعيدة عن رب العالمين وظاهر عليه ذلك، فشكل هذه الحياة جذابة أيضًا للكثير منا، ولكنها متعة حاضرة تحدث الآن ولا ترضي رب العالمين.

فانتبه إذا وسع عليك رب العالمين فهناك مسئولية عليك.

فلا تخطف قلوب من حولك بنمط حياة يبعدهم عن رب العالمين، إنما أوصل رسالة مثل سيدنا مصعب الذي سيكمل حياته في دعوته إلى أن يموت شهيدًا.

اللهم يا ذا الجلال والإكرام صلِّ وسلم وبارك على إمام أنبيائك وسيد رسلك سيدنا محمد وعلى آله وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين وجميع الصالحين وارحمنا يا أرحم الراحمين.

اللهم أخرجنا من الضيق إلى أوسع طريق، إنك يا مولانا نعم المولى ونعم الرفيق.

(18) رواه البخاري.

(19) رواه البخاري.

(20) رواه أبو نعيم.

(21) رواه ابن إسحاق.

(22) رواه ابن إسحاق.

(23) رواه الترمذي.

(24) رواه مسلم.

(25) رواه البخاري.

(26) رواه ابن سعد.

(27) رواه البخاري.

إيذاء المشركين للمسلمين الأوائل

خطوتان قام بهما النبي ﷺ لإعلان دعوته

وصلنا معًا في رحلتنا من «نور» وقصة حياة النبي ﷺ إلى مرور ما يقرب من ثلاث سنوات من الدعوة السرية، فجاء أمر من الله -سبحانه وتعالى- للنبي ﷺ فقال تعالى له:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[الحجر: 94]

(اصدع) أي أعلِن، ونزلت أيضًا قبلها:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[المدثر: 1-4]

فبعدما وصل عدد المسلمين تقريبًا إلى تسعة وثلاثين مسلمًا.. أمر الله نبيه ﷺ أن يعلن دعوته فقام ﷺ بعمل خطوتين بوحي من الله سبحانه وتعالى:

الخطوة الأولى: قام بإعداد وليمة كبيرة في منزله ﷺ ودعا لها جميع أقربائه تنفيذًا لأمر الله:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: 214]

وكان عددهم ما يقرب من ثلاثين شخصًا، فبعدما انتهوا من الطعام وشربوا قال لهم ﷺ:

«مَن يضمنُ عنِّي ديني ومواعيدِي ويكونُ معِي في الجنةِ؟»(28)

(يضمن): أي يساعدني ويدعمني أن أوصل رسالة ربي ويؤمن معي، فسكت القوم، فقال سيدنا علي بن أبي طالب: (أنا يا رسول الله). وانتهت الوليمة ولا يُذكر في قصص السيرة أو في التاريخ أن أحدًا أسلم في هذه الجلسة.

الخطوة الثانية: وهو المشهد الأكبر فقد صعد النبي ﷺ بأمر من الله -سبحانه وتعالى- على جبل الصفا، ويقع هذا الجبل في مكة أمام جبل المروة، وبدأ ﷺ ينادي أهل مكة بأسماء القبائل فيقول: «**يا بني فِهر، يا بني عدي...**». فمنهم من أتى، ومن لم يستطع الخروج بسبب شدة الحر بعث من ينوب عنه ليرى ما الخبر.. وتجمعت القبائل كلها برؤسائهم، وكان من بينهم «أبو لهب» عم النبي ﷺ.

فبدأ سيدنا محمد ﷺ كلامه فقال:

«أرَأَيْتَكُمْ لو أخْبَرْتُكُمْ أنَّ خَيْلًا بالوَادِي تُرِيدُ أنْ تُغِيرَ علَيْكُم؛ أكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟»(29)

.. وهذا شيء من الطبيعي ألا يُصدق؛ لأن في حالة وجود خيول خلف هذا التل أو الجبل الصغير كان سيظهر لها غُبار في السماء.. ولكنهم قالوا: (نعم نصدقك، والله ما جربنا عليك إلا صدقًا). فقال ﷺ: «فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فقد جمعتكم لعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام وأذية الخلق؛ لأن هناك يوم قيامة وحسابًا.. فقام أبو لهب من وسط القوم وقال له: (تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟). «تبًّا لك» تشبه الذم، كأن يقول أحدنا للآخر باللغة العامية: (يومك مش فايت)، وينزل القرآن المعجز ذامًّا أبا لهب ومتوعدًا إياه بالنار هو وامرأته، قال تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[المسد: 1-5]

فكانت امرأته أم جميل تحمل جذوع الشجر وتلقيها في طريق النبي ﷺ، فكان جزاؤها أنها سيعلق في رقبتها حبل من مسد؛ أي من نار.

وأبو لهب كان يسمى هكذا؛ لأنه كان شديد الجمال، لدرجة أن وجهه كان يشع ضوءًا من شدة البياض والجمال، وهذا على عكس التصور عنه، فسماه الناس (أبا لهب) وكان اسمه الحقيقي (عبد العزى).

ثم نزل بعدها النبي ﷺ من فوق الجبل.

بداية إيذاء النبي ﷺ لإبعاده عن دعوته

بدأ المشركون في القيام بمواقف كثيرة في محاولة لصرف وإبعاد النبي ﷺ عن الاستمرار في دعوته؛ لأن القبائل التي تأتي من أماكن مختلفة لعبادة وزيارة الأصنام الـ 360 الموجودة حول الكعبة ستأتي وسينتشر خبر أن في قريش من يقول عن نفسه إنه نبي، فبدءوا في القيام بأفعال تصد النبي عن دعوته.

أول ما فعلوا.. أنهم ذهبوا لابني أبي لهب «عتبة وعتيبة» وطلبوا منهما تطليق بنتي النبي ﷺ، وذهبوا أيضًا لأبي العاص بن الربيع زوج السيدة زينب ابنة النبي ﷺ الكبرى وطلبوا منه تطليق زوجته، فإن طلقوهن زوجوهم بأجمل فتيات قريش.

أما «أبو العاص بن الربيع» زوج السيدة زينب فقال: (لا أرضى بديلًا لزينب).. يستحيل أن أطلقها.

وأما ابنا أبي لهب «عتبة وعتيبة» - يُقال إن (عتبة) كان متزوجًا من السيدة رُقية، و(عتيبة) كان متزوجًا من السيدة أم كلثوم - فوافقا وقال لهم عتبة: (سأطلقها إذا زوجتموني بنت أبان بن سعيد بن العاص). وكانت عائلة مشهورة وابنتهم شديدة الجمال.. فانظر إلى كلمة راوي القصة «ابن هشام» يقول: (**فطلقها عتبة كرامةً لها وإهانةً له**). ولم يكن حينها زواجهم كاملًا ولكنه كان مجرد كتب كتاب.. ومن هذه البداية بدأ إيذاء من مستوى ثانٍ بعد إعلان النبي ﷺ الدعوة الجهرية.

النبي ﷺ الصادق الأمين

عندما نقف أمام سؤال النبي ﷺ وإجابة قريش عليه بأنهم يستحيل أن يكذبوه فيقولوا: (**ما جربنا عليك الكذب قط**).. نجد أن سِر هداية الناس التي ستحدث في السنوات التالية فيها أسرار كثيرة من عند الله ولكن على رأسها مصداقية النبي ﷺ وتراكم ذلك عبر السنين، فكانوا يسمونه (الصادق الأمين).

فالصدق من الأخلاق التي يمكن أن تدفع ثمنها في الدنيا بتحمل مسئولية أخطاء معينة، ولكنك بالرغم من ذلك ففي كل مرة تصدق فيها ستظهر بأحسن صورة؛ لأن الحقيقة ليست دائمًا مرضية للناس، ولكن أكثر شيء ستجنيه هو.. **سُمعتك وقيمتك في قلوب من حولك من الناس حتى وإن اختلفوا معك**.. فأعلى درجات الاحترام تحدث عندما يكون الإنسان صادقًا وواضحًا لا يراوغ، فوقتها يلجأ له من حوله، بعكس الشخص اللطيف الذي يضحكنا ويسلي وقتنا، ولكنه يكذب وهذه هي سمعته، فوقت الجد يستحيل أن تشاركه في العمل أو تعتمد عليه أو تستأمنه على سِر من أسرارك.. فعُمق العلاقات يكون مع الصادقين، أما العلاقات السطحية التافهة التي لا تنفع في دنيا أو آخرة فتستطيع كسبها إذا كنت غير صادق.

فالصادق هو شخص اطمأن له الناس، ولهذا فإن علامة الإيمان الصدق؛ لأن

> (المؤمنُ مَن أَمِنَهُ النَّاسُ)[(30)]

فالغيبة والسخرية والنميمة والكذب والإيذاء جميعها أخلاق مُنفِّرة تجعل الإنسان إذا احتاج إلى شخص يتحدث معه ويشاركه بما يشعر به لا يختاره؛ لأنه يخاف من إيذائه ولا يضمنه، على عكس الصادق

الأمين.

فانظر إلى رد المشركين على سيدنا محمد ﷺ وشهادتهم له بالصدق.

حكمة الله في طلاق بنتي النبي ﷺ من ابني أبي لهب

طلاق بنتي النبي ﷺ كان كرامة لهما وإهانة لابني أبي لهب..

ففي كثير من الأحيان يكون الطلاق جارحًا جدًّا ومؤذيًا جدًّا، ولكن صدق الله تعالى حينما قال:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾[النساء: 130]

وبالفعل فقد نجى الله سبحانه وتعالى السيدة رقية والسيدة أم كلثوم ابنتي النبي ﷺ من مهاترات كثيرة جدًّا كان من الممكن أن تحدث معهما بسبب زوجيهما وأبي لهب وزوجته إذا استمر الزواج (ولم يكن وقتها الشرع قد أمر بالتفريق بين المسلمة والمشرك)..ولكن الحمد لله أن أمر الطلاق قد تم من الطرف الآخر، وتظهر علامة كبيرة من الله -سبحانه وتعالى- عندما يتركك شخص سيئ فتحمد الله أن صرف عنك الأذى ممن كان يؤذي ويخون ويتعامل بعدم احترام.. فعندما يحدث الانفصال وتحزنين خذي وقتك في الحزن، ولكن اعلمي أن الله قد نجاك مما هو أصعب في المستقبل، وهذا نور نأخذه من قصة تطليق ابنتي النبي ﷺ من ابني أبي لهب.

عرض المشركين للنبي ﷺ ونزول القرآن للرد عليه

النبي ﷺ مستمر في دعوته ومشركو مكة أيضًا مستمرون على الجانب الآخر في ابتكار أساليب وأفكار ليبعدوا النبي ﷺ عن دعوته؛ لأنه بدأ ينتشر ويَذيع صيته بين قبائل العرب الآتين من خارج مكة.. وبدءوا يعرضون عليه بعض العروض مثل أن يتوقف عن الكلام عن الإسلام وعن الدعوة في مقابل أن يعبدوا الله عامًا وهو يعبد الأصنام عامًا، فسكت النبي ﷺ أدبًا مع الله ينتظر الأمر من الله في هذا العرض، فنزل القرآن:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[الكافرون:1-6]

وبعد ذلك يأتي «النضر بن الحارث» وقد كان من ماكري قريش المؤذِين، وكان ذكيًّا يُطيل السفر إلى العديد من البلدان، فاختلط بالرومان والفرس وعرف عنهم بعض قصص الملوك؛ مثل كسرى وقيصر، فكان بعدما يجلس النبي ﷺ مع الناس يُحدثهم عن الله - سبحانه وتعالى- وعن الملائكة، والجنة والنار، وعن الرسل، وقصص الأنبياء التي تأتي في الوحي على سيدنا محمد ﷺ، إذا بـ«النضر بن الحارث» يجمع الناس ويقص عليهم قصص كسرى والحروب، وقصص قيصر، وقصص سفره حول العالم، ويقول لهم: **(أما أقول خير أم ما يقول محمد في أساطير الأولين؟)**.. فرأيه أن النبي ﷺ يحدث الناس عن خُرافات وقصص قديمة عن أنبياء العصور السابقة ويدَّعي أن هناك آخرةً وربًّا سيحاسبنا.

وبدأ القرآن ينزل على النبي ﷺ، قال تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 31]

والناس تُنصت للنبي ﷺ مُستجيبةً له ومنبهرة بصدقه وشخصيته التي تُعتبَر بالنسبة لهم شخصيةً مكتملة.

استخدام قريش القوة ضد المسلمين الأوائل

وهنا تبدأ قريش في استخدام أسلوب (القوة)، فقامت كل عائلةٍ بأخذ مجموعة من المؤمنين وبدءوا في تعذيبهم، فقامت (بنو مخزوم) بأخذ (سيدنا عمَّار وأبيه سيدنا ياسر وأمِّه سُمية) فبدءوا يُلبسونهم دروعًا من الحديد على أجسادهم، وهذا العذاب يتخيَّله مَن يعيش أو يعرف كم تكون درجة حرارة صحراء الجزيرة العربية مرتفعة جدًّا... فتخيل في هذه الشمس الحارقة يطرحونهم على أرض الصحراء وهم مُرتدون دروعًا من الحديد.. فكان شيئًا في مُنتهى التعذيب. ويمر النبي ﷺ بجانبهم فيقول لهم:

«صبرًا آل ياسر، فإنَّ موعدَكم الجنةُ»(31)

ولم يكتفوا بذلك فقط، بل إن أبا جهلٍ أتى بالحربة وضرب السيدة سمية - أم عمار ابن ياسر- بين فخذَيها في موضع عِفتها فقتلها، فكانت «**أولَ شهيدةٍ في الإسلام**».

أما سيدنا (بلال بن رباح) فهو أشهرُ إنسانٍ عُذِّب، وكان عبدًا عند (أُمية بن خلف)، فكان سيده أُمية يُجرده من ملابسه ويُنيمه على الرمال الحارقة في الصحراء وأيضًا يربطه في حصانٍ ويسحله في صحراء مكة في شدة الحر، أو يُلقي على بطنه صخرةً ضخمة مثلما شاهدنا تلك الصورة في بعض الأعمال الفنية التي تُصور هذا، وسيدنا بلال لا يقول إلا اسمًا واحدًا من أسماء الله الحسنى ألا وهو (أحد.. أحد)، فيمر عليه النبيُّ ﷺ ويقول له:

«أَحَدٌ أَحَدٌ يا بلالُ»(32)

وكان أيضًا من بين من عُذِّبوا سيدنا (خبَّاب بن الأرت)، فهو صحابي غير مشهورٍ للكثير منَّا، فهو أيضًا كان عبدًا فكانت السيدة التي تملكه تأتي له بالفحم المُشتعل وتشويه عليه «مثل الذرة»، فكانت تُنيمه على الفحم وهو مُشتعل فيُغمى عليه من شدة التعذيب وألَمِ ظهره فلا يُطفئ هذه النار إلا شحم «دهن» ظهره. وتمر السنوات الطوال وبعدما أصبح سيدنا عمر بن الخطاب الخليفة وقتها، كان يُجلس سيدنا خبَّابًا بجانبه وكان يقول له: هذا مقامك. فتساءل الناس عن سبب هذه المكانة، فطلب من سيدنا خبَّاب أن يضع الثياب عن ظهره، فوجدوا بُقَعًا بيضاء كبيرة مثل البَرَص في أماكنِ حرْق النار التي كان يُعذَّب بها؛ لدرجة أنه ذات يومٍ ذهب للنبي ﷺ عند الكعبة وهو يحبو من شدة الألَم، فقال للنبي ﷺ:

(أما تدعو لنا؟! أما تَستنصِر لنا؟!)..ألا تدعو يا رسول الله أن يخسف الله بقريش وينصرنا عليهم؟! فكان النبي ﷺ مُتكئًا فجلَس، وقال:

«كانَ الرَّجُلُ فِيمَن قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فِيهِ، فيُجَاءُ بالمِنْشَارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُشَقُّ باثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، ويُمْشَطُ بأَمْشَاطِ الحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ مِن عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمْرَ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»(33)

نعم، سيأتي هذا الوقت، فلا يخاف أحد من إعلان إسلامه؛ لأن الأمان سينتشر في العالم أجمع، فتستطيع أن تذهب إلى أي مكانٍ وتُعلن أنك مُسلم دون خوف..

وصدق النبي ﷺ فقد عِشنا في الأمان الذي كان سببه جهد النبي ﷺ وجهد أصحابه.

القرآن.. والرد على الشبهات

يستوقفني الرد الرباني على الشُّبهة التي ألقتها قُريش بين يدي النبي ﷺ عندما عرضوا عليه أن يعبدوا الله عامًا ويعبد آلهتهم عامًا.. فعندما تنظر إلى الكلام تشعر وكأن به جزءًا جذابًا، فمثلًا إذا عبدوا الله عامًا فمن المُمكن أن يهتدوا إلى طريق الله ونذهب معهم العام التالي؛ لأننا اتفقنا ووعدناهم بذلك، لكن ينزل القرآن:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[الكافرون:1-6]

لعل هذا الموقف يعلمنا أننا إذا تعرضنا لشبهة أن نسأل أهل العلم والخبرة، فلا تترك قلبك لهذه الشبهات حتى لا تكبر بداخلك وتفاجأ وقتها ببُعدك عن الله وخفوت عباداتك بسبب سيطرة الشبهة عليك. وإنما الحل في أن تعرض هذا على العُلماء وتعرف منهم الحل، ولا تبحث في «شارع جوجل»، فهذا ليس مكانًا للبحث عن العلم النافع المرتبط بالرد على الشبهات؛ لأن «جوجل» مثل الشارع، به الشخص المُتعلم وغير المتعلم، به مَن هو ضدك ومن يكون عدوك، وبه من يُحبك ولكنه غير متعلم فيقول لك كلامًا سطحيًّا لا يفيدك.. ولكن اذهب للعالم وهو من شهد له أهل بلده من العلماء بأنه (عالم)، اذهب له واجلس بين يدَيه واعرض عليه هذه الشُّبهة التي تؤرقك واطلب منه ماذا تفعل.. وذلك مثلما أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم لحسمِ شبهة الكفار بآياتٍ تؤكد رفض هذا العرض مطلقًا حتى وإن كان فيه جزء قد يبدو للبعض منطقيًّا بل فرصة لهدايتهم، ولكنه منطق غير مقبول، فحسم الله الأمر.

الثبات على الحق وانتظار الجبر من الله

تعذيب سيدنا «خبَّاب بن الأرت» وهم يُجلسونه ويعذبونه على النار المشتعلة.. نور لكل إنسان ذاق الوجع والألَم بسبب قِيَمِه ومبادئه.. فتأتي لي رسائل في هذا الموضوع، فمثلًا يبعث لي أحد الشباب فيقول: (أخرج مع أصدقائي ويأتي أحد منهم بزجاجة خمر في منزل أحدِنا، فأخرج وأتركهم فأجدهم يسخرون مني على جروب الواتساب).. نعم فهذا وجع يُسمى «الطرد الاجتماعي». **Social Rejection**.يكون شيئًا موجعًا ولكن تحمَّل هذا العذاب في سبيل قيمك.. فسيدنا خبَّاب بن الأرت وضعوه على النار فلم يُطفئها إلا شحم ظهره ولكنه صبر وتحمَّل.

وتقول إحدى الفتيات إن خطيبها تركها بسبب رفضها إقامة علاقةٍ محرمة معه أثناء فترة الخطوبة، وكان رده عليها بأنها غير مُتفتحة وستبقى كذلك حتى بعد الزواج فتركها.. نعم أكيد، تعذَّبت في مشاعرها ونفسيتها، تعبت ولكن في المقابل ستجد أنها حمت نفسها من شخصٍ لم يكن أمينًا عليها من البداية.

وآخر يوبِّخه مديره لعدم كذبه في بيعه للبضاعة؛ ليُحقق أكبر قدرٍ من المبيعات دون مراعاة توضيح عيوبها، فتحمل هذا النوع من العذاب عند تعرضك لموقفٍ فيه اختيار بين دينك وقِيمك وبين شهواتك أو مصلحتك، وأجرك كبير أيها الصابر عند ملك الملوك ﴿ثى ثي جح جم حج حم﴾.

وعادة ما يكون بعد هذه الابتلاءات والاختبارات عزة من رب العالمين وإكرام؛ لأن الله سبحانه وتعالى بيده قلوب البشر وأحوالهم وكل شيء، فليس من المُمكن أن تتحمَّل هذا الألم بسبب قِيَمك ومبادئك ويتخلى الله عنك، حاشا لله، بل سيجبر بخاطرك ويرضيك، فآمِن بذلك.

سيدنا أبو بكر الصديق ودوره في حماية الضعفاء من التعذيب

في وسط الإيذاء والتعذيب الشديد لبسطاء الصحابة؛ كان أغنياء الصحابة من عائلاتٍ كبيرة، فالعائلات منعتهم من التعذيب؛ فسيدنا محمد ﷺ كان يحميه أبو طالب عمه، وأبو بكر كانت تحميه عائلته، وكذلك كثير من أغنياء الصحابة، أما البسطاء فعُذِّبوا؛ لأن أغلبهم كانوا من العبيد.. ولم يستطع سيدنا أبو بكر أن يصمت عن هذه الأفعال، فكان يسير ومعه المبالغ الكبيرة من ثروته، صُرَر من الدنانير، يبحث عن العبيد الذين يُعذبون ليُعتقهم، فأعتق في بداية فترة التعذيب سبعة من الصحابة.. **خمس نساء ورجُلَين وهما (عامر بن فهيرة) و(بلال بن رباح)**.وكان سيدنا بلال أشهر من أعتقهم سيدنا أبو بكر الصديق، فقد ذهب إلى (أُمية بن خلف) وأخبره بأنه يريد شراء هذا العبد منه.. فالطبيعي مثلًا أن يبتاعه بأوقيةٍ مثلًا (صُرة) واحدة من الدنانير، فسأله أُمية بن خلف: بكم ستشتريه؟ قال: بما تطلبُه مني. فغالى أُمية في سعر بلال حتى وصل إلى 7 أوقيات، فدفعها سيدنا أبو بكر له وأعتق سيدنا بلالًا رضي الله عنه، وعندما عاد سيدنا أبو بكر إلى منزله، قال له والده متعجبًا: أتُعتق الإماء والضعفاء؟ (الإماء: مفرد أَمَة، وهي المرأة المملوكة، خلاف الحرة)، فتعجَّب من أنه يُعتق الإماء والعبيد الضعفاء الذين لن ينتفع منهم بشيء، وكان وقتها (أبو قحافة) والد سيدنا أبي بكر غير مُسلم، فقال له سيدنا أبو بكر: **(إنما أُعتقهم لوجه الله)** فينزل القرآن:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[الليل: 17-21]

فمعنى هذه الآيات أن الله تعالى يشهد له بأنه أتقى البشر بعد النبي ﷺ فليس (التَّقِي) ولكن ﴿ الْأَتْقَى﴾، فهو لا يشتري العبيد حتى ينتفع من أحد ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾.. فلماذا يفعل ذلك؟ ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ وانظر إلى ختام الآيات ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾، ولذلك كان سيدنا عمر يقول عن سيدنا أبي بكر: **(أبو بكر سيدُنا، وأعتق سيدَنا)**.

سبب نزول سورة الكوثر

وتمر الأيام وتحدُث مواقف بها إيذاء شديد من قريش لسيدنا محمد ﷺ، فيأتي (العاص بن وائل)، وهو أحد عتاة المشركين، فكلما أتت سيرة النبي ﷺ قال لهم: (لا عليكم من محمدٍ، إنه رجل أبتر، فإذا مات انقطع ذِكْره). أبتر يعني مقطوع الذِّكر بعد وفاته؛ لأنه عندما تُنجب بنت من بنات النبي أولادها سيتم تسميتهم ونسبهم لوالدهم وليس لجدهم النبي، أما أولاد النبي ﷺ الذكور (القاسم وعبد الله وقتها) فتُوفِّيا وهما صغيران..

فكان العاص بن وائل يُعيِّر النبي بوفاه أبنائه الذكور.. فانظر إلى وقْع هذا الكلام القاسي جدًّا! فينزل القرآن على النبي ﷺ مبشرًا له ومكافئًا، وواصفًا عدوه وشانئه بأنه هو الأبتر المقطوع، قال تعالى:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[الكوثر:1-3]

فـ«الكوثر» هو الخير الكثير، أو نهر الكوثر الذي سيسقي منه النبي ﷺ أُمته ويرويهم من العطش يوم القيامة.. فالله سبحانه وتعالى يعلم مدى حُب النبي لأُمته، فأعطاه هدية تُفرحه بأن يسقي أُمته من يده الشريفة يوم القيامة ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾؛ أي اذبح الذبائح شكرًا لله، ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي العاص بن وائل هو الذي عندما يموت لن يتذكَّره أحد.

لأول مرة.. دعوة النبي ﷺ على مشركي قريش

ومن ضمن المواقف القاسية التي حدثت مع سيدنا محمد ﷺ يوم أن قال أبو جهل: **(أليس فيكم رجل يأتي بسلا الجزور فيُلقيها على محمد وهو ساجد؟)**..«سلا الجزور» أي أمعاء جمل ميت مُنتفخ على جانب الطريق. فقام أشقى القوم **«عقبة بن أبي معيط»** وقال: أنا من سأفعل ذلك.. فأخذ أمعاء الجمَل وجمعها في إناءٍ كبير وألقاها على ظهر النبي ﷺ الشريف.. وابن مسعود يقول عن هذا الموقف: وكنتُ واقفًا لا أستطيع تخطِّي الناس في الزحام لأحمي النبي لِضَعفي وعدم وجود عشيرةٍ تَحميني من بطشهم..

إلى أن أتت السيدة فاطمة، بنت النبي رضي الله عنها، وأقرب الناس إليه، جاءت تبكي وتُزيل هذه الأشياء السيئة عن ظهره الشريف ﷺ، ويقوم النبي ﷺ بعدَها من سجوده وهو يقول:

«اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بقُرَيْشٍ»[(34)]

أول مرة يدعو النبي عليهم، «اللَّهم عليك بعُقبة بن أبي معيط، اللَّهم عليك بعُتبة، اللَّهم عليك بأبي جهل».. لتمرَّ الأيام وجميع هؤلاء سيقتلون في غزوة بدْر، بعدها بسنوات، ويأتي بعدها رجُل يُدعى **أبا البختري بن هشام** (وتذكَّر جيدًا هذا الاسم وموقفه)؛ لأن النبي ﷺ سيردُّ له هذا الموقف فيما بعدُ، وكان مُشركًا وقتها ولكنه رأى النبي فسأله عما حدث، فأجابه النبي بما فعلوه معه فيقول: «ألقَوا على ظهري سلا الجزور». فلم يتخيَّل أبو البختري أن شخصًا في قيمة النبي ﷺ يحدُث له ذلك، فأخذ عصاهُ وذهب عند الكعبة، وضرب أبا جهل على رأسه فجرَحَهُ بها؛ لأنه من حرَّض على هذه الفعلة القبيحة، فقام عليه الرجال ليَضربوه فقال لهم أبو جهل: (اتركوه، إنما أراد محمد أن يُوقع بيننا).

والله يا أُمَّة رسول الله، إيذاء شديد رآه النبي ﷺ وصحابته الكرام، من أجل إبلاغ رسالة رب العالمين وإيصال دِينه لنا.

(أُبيُّ بن خلف) والرد القرآني عليه

عندما أقرأ عن صور إيذاء النبي ﷺ من المشركين في العهد المكي في بداية الدعوة، وأستحضر هذه المشاهد ونحن مثلًا جالسون الآن في المدينة المنورة ونُشاهد مسجد الرسول ﷺ الأبيض الكبير الذي صوتُ الأذان فيه كأنه من الجنة، ويُصلي فيه مئات الآلاف، فهو تقريبًا يسع مِليونَيْ مُصلٍّ كلهم مَشدودة قلوبهم لحُب سيدنا محمد ﷺ - أقول: يا ليت النبي ﷺ يسير بيننا ويرى حجم المسجد وعدد المُصلين به، وأراجع ذكريات «عقبة بن أبي معيط» وهو يلقي على ظهر النبي ﷺ سلا الجزور، وأيضًا «أبي بن خلف» وهو يريد أن يستعرض عقله أمام القوم، فيأتي بعظمة ويكسرها حتى تُصبح مثل البودرة ويقول: (من يُحيي العظام وهي رميم؟). فينزل القرآن:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[يس: 77-79]

فعندما أُشاهد هذا الإيذاء الشديد لسيدنا محمد ﷺ وأشاهد الفتح بعد ذلك من رب العالمين تُنير لكل واحدٍ منا طريقه آية..

﴿فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود: 49]

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور:48]

فالله – سبحانه وتعالى – لا يرضى بالأذى أيًّا كان شكل الأذى الموجود في حياتك، فكثير منَّا يكون لديه أزمة مالية، أو أزمة مع مديره في العمل، أو أزمة مع الزوج أو الزوجة أو الأولاد، غير مُطمئن من سلوكياتهم.. أكمل في رسالتك مثلما فعل النبي ﷺ .. أكمِل على أحسن وجه، وانظر إلى جميل تدبير الله لما هو آتٍ ﴿فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ولكن العجيب هو هدية رب العالمين للنبي ﷺ عندما قال له (العاص بن وائل): يا أبتر؛ لأنه فقدَ أولاده البنين؛ أي إنك عندما تموت لن يتذكَّرك أحد، وهذه مُعايرة بشيء صعبٍ جدًّا على أي إنسان فقدَ أولاده..فالله سبحانه وتعالى أعطاه هديةً تُسعده؛ لأنها لأُمته، فهو يعلم سبحانه مدى حب النبي لأمته فأعطاه هدية لنا، وهي نهر الكوثر، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فهو هدية للأمة يَسقي منه النبي أمَّته يوم القيامة، فالنبي نور في الدنيا والآخرة لنا.

فسِر في نوره ﷺ تجد أن تصرفاتك أصبحت سوية.

مواقف تكبُّر المشركين وإيذائهم للنبي ﷺ والرد القرآني عليهم

وما زالت الفترة الحالية بها إيذاء شديد من المشركين للنبي ﷺ وأصحابه، فالمشركون يتحدثون بالكلمات الطائشة في محاولة منهم لثني النبي ﷺ عن دعوته، فيأتي (الوليد بن المغيرة)، وهذا واحد من كبار زعماء قريش يقول: (كيف ينزل الوحي على محمد ولا ينزل عليَّ أنا أو عروة بن مسعود سيد قبيلة ثقيف؟). فينزل القرآن ويقول تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ﴾[الزخرف:31، 32]

فالله – سبحانه وتعالى – هو من يقسم الأرزاق ويصطفي من يشاء؛ مَنِ النبي ومَنِ الولي ومَنِ المؤمن وغيرِ المؤمن، فهو يفعل ما يريد سبحانه وتعالى.

خندق من نار بين أبي جهل والنبي ﷺ

من المشاهد التي أودُّ من حضراتكم أن تتعرفوا عليها وعلى أسباب نزول الآيات على النبي ﷺ مشهد أبي جهل ذات يوم وسط عشيرته.. تخيل الكعبة أمامك وحولها أماكن يجلس الناس فيها لمشاهدتها وجميعهم مشركون، فقال أبو جهل لهم: (لو جاء محمد ليصلي عند الكعبة والله لأطأنَّ عنقه بقدمي ولأُعفرن وجهه في التراب)، فجاء سيدنا محمد ﷺ، وما إن بدأ في الصلاة وسجد حتى تقدَّم أبو جهل ليُنفذ كلامه، وما إن بدأ يقترب من النبي ﷺ حتى بدأ يبتعِد وكأنه يُبعد شيئًا عن وجهه وهو في قمة الرعب والخوف، فسأله القوم عما حدث له فقال: (رأيت بيني وبينه خندقًا من نار). ويُخبرنا سيدنا محمد ﷺ عن هذا الموقف فيقول:

«إِنَّ بَيْنِي وبيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِن نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ المَلَائِكَةُ عُضْوًا

عُضْوًا»[35]

وينزل القرآن، قال تعالى:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: 9-19]

«الزبانية» هم خزنة النار من الملائكة.

تأثُّر أربعة من كبار المشركين بالقرآن الكريم

المشهد العجيب في هذه الأثناء أيضًا أن هناك 4 من كبار المشركين من داخلهم مُتأثرون بالنبي ﷺ وبالقرآن والكلام الذي يتفق مع المنطق ومع الروح، فعبادة الأصنام غير مُقنعة، فكان هؤلاء الكبار يذهبون بدون أن يراهم أحد ليلًا ،وكان لا يوجد في الطرقات وقتها أعمدة نور، فكان الظلام شديدًا لا أحد يرى الآخر، وهؤلاء الرجال هم: (الأخنس بن شريق - عمرو بن وهب - أبو سفيان بن حرب - أبو جهل عمرو بن هشام)، فكانوا ينتظرون قدوم النبي ﷺ عند الكعبة للصلاة ليستمعوا له وهو يقرأ القرآن، وعندما يطلع الفجر يذهب كلٌّ منهم فيجمعهم الطريق عند شروق الشمس ويتقابلون ويسأل كلٌّ منهم الآخر: ماذا تفعلون هنا؟ فلو رآكم سفهاء مكة لألقيتُم في قلوبهم شيئًا تجاه محمد. ثم يتفقون ويتعاهدون ألا يفعلوا ذلك ثانية، ولكن في الليلة الثانية حدث نفس الموقف؛ ذهبوا ليستمعوا لقراءة رسول الله ﷺ ثم تقابلوا بعدها وتلاوَموا أيضًا، وتعاهدوا ألا يعودوا، وفي الليلة الثالثة حدث نفس الموقف وتعاهدوا ألا يعودوا حتى لا يَفتنوا قريشًا إذا رأوهم متأثرين بالقرآن وبكلام سيدنا محمد ﷺ.. وذهب بعدها (الأخنس بن شريق) لأبي سفيان بن حربٍ في منزله وقال له: (سمعت القرآن؟). قال: (نعم، سمعتُ ما يقول من الحق)، وبعدها ذهب الأخنس إلى أبي جهل، وسأله نفس السؤال: (سمعت القرآن؟)، قال أبو جهل: (نعم.. ولكن كنَّا نحن وبنو عبد مناف - عائلتنا وعائلة النبي ﷺ - كفرسَي رهانٍ، أطعموا الحجيج فأطعمنا، وسقَوا فسقَينا، حتى إذا خرج منهم رجل يقول إنه نبي، فأنى لنا هذا؟.. فإذا سلَّمنا له فسنشهد لهم بالفضل علينا، فوالله لا نتركها لهم أبدًا.. فمن المستحيل أن أعترف بنبوَّته حتى لا تعلو عائلته على عائلتي). فسبب رفض أبي جهل الإيمان ليس لعدَم اقتناعه بسيدنا محمد ﷺ وكلامه الحق ولكنه؛ لأنه متكبر.

ولذلك فأبو جهل عالق في أذهان الكثير منا بذكرياتٍ سيئة؛ لأنه من داخله غير صافٍ، ونيته سيئة؛ فهو لا يبحث عن الحق بسبب كبره.. ونستكمل معًا في رحلتنا الأحداث لاحِقًا.

صراع الإنسان بين شهواته وفطرته

مشهد استماع المشركين لسيدنا رسول الله ﷺ يومًا وراء يومٍ وعدم قدرتهم على مقاومة أنوار وجمال القرآن يشرح لك كيف أن الإنسان يدخل دائمًا في صراعٍ ما بين شهواته وما بين فطرته وطبيعته، وهنا يأتي القرار:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[الإنسان: 3]

فالله سبحانه وتعالى لا يترك أحدًا إلا ويُريه طريق الهداية.. فالأربعة المُشركون كانوا يستمعون للقرآن من سيدنا محمد ﷺ عند الحرم، فتخيل كمَّ الأنوار حينها التي تُغذِّي القلوب! ولذلك ظلُّوا كذلك يأتون لمدة ثلاثة أيامٍ مُتتالية لا يستطيعون التوقُّف ولكنهم كانوا في صراع بينهم وبين شهواتهم بأنهم - مثلًا - إذا أسلموا فسيتركون الخمر مثلًا أو العلاقات النسائية المحرمة، فكان هناك شيء من المقارنة بين الشهوة الحاضرة وبين المعاني الموجودة بالقلب.. فكان هؤلاء الأربعة عندما يستمعون للنبي ﷺ يرتقي إحساسهم وكأنهم في الجنة لكنهم اختاروا التحرُّر من عبودية الله ليسقطوا في عبودية رغباتهم.. وحرموا أنفسهم من:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: 26]

.. فتنزل السكينة على الشخص الذي يسلك طريق رب العالمين.

ونحن في طريقنا إلى الله ونحن مسلمون موحِّدون تذكَّر أن ديننا فيه سعة بحيث إنك تستطيع أن تستمتع بشهواتٍ كثيرة جدًّا حلال، مع المتع الروحانية التي تملؤك بالسكينة والطمأنينة ما دمتَ مع الله..

اللهم صلِّ على سيدنا محمد النجم اللامع والقمر الساطع والبدر الطالع والحبيب الشافع وعلى آله وأصحابه العظام وأتباعه من أهل السنن والإسلام.

اللهم أوزعنا أن نشكر نعمتك، فأنت المنعم وأنت الشكور وأنت يا رب لكلِّ ذنبٍ عفو غفور، واصرف عنا يا مولانا كل علم لا ينفع، ونجِّنا يا ربنا من نفسٍ لا تشبع، ورضِّنا بما قضيتَ لنا يا سيدنا ويا مولانا.

---

(28) رواه الهيثمي.
(29) رواه البخاري.
(30) رواه ابن ماجه.
(31) رواه الطبراني.
(32) رواه الطبراني.
(33) رواه البخاري.
(34) رواه البخاري.
(35) رواه مسلم.

إسلام عُمر وتفاني أبي بكر في الدفاع عن النبي ﷺ

مرت 4 سنوات من حياة النبي ﷺ بعد النُّبوة.. والآن عمر النبي ﷺ تقريبًا خمسة وأربعون عامًا، وهنا نصِل إلى السنة الخامسة من البعثة ومن دعوة النبي ﷺ في مكة.. إيذاء شديد يتعرَّض له الصحابة.. أفكار تنشرها قريش لتصدَّ النبي ﷺ عن دعوته لله سبحانه وتعالى.. شائعات تبثها قريش في وقت الحج حيث تجمُّع القبائل من مختلف الأماكن حول الأصنام الموجودة حول الكعبة، حيث إن لكلِّ قبيلة صنمًا تعبده، فتنتشر الشائعات عن سيدنا النبي ﷺ بأنه (شاعر، ساحر، مجنون، كاهن...). كل هذا والنبي ﷺ مستمر في طريقه يشق النور في ظلمة الناس الموجودين حوله في ظلام الجاهلية..

الهجرة الأولى إلى الحبشة

مع بداية السنة الخامسة من دعوة النبي ﷺ شعر النبي بالإيذاء الشديد الذي يتأذى منه الصحابة البسطاء، فطلب منهم الخروج إلى أرض الحبشة، وتُسمى هذه (الهجرة الأولى إلى الحبشة) فقال لهم:

> «إنَّ بأرضِ الحَبَشةِ ملِكًا لا يُظلَمُ أحدٌ عندَه»[(36)].

وهو النجاشي.. ملك الحبشة، وكان وقتها نصرانيًّا عادلًا حكيمًا رحيمًا.

فبدأ الصحابة -أحد عشر رجلًا وأربع نسوة- في الهجرة إلى أرض الحبشة، وكان من بينهم سيدنا (عثمان بن عفان وسيدنا عبد الله بن مسعود) فخرجوا، وأثناء هجرتهم من مكة رآهم سيدنا عمر بن الخطاب، وكانوا يلاقون منه إيذاءً شديدًا، فكان يضرب خادمته ضربًا شديدًا لأنها أسلمت حتى يتعب هو، فعندما رأَوه تقول السيدة (أم عبد الله ليلى بنت أبي حثمة): فلما رآهم قال لهم: (إنه الفراق والهجرة يا أم عبد الله؟). فقالت: (نعم يا عمر، لقد آذيتمونا في أرضنا، ولقِينا منكم ما لا يُحتمَل). تقول السيدة أم عبد الله: (رأيت من عمر رقةً لم أرها من قبل، فقال لي: صحبكم الله. ورقَّ لي رقة شديدة).

فقصَّت ما رأته على أحد الصحابة الذي كان معهم في طريق الهجرة فقال لها: (أتطمَعين أن يُسلِم عمر؟! والله لا يُسلم حتى يُسلم جمَل الخطاب). وفي رواية: (حمار الخطاب). فعندما يُسلم حمار والد عمر يُسلم عمر؛ من شدة يأسه من إسلام عمر.. فيستحيل أن يُسلم مهما كان رقيقًا في هذا الموقف، وتنتهي هذه اللقطة هنا ولكن يبدو أن هناك مرحلة عظيمة في حياة سيدنا عمر ستبدأ لاحقًا.

إضاءات سورة الضحى وسبب نزولها

قبل أن نسرد أحداث العام الخامس من البعثة، أود أن أذكركم بأن سورة الضحى نزلت على سيدنا محمد ﷺ عندما قالت له أم جميل زوجة أبي لهب: (لعل ربك قد قلاك) عندما تأخَّر عليه الوحي، (قلاك) أي زهد فيك وملَّ منك، وكأنها تقول له: إن ربك أنزل عليك الوحي ثم رأى ألا يُكمِله معك؛ لأنك لا تستحقه.. كلام من إنسانة لا تعرف النبي ﷺ ولا تعرف الله سبحانه وتعالى..

فمن الممكن أن تكون إنسانًا صالحًا جدًّا وقريبًا جدًّا من الله وتسمع كلامًا يؤذيك ويؤلِمك بشدة من شخصٍ عَمِيَ عن رؤية الخير الموجود بداخلك فأسمعكَ كلامًا لا تستحقه.. فعندما يحدث معك ذلك

طمئن قلبك؛ لأن سيدنا النبي ﷺ حدث معه ما يُشبه ذلك من أم جميل حمالة الحطب التي في جيدها حبل من مسد.

لكن أجمل شيء في الموقف هو الرد الرباني الرحيم:

﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.. فالله سبحانه وتعالى أقسم بالنور الذي يشق ظلام الليل وتشرق الشمس من بعده.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.. فالله سبحانه وتعالى يُحبك وليس مثلما تقول أم جميل إنه قلاك.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.. فالقادم من حياتك أجمل وأفضل من السابق بكثير.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.. أتى الكلام بصيغة المضارع لاستمرار العطاء حتى ترضى، وهذا يُذكرك بماضيك مع رب العالمين بأن مع كلِّ أزمةٍ يأتي الإحسان من الله.. فاجعل لك علاقةً مع القرآن، واجعل السيرة تُنير قلبك في علاقتك بالقرآن.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.. فـ﴿عَائِلًا﴾ لها معنيان: إما (ليس معك مال فأغناك بخديجة)، وإما (وجدك مسئولًا عن البشر فأغناك بالقرآن الذي تكون به مسئولًا عن هداية البشر).

وبعد ذلك أوصاه ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

وكأن القرآن يُطيِّب خاطر النبي ﷺ بأن تأخر الوحي لحكمة من الله، أما رسول الله ﷺ ففي المقام الأعلى عند ربه.

فاجعل لك علاقةً بسورة الضحى، واقرأها كثيرًا، فستؤثر في يقينك أن ربك معك في أصعب الأيام والظروف.

شخصية سيدنا عمر بين الظاهر والباطن

هناك نور واضح في قصة سيدنا عمر الذي رق للصحابة وهم في طريقهم للهجرة، وهذا يذكرنا بأنه قد يوجد في حياتنا شخص يظهر بالشخصية الشديدة أمام الناس من حوله، ولكنه من داخله مملوء بالحنان والطيبة، ويُصدِّر هذه الشخصية الشديدة لأنه يخاف من أن يتحامل عليه أحد أو يؤذيه؛ لأنه تربى على طريقة أن العنف هو الذي يمكِّنك من الحصول على حقك، وأنه إذا كنت طيبًا ورحيمًا فهذا لا يجعل لك مقامًا عند الناس، فتجده يُصدِّر شخصية ظاهرة ولكن في أعماقه شخصية أخرى طيبة رقيقة تظهر في بعض مواقف الحياة.

فسيدنا عمر بداخله رقة شديدة ظهرت بعد ذلك من خلال صحبته مع النبي ﷺ، فكان بكَّاءً، وكان ينصر الضعفاء، فعندما تقرأ سيرته تجد أنه من أكثر الأشخاص الذين وقفوا مع البسطاء والمُحتاجين في حياة النبي ﷺ وبعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى.. فاقرأ سيرته تجد رحمة لا تتوقَّعها من قوي الشخصية مثله..

و كثيرًا ما يُوضَع الإنسان في اختبار أن يُخرج الرقة الموجودة بداخله أو يُسكتها بالعنف، ويذكِّر نفسه بأن الناس لا تستحق الطيب؛ فيتسبب في انطفاء نور قلبه.. فعندما يرقُّ قلبك بمواقف مشابهة استجب للطيبة الموجودة بداخلك، واعلم أن هذا لعلَّه نداء من رب العالمين، وأنه:

«يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَقْوامٌ، أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ»(37)

«وإن أبعدَ الناسِ من اللهِ القلبُ القاسِي»[38].

عرض المشركين على أبي طالب للتخلُّص من النبي ﷺ ودعوته

ومع إصرار سيدنا النبي ﷺ واجتهاده في توصيل دعوة رب العالمين، وفرار جزء من المسلمين إلى الحبشة في الهجرة الأولى عند النجاشي وثبات الموجودين، وكان عددهم تقريبًا (38) مسلمًا، عرضت للمشركين فكرة خبيثة عرضوها على أبي طالب عم النبي ﷺ.. وشاهد مدى رجولة أبي طالب في هذا الموقف.. أتى المشركون بـ (عمارة ابن الوليد بن المغيرة) ابن سيدٍ من سادات مكة، وكان شابًّا في منتهى القوة ومن عائلة كبيرة وغنية.. فقالوا له: يا أبا طالب، إنا عارضون عليك عرضًا.. **(أن تأخذ عمارة بن الوليد بن المغيرة فيكون ولدك تُربيه فتنتفع بقوته وعقله وأسرته وماله وتُعطينا محمدًا ابن أخيك نقتُله، فقد سفَّه عقولنا وفرَّق جماعتنا وعاب آلهتنا وآلهتك وآلهة آبائنا)**. فقال أبو طالب: **(بئسما تسومونني.. أتعطونني ولدكم لأُربيه لكم وأُغذيه لكم وأعطيكم ولدي حتى تقتلوه؟! والله لا أفعل ذلك أبدًا)**.

فجاء (المطعم بن عدي) وكان مشركًا وقال له: (يا أبا طالب، لقد أنصفوك القول). أي إنهم أعطوك حقك بأنهم سيتركون لك ولدهم القويَّ حتى تُعطيهم محمدًا.

قال أبو طالب: **(والله ما أنصفوني؛ يقتلون ولدي وأغذي لهم ولدهم!)**. وكأنه طردهم من المنزل.

ولكن يبدو أن هذا المشهد أثَّر في قلب أبي طالب فذهب للنبي ﷺ وقال له: **(يا بن أخي، هلَّا كففتَ عن قولك! فلا تُحمِّلني ولا تحمِّل نفسك فوق ما تطيق)**.. وكأنه يطلب منه أن يترك الدعوة لشخصٍ غيره، وكان الله لم يأذن للنبي ﷺ بالهجرة بعدُ.

فلما رأى النبي ﷺ أن أبا طالب يقول ذلك قال:

«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله، أو أهلك دونه، ما تركته»[39].

.. أي أنهم لو أعطَوني الدنيا بكل ما فيها لا أترك دعوة رب العالمين.. فمُستحيل يا عمي بعد أن شرَّفني وأكرمني ربي بالنبوة والرسالة أن أترك هذا الأمر مهما عرضوا عليَّ من الدنيا ومتاعها، فأنا مستمر في إبلاغ الدعوة مهما حدث، ثم بكى ﷺ بكاء الرجال.. الدمعة الحارة التي تنزل من القلب المُمتلئ بالمشاعر.

فلمَّا رأى أبو طالب النبي ﷺ على هذا الحال قال: **(أقبل يا محمد.. يا بُني، افعل ما تريد، فوالله لا أُسلمك لهم أبدًا)**.. وخرج النبي ﷺ وهو مُمتلئ باليقين في رب العالمين ومتَّخذ عمه سندًا له، وكأن الله سخَّره له لحمايته، وامتلأ قلب المشركين بالغيظ من ثبات النبي ﷺ وقوة أبي طالب ورجولته.

تفاني سيدنا أبي بكر الصديق في الدفاع عن النبي ﷺ

وفي يوم من الأيام وبينما كان النبي ﷺ يطوف بالكعبة إذا بالمشركين يقومون بإيذائه؛ فمنهم من يضربه، ومنهم من يجذبه من ثيابه، ومنهم من يريد أن يُوقعه على الأرض.. ولم يتحرك أحد إلا سيد الرجال.. سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه فدخل وسط الجموع وقال:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾[غافر:28]

وفي وسط هذه الجموع قام (عتبة بن ربيعة) أشقى القوم وطرح سيدنا أبا بكر أرضًا وأوقعه، وتجمَّع عليه الرجال يضربونه بالنعال في وجهه حتى تورَّم وجهه، فلم يُرَ له أنفٌ من وجه من كثرة ما امتلأ وجهه بالدماء والتورم، وغُشي عليه من كثرة الضرب والتعب، فأتت عائلة سيدنا أبي بكر، وعندما رأوه -وكانوا لا يشكُّون في أنه مات- قالوا: **(والله لو مات لنقتلنَّ عتبة بن ربيعة)**. فأخذوه إلى بيت أمِّه، فلمَّا أفاق قال: (أين رسول الله؟). فأخذ الناس من عائلته يلومونه؛ لأن صاحبه النبي هو سبب كل ما حدث له، وظلوا يقولون لأمه: أطعميه أو اسقيه حتى يُفيق. وسيدنا أبو بكر يقول: **(والله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا إلا أن أعلم كيف فُعل برسول الله)**.. فلم تعلم أمُّه ما جرى لرسول الله، فقال لها: اسألي أم جميل بنت الخطاب أخت عمر.. وبالفعل ذهبت إليها لتسألها وتخبرها أن أبا بكر يريد أن يطمئن على محمد، فقالت لها: **(والله ما أعلم أبا بكر ولا أعلم محمدًا)**. فكانت وقتها تُخفي إسلامها حتى لا تتعرض للإيذاء، ثم قالت لها: **(إن شئتِ ذهبتُ معك أطببه وأقدم له العلاج)**.. فلما دخلت أم جميل على سيدنا أبي بكر سألها: **(ما فُعل برسول الله؟)**. **قالت: (فانظر إلى أمك)**. قال: **(لا عليك)**. فقالت: **(هو بخير سالم صالح)**.

قال: **(والله لا أمسُّ شرابًا ولا أطعم طعامًا حتى أراه بعيني)**. فلما أتى الليل اتكأ عليهم وذهب إلى النبي ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم، فعندما فتح النبي ﷺ الباب ورآه وقد تورم وجهه من شدة الضرب رقَّ له رقة شديدة، وأبو بكر الصديق يقول له: يا رسول الله، لا عليك، إنما هو وجهي.. وكأنه شيء بسيط، ورقَّ له النبي والصحابة يبكون، ويلتزمه النبي ويحتضنه، وكأنه يقول.. يا صاحبي ويا حبيبي ويا أخي فعلتَ كل هذا من أجلي.. وينتهي المشهد هنا مع أعظم إنسانٍ كان سند النبي ﷺ.

شهامة أبي طالب

إنصاف أبي طالب ومقاومته المستمرة ودفاعه عن حق النبي ﷺ تثير إعجاب أي إنسان يحب الحق، ودعمه للنبي ﷺ وضعه في مكانة رفيعة جدًّا عند المسلمين بغض النظر هل أنت متفق مع العلماء الذين قالوا إنه مات مؤمنًا، أو الآخرين الذين قالوا إنه مات كافرًا؛ لأن هناك خلافًا بين العلماء؛ هل مات مؤمنًا يكتم إيمانه أم مات على الشرك؟

أما دموع النبي ﷺ بعدما قال: «**يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك دونه، ما تركته**» فغالية جدًّا، ثم استعبر النبي ﷺ - أي ذرفت

عيناه الدموع- فالرجال الكُمَّل لا يبكون إلا على الغالي.. وأشعر في نفسي أن جزءًا من هذه الدموع كان في حب هداية الناس، ولكنها بسبب قسوة الأحباء والأقرباء، رغم أنك تريد لهم الخير، ولكنهم غير مقدرين ما تفعله من أجلهم ويفكرون فقط في شهواتهم الحاضرة.. فمثلًا في حياتنا من يضيعون حياتهم بسبب المخدرات، فيدمرون صحتهم ومستقبلهم، فقد تجد دمعة الأب الذي يضحي بكل شيء من أجل توفير الحياة الكريمة لأولاده ولكنهم لديهم قسوة تجاهه، وأرى الدمعة من أم تبكي على أبنائها، ويقولون في المثل: (يا بخت من بكاني وبكى عليا ولا ضحكني وضحك الناس عليا). الأم عندما تبكي تبكي وهي تريد أن تخبر ولدها بأن نهاية الطريق الذي يسير فيه فيها الخراب والدمار له ولمستقبله، ولكنها ليس في يدها إلا التضحية الصادقة.

ولذلك كانت دمعة النبي ﷺ غالية جدًّا، ولعل هذه الدمعة كان لها بركة في إيمان الكثير من الخلق جبرًا لخاطر النبي ﷺ.

جمال علاقة النبي ﷺ بصديقه أبي بكر

سيدنا أبو بكر عندما ضربوه في وجهه عند دفاعه عن النبي ﷺ وتورم وجهه ورآه النبي ﷺ رقَّ له وحزن لما حدث له، فطمأنه أبو بكر حتى لا يحزن وقال: إنما هو وجهي. أي كأن وجهي فقط هو ما تضرر، برغم أن الوجه هو أكثر شيء يترك ألمًا جسديًّا ومعنويًّا، ولكنه غير مهتم ما دام هذا دفاعًا عن حبيبه ﷺ، فالكلام لا يستطيع وصف علاقة سيدنا النبي ﷺ بأبي بكر الصديق الذي كان دائمًا دعمًا لسيدنا رسول الله.

موقف أدى إلى إسلام سيدنا حمزة

وصلنا معًا في رحلة حياة سيدنا محمد ﷺ المُمتلئة بالأنوار لنا إلى سنة (6) من بعثة النبي ﷺ، فعُمْرُ النبي الآن 46 عامًا.. ولكن هذه السنة تختلف تمامًا في أحداثها عن السنوات الخمس السابقة.. فذات يوم وأثناء طواف النبي ﷺ بالكعبة في مُنتهى الخشوع والسكينة، إذا بأبي جهل يبدأ في سب النبي ﷺ ويتحدث عن ضعفه وضعف أصحابه، وبدأ يؤذي النبي ﷺ بما يكره.. كل هذا والنبي ﷺ لا يرد عليه، فكانت هناك جارية لأحد المشركين يُسمى (عبد الله بن جدعان) ظلت تستمع إلى كلام أبي جهل للنبي وهي مستاءة مما يقوله له، ومستاءة من استقواء أبي جهل في كلامه مع النبي وكلامه عن المسلمين.

وعاد أبو جهل في مجلسه عند الكعبة يتحدَّث مع أصحابه ويصف لهم ما قاله للنبي من كلامٍ سيئ يؤذيه به، وفي هذا التوقيت كان حمزة بن عبد المطلب عائدًا من رحلة صيد.. وحمزة كان عم النبي وحبيب النبي ﷺ، ولكنه لم يكن قد أسلم بعدُ، والفرق بينهما في السن يُقال عامان أو 4 أعوام وهما أَخَوان من الرضاعة، فقد أرضعتهما ثُويبة جارية أبي لهب عم النبي وهما صغيران.

فعندما عاد حمزة إذا بالجارية تذهب إليه وتقول له: (أما نظرت إلى عمرو بن هشام (أبو جهل) كيف فعل بابن أخيك؟ لقد آذاه ولم يرد عليه محمد). قال: (أوَقد فعل؟)، وكأن هناك شيئًا خلقه الله في قلبه من الغضب لسيدنا النبي ﷺ بالرغم من أن النبي ظل 6 سنوات يؤذى ولم يفعل حمزة معه شيئًا، ولكن هذه المرة مختلفة، فقد قام سيدنا حمزة مسرعًا لأبي جهل وهو في جلسته يستهزئ بالنبي أمام أصحابه،

وخلع قوسه وضرب بها أبا جهل ضربة قوية أصابته إصابة شديدة في رأسه وقال له: (أتسُبُّه وأنا على دينه؟ رُدَّها عليَّ إن استطعت). فقام القوم لحمزة، فقال لهم أبو جهل: (اسكتوا، فوالله لقد سببتُ ابن أخيه وآذيتُه إيذاءً شديدًا). وكأنه طلب منهم ألا يتعاركوا معه حتى لا يُشمِّتوا المسلمين فيهم.. يقول حمزة وقتها: (فرجعتُ إلى بيتي فبتُّ بشرٍّ ليلة، وقلت في نفسي: أنا سيد في قومي وأتبع هذا الصابئ). الصابئ: أي الذي غيَّر دينه، يقصد سيدنا محمدًا ﷺ.

فظلَّ يؤنِّب نفسه على ما فعله.. وأنه قال أمام القوم إنه على دين محمد وهو ليس كذلك، يقول: فبتُّ بشَرٍّ ليلة، وجاءني شيطاني ووسوس لي، فقلت في نفسي: إن كان خيرًا فثبِّتني اللهم عليه، وإن كان غير ذلك فليجعل لي ممَّا أنا فيه فرجًا ومخرجًا. وفي الصباح ذهب لسيدنا محمد ﷺ وقال له إنني قلت لأبي جهل إنني على دينك وأنا لست كذلك، **(فحدثني يا بن أخي إلامَ تدعو؟)**. فوعظه النبي ﷺ ونصحه وخوَّفه وعرفه إلى الله وذكَّره بالآخرة، فرقَّ حمزة وقال: **(أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.. يا محمد، قل ما تريد فوالله لا يمسَسْك أحدٌ بسوء ما دمت أنا حيًّا.. والله إن ما فعلت أحبُّ إلي مما ألمعته الشمس)**. وكان العرب يقولون هذه الكلمة: «إن الشمس عندما تسطع تجعل الذهب والفضة يلمعان». فيقول حمزة: إن ما تقوله خير من الدنيا وما فيها.. ويُسلم سيدنا حمزة في مشهدٍ من أعظم مشاهد الإسلام عزة.

ولكن أيضًا في سنة (6) من البعثة هناك مشهد عظيم آخر، وكأن هذا العام يحمل عزًّا وفرحًا للمسلمين لا يخطر على بالهم.

فكان سيدنا النبي ﷺ يشعر باقتراب إسلام أقسى عتاة المُشركين، فظل يدعو الله:

> **«اللَّهمَّ أعزَّ الإسلامَ بأحبِّ هذينِ الرَّجُلَيْنِ إليكَ؛ بأبي جَهْلٍ أو بعُمرَ بنِ الخطَّابِ»**[40]

وتمر الأيام ويأتي الكلام التالي بإسلام أحبِّ العمرَين إلى الله.

«العفوية» وإسلام سيدنا حمزة

هناك كلمة في اللغة العربية أُحبها اسمها (العفوية) بأن تقوم بتصرُّف نابع من أصلك، ونابع من أخلاقك، ومن القِيَم التي تربَّيت عليها.. فسيدنا حمزة بن عبد المطلب إسلامه كان عبارة عن رد فعلٍ لعفويته، فأثناء عودته من رحلة الصيد سمع بسبِّ أبي جهل للنبي ﷺ واعتدائه عليه وحديثه عن ضعفه وضعف المسلمين، فأخذ قوسه وشجَّ رأسه وقال: (ردَّها عليَّ إن استطعت، أتشتمه وأنا على دينه؟). فلم يكن في باله هذا الكلام، ولكنه استنكر أن يفعل أحد مع النبي هذا الاعتداء، فتصرف بعفوية فقال كلامًا كان بداخله ولم يكن يقصده، ولكنه وقتها كان متيقنًا من صدق النبي، ومؤمنًا به، وعالمًا أن كلامه صحيح، فعاد إلى بيته يقول: (فبتُّ بشر ليلة). وظل الشيطان يوسوس له كيف يترك عبادة الأصنام ودين آبائه وأجداده، وكيف يترك حياة الجاهلية المليئة بالشهوات، فلم يكن يعلم ماذا يفعل.. فما إن طلع الصبح حتى ذهب للنبي ﷺ وطلب منه أن يُطمئنه ويرجح كفة النور عنده حتى يُسكت وساوس الشيطان..

وهذا المطلوب منا أن نفعله.. فإذا رأيت نفسك مترددًا في نظرتك لقيمك وأخلاقك التي تُرضي رب العالمين وتُرضي سيدنا محمدًا ﷺ، فاذهب إلى شخص سويٍّ واعرض عليه أمرك وحيرتك حتى يدلك على الخير ويُثبِّتك على الحق.

فدائمًا اتخِذْ ممن حولك شخصًا تعرض عليه حالك وتخبره بما تشعر به عندما تتردد ويوسوس لك شيطانك؛ حتى تواجه شهواتك وتأخذ رزقك من كلامه مثلما فعل سيدنا حمزة؛ أخذ رزقه من سيدنا محمد وهو يُحدِّثه عن رب العالمين؛ فاستنار قلبه بنور النبي وأسلم وأصبح «أسد الله» و«أسد الإسلام»، فبالأمس كان كافرًا واليوم هو أسد الإسلام.

«كيف بدأت قصة إسلام سيدنا عمر بن الخطاب؟

وتمرُّ الأيام ويأتي عام (6) من البعثة بأجمل يوم طلعت عليه الشمس في حياة سيدنا عمر بن الخطاب.. يوم عزة الموحدين، ولكن هذا اليوم بدأ بمشاعر متداخلة من الغيظ والغضب.. فلو تذْكُر أن سيدنا عمر رقَّ للسيدة «أم عبد الله» التي كانت في طريقها للهجرة إلى الحبشة مع مجموعة من الصحابة والصحابيات، فقال لها: «صحبكم الله». والصحابي الآخر يقول للسيدة أم عبد الله: يستحيل أن يُسلم عمر، فحتى لو أسلم جمل أو حمار الخطاب والدِ عمر فلن يسلم عمر. فكانوا يائسين من إسلامه.. فاستيقظ سيدنا عمر ذات يوم وهو في شدة الغيظ والانزعاج مما حدث لهم ومما يدعو إليه محمد، فهو يدعو إلى أشياء منطقية ولكنه فرَّق بين الناس، يدعو إلى التوحيد وترْك عبادة الأصنام، والصدق والأمانة وإحسان الجوار وصلة الرحم.. هذا كلام منطقي رحيم، ولكنه يعيب الآلهة؛ فحدثت عنده مشاعر متداخلة، فأخذ سيفه وعزم على قتل النبي ﷺ حتى يريح الناس منه.

فخرج من بيته فقابل شخصًا في الطريق يُدعى «نعيم بن عبد الله» كان يخفي إسلامة خوفًا من إيذاء قريش، فقال له عمر: **أين محمد؟ أعلِم أنه يجلس في بيت قريب من الكعبة**. فقال له الرجل: لماذا تسأل عن مكانه؟ قال عمر: **أريد أن أقتله وأُريح الناس منه؛ فقد سفَّه عقولنا وعاب آلهتنا وفرق جماعتنا**. قال الرجل: **يا بن الخطاب، أتظن أن بني عبد مناف يتركونك إن قتلت محمدًا؟ ارجع في أهل بيتك فأقم أمرهم**. قال: **من أهل بيتي؟ قال: خَتَنك (زوج أختك) سعيد بن زيد (من العشرة المبشَّرين بالجنة، وابن عم سيدنا عمر) وزوجته فاطمة بنت الخطاب أختك، فقد أسلما واتبعا محمدًا**. قال: **أوَقد فعلت فاطمة وسعيد بن زيد؟**.. وحينها كانت السيدة فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد في منزلهما وعندهما الصحابي الجليل سيدنا خَبَّاب بن الأرَتِّ يحفِّظهما ويعلِّمهما القرآن.

ترك سيدنا عمر الوجهة التي قصدها، وهي مكان سيدنا محمد، وأسرع إلى بيت أخته، وظلَّ يضرب على الباب، فلما سمعه سيدنا خباب اختبأ في مكان في المنزل، وفتح له ابن عمه سعيد بن زيد، وبمجرد أن فتح له ضربه ضربة ألقاه على الأرض، وقالت له فاطمة: ما حدث يا عمر؟ قال: أأسلمتِ؟ قالت: نعم! فلطمها لطمة على وجهها سال الدم من فمها وسقطت منها رُقعة جلد كانت بيدها وبها آيات من سورة «طه».. ثم عاد سيدنا عمر لرشده وهدأ قلبه بعدما وجد الدم يسيل على وجه أخته، وطلب منها الرُّقعة فرفضت أن تعطيها له إلا أن يغتسل؛ لأنه مشرك، ومن عجيب المشهد أنه اغتسل بالفعل وطلب منها

أن يقرأ هذه الورقة، فقالت له: تفضَّل، على أن تعدني بألا تمسها بسوء أو تمزِّقها. قال: نعم.. وقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم..

﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾[سورة طه:1-6]

فقال: **ما أحلى هذا الكلام! وما أرحم هذا الكلام! وما أصدق هذا الكلام!** ففي ذلك الوقت خرج سيدنا خباب من مخبئه وقال: أما آن لك أن تُسلم يا عمر؟ فوالله لقد تركت رسول الله ﷺ وهو يدعو: «**اللهم أعزَّ الإسلام بأحبِّ العمَرين إليك؛ عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب**». ولعلك قد خصَّك رسول الله بدعوته (أي قصدك بدعوته).

فخرج سيدنا عمر من بيت أخته بسيفه وتوجَّه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم، وطرق الباب وبالداخل سيدنا النبي، وسيدنا أبو بكر، وسيدنا حمزة، وسيدنا بلال، فنظر أحدهم من شقٍّ في الباب (مثل العين السحرية) فقال: إنه عمر يا رسول الله. فقال حمزة: دعه لي يا رسول الله؛ إن جاء في خير بذلناه له، وإن جاء في شر قتلناه بسيفه. فقال النبي ﷺ: «اتركه لي». ففتحوا الباب فأمسك النبي ﷺ عمر من كتفه وقال له:

«**فوالله ما أراك أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة**»[(41)]

فقال عمر: والله ما جئت يا رسول الله إلا لأومن معك.. أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فكبَّر النبي تكبيرة (الله أكبر) سمعها كل من كان في البيت، وعلموا أن عمر قد أسلم.. ويبدو أن المرحلة القادمة مختلفة تمامًا بعد اكتمال المسلمين (40) صحابيًّا فيهم أبو بكر وعمر وحمزة وبقية الصحابة الكبار والضعفاء والعبيد وعلى رأسهم سيد الأكوان سيدنا محمد ﷺ.

عمر الفاروق

سيدنا عمر بن الخطاب جميع خطوات حياته ممتلئة بالأنوار لنا، وسبحان الله الذي اختار لسيدنا محمد أصحابه من شخصيات مختلفة في التفكير؛ فسيدنا أبو بكر كانت له طريقة، وسيدنا عمر له طريقة أخرى، فسيدنا عمر كان شخصًا صادقًا ولكن كان تفكيره عجيبًا وقت الجاهلية.. كان يقول: عندما يكون الجو باردًا ولا أستطيع الذهاب لعبادة الأصنام في الخارج عند الكعبة، أصنع صنمًا من العجوة ثم عندما أجوع آكله.. فأين عقلك يا عمر؟! فلما أسلم كان ينزعج مما كان يفعله ومن طريقة تفكيره أيام الجاهلية، ولكنه كان صادقًا وباحثًا عن الحق، فلما سمع سورة طه وقرأها بعدما ضرب أخته وسال الدم على وجهها.. راجع نفسه على أفعاله وتيقَّن أن طريق الشرك ليس به خير. فعندما يكون الإنسان صادقًا تُيسَّر له الهداية من الله، ولكن بالطبع هناك لحظة اختيار.. فمثلًا بعد ضربه لأخته

وقراءته لسورة طه واقتناعه بصدق كلام رب العالمين كان يمكن أن يؤجل ما يشعر به ليفكر في الأمر، وكان من الممكن أن يغلبه شيطانه ويكلِّمه أصحابه بألا يذهب للنبي ﷺ، ولكنه على الفورخرج من بيت أخته إلى البيت الذي فيه رسول الله، يرتمي في حضنه، وهنا تحوَّل عمر من شخص قالوا عنه لو أسلم جمل أو حمار الخطاب ما أسلم عمر، إلى الرجل الثاني في الإسلام بعد سيدنا أبي بكر الصديق، وكان النبي ﷺ يقول عنه:

«قد كان يكونُ في الأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُون، فإنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أحدٌ فإنَّ عُمرَ بنَ الخطَّابِ مِنهُم»(42)

يعني لو وجد شخص سينزل إليه الوحي من الله لكان عمر.

فالحق مع الفاروق الذي فرَّق الله به بين الحق والباطل.. كان كذلك؛ لأنه صادق، ولكن بعدما فهم؛ ولذلك استمِرَّ في بحثك عن طريق الله وعن سُنَّة سيدنا محمد ﷺ وعن كل ما يزيد من علمك ويزكِّي قلبك، وكلما كنت صادقًا في البحث انحلَّت المشاكل الموجودة في طريقك.. مشاكلك مع نفسك ومشاكلك مع الناس، وحتى فيما بينك وبين الله من الأمور التي لا تفهم الحكمة منها، وسيبعث الله لك من يفهمك ويفكُّ لك إشكاليات تحلُّ الحرب القائمة في عقلك، وتسكن وتعيش مطمئنًّا في طريق رب العالمين الممتلئ بالأنوار.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليمًا كثيرًا؛ عدد ما أحاط به علمك، وخطَّ به قلمُك، وأحصاه كتابك، وارضَ اللهم عن أصحابه أجمعين، وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين. اللهم يسِّرْ لنا أمورنا، مع الراحة لقلوبنا وأبداننا، والسلامة والعافية في ديننا ودنيانا، وكن لنا صاحبًا في سفرنا، وخليفة في أهلنا، ويسِّر لنا يا مولانا كل شيء.. يا من بيده ملكوت كل شيء.

---

(36) رواه الذهبي.
(37) رواه مسلم.
(38) رواه الترمذي.
(39) رواه ابن إسحاق.
(40) رواه الترمذي.
(41) رواه ابن إسحاق.
(42) رواه مسلم.

هجرة الحبشة وبداية عام الحزن

قبل أن أكمل معكم قصة حياة النبي ﷺ ونحن الآن في بدايات السنة الـ(7) من البعثة، وعمر النبي ﷺ الآن تقريبًا سبعة وأربعون عامًا، أسلم سيدنا عمر، ولكن هناك قصة لطيفة توضح شخصية سيدنا عمر وقتها.

ماذا فعل سيدنا عمر ليُشهِر إسلامه؟

عندما أسلم سيدنا عمر في دار الأرقم بن أبي الأرقم وكبَّر النبي ﷺ وقتها، علم كلُّ مَن بداخل البيت بإسلام عمر، ويحكي سيدنا عبد الله بن عمر هذا الموقف عن والده عمر وقتها فيقول: سأل عُمر بعدها عن أكثر شخص معروف عنه أنه ينقل الحديث فدلُّوه على شخص يُدعى «جميل بن معمر الجمحي»، وبالفعل ذهب عمر في طريقه إليه وسيدنا عبد الله بن عمر يمشي وراء أبيه ليرى ما سيفعل.. فجاء سيدنا عمر إلى الرجل وجلس بجواره وقال له: أما علمت أني أسلمت واتبعت دين محمد؟ قال عمر: فوالله ما رجع إليَّ. أي لم يسألني ماذا حدث حتى جرى إلى الكعبة يجرُّ ثيابه وهو يقول: صبأ عمر.. صبأ عمر. وجرى وراءه سيدنا عمر حتى وصل عند الكعبة وهو يقول: **والله ما صبأت، إنما أسلمت واتبعت محمدًا وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.**

فقام الناس عند الكعبة يضربونه ويضربهم حتى جرحوه في رأسه وأوقعوه على الأرض وهو يقول لهم: والله ما أترككم أبدًا. إلى أن اشتدت حرارة الشمس، فتركوه فترة، وبعد ذلك أخذوا يضربونه ويضربهم إلى أن مرَّ بهم شيخ كبير وقال لهم: **ماذا تفعلون في عمر؟ إنما هو امرؤ اختار أمرًا لنفسه.** أي إنه اختار أن يكون مع النبي، فما شأنكم أنتم؟ ثم انصرف الرجل. قال: فقام الناس عنه كأنه ثوب قد قُشط عنه بعدما سمعوا لكلام هذا الرجل الكبير وابتعدوا عنه.. فسأل سيدنا عمر عن اسم هذا الرجل فقالوا: العاص بن وائل. رجل مشرك ولكن الله ألقى في قلبه هذا الكلام، فابتعدوا عن ضرب سيدنا عمر.. وانتهت قصة إعلان إسلام سيدنا عمر بن الخطاب بهذا المشهد.

ماموقف رؤساء القبائل من مجلس رسول الله ﷺ وأصحابه والرد القرآني عليهم

بدأت الآن سنة (7) من البعثة وعمر النبي الآن سبعة وأربعون عامًا، كان جالسًا في مجلس مع مجموعة من بسطاء الصحابة منهم سيدنا بلال بن رباح، وسيدنا خبَّاب بن الأرتِّ، وسيدنا عمار بن ياسر.. وغيرهم، فأتى «عيينة بن حصن الفزاري» و«الأقرع بن حابس التميمي» وهما من كبار مشركي العرب ورؤساء القبائل وقتها، فأتوا لزيارة النبي ﷺ ليتعرفوا منه على الإسلام، فوجدوا فقراء الصحابة مع النبي ﷺ فطلبوا منه ﷺ طلبًا غريبًا فقالوا: **هلَّا جعلت لنا مجلسًا بعيدًا عن هؤلاء الفقراء والعبيد حتى تعرف العرب بمجلسنا معك؟** أي إنه عندما يدخل أحد من العرب لا ينبغي أن يرانا مع هؤلاء الفقراء والعبيد؛ فاطردهم واجعل لنا مجلسًا خاصًّا معك. فنزل القرآن بهذه الحقيقة الشريفة:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ

لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[الأنعام: 52 - 54]

.. فرفض النبي ﷺ أن يطرد الفقراء من أجل الأغنياء، وجاء الرد القرآني برفض هذا الفعل؛ لأنه من الكِبر والعنصرية والتفريق بين الناس، وقد جاء الإسلام ليساوي بين الناس في الاحترام، والكل يقف صفًّا في العبادة بين يدي الله، وكان النبيُّ ﷺ كلما شاهد هؤلاء الصحابة والتقى بهم قال لهم: السلام عليكم كما أمر ربي:

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

وذات يوم والنبي سيقوم من مجلسهم نزل القرآن:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ..﴾[الكهف: 28، 29]

.. فهذا هو ديننا وهذا إسلامنا الذي يُكرِّم الجميع، ويقبل الغني والفقير والمتعلم والبسيط، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.. وكأن القرآن ينزل بردًا وسلامًا على البسطاء الذين اختاروا النبي ﷺ وواجهوا قومهم وضحَّوا بحياتهم وخاطروا بتحمل الإيذاء حتى يكونوا مع سيدنا محمد ﷺ فينزل القرآن يجبر بخاطرهم، فحتى لو كان الظاهر للناس أن الأغنياء والشرفاء سيفيدون الإسلام أكثر فإن الكِبر لن ينفعهم ولن ينفع الإسلام.

صدق سيدنا عمر في إشهار إسلامه

الطريقة التي أعلن بها سيدنا عمر بن الخطاب عن إسلامه في مكة كانت طريقة متناسبة مع رغبته الشديدة أن يعرف الجميع أن المعاداة للإسلام والمعاداة للخير والحق والرحمة انقلبت داخل قلبه إلى نصرة، وكأن سيدنا عمر من صدقه كان يريد أن يخبر كل شخص من سادات مكة أنه كان مخطئًا وأن فهمه كان خاطئًا قبل ذلك، وأنه الآن يعلن هذا للجميع.

فالإنسان الصادق عندما يخطئ يكون لديه من القدرة والشجاعة أن يصلح مساره ويشعر بالمسئولية في تبليغ ذلك.. ولذلك بحث عن أكثر شخص لا يحفظ الحديث وينقل الكلام؛ حتى يخبر الجميع أنه أسلم واتبع النبي ﷺ الشخص الوحيد الذي كان على صواب، ومعه الحق والرحمة ﷺ.

« الأنا » المتضخِّمة تحُول بين الإنسان وبين اتِّباع الحق

مشهد كبراء قريش الذين رفضوا الإسلام لمجرد أن النبي ﷺ يجلس مع بسطاء الصحابة، وطلبوا منه أن يطردهم ويجلس معهم في وقت آخر بعيد عنهم، فنزل القرآن:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[الأنعام: 52]

.. فـ«الأنا» عندما تتضخَّم تحرم الإنسان من أخلاق كثيرة وخيرات كثيرة في الحياة، تمنع الإنسان من الاعتذار عندما يخطئ، حتى وإن تأكد من خطئه يتعامل بكبر ولا يعترف بخطئه، وكأنه يكفي أن تتكلم أو تتعامل مرة أخرى مع الشخص فيرى عدم أهمية اعتذاره.. و«الأنا» تجعل الشخص لا يشكر غيره؛ لأنه متوقع من الجميع أن يخدموه؛ لأنه يستحق الخدمة ولا داعي لأن يشكر أحدًا؛ فتجد هذا الشخص يفتقد الشعور بالامتنان.. و«الأنا» تجعل الإنسان أيضًا يقصر في الصلاة وفي عباداته عندما يقوم بأعمال صالحة أخرى، وكأن قلبه يخبره بأن هذا يكفي؛ فهو يفعل الخيرات الكثيرة فلا ينبغي له أن يلتزم بالصلاة ويلبي نداء رب العالمين.. فأحيانًا تتضخَّم «الأنا» حتى تجد أن الشخص يمنُّ على رب العالمين بأعماله، وذلك مذكور في الأثر الشهير عندما قال رب العالمين لسيدنا آدم:

«يا آدم، ذنب تذلُّ به إلينا، أحب إلينا من طاعة تُرائي بها علينا»[(43)]

.. فسادات قريش كانت لديهم «الأنا» متضخِّمة جدًّا فحالت بينهم وبين الحق الذي صدقوه ولكنهم استكبروا عن الجلوس مع البسطاء والفقراء.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

ومع بداية سنة 7 من البعثة اشتدَّ الإيذاء جدًّا على المسلمين في مكة؛ لأن أغلبهم من البسطاء الذين ليس لهم ما يمنعهم من إيذاء قريش؛ فأعطاهم النبي ﷺ الإذن بالهجرة الثانية إلى الحبشة.. ففي الهجرة الأولى كان عددهم قليلًا أقل من (15) رجلًا وامرأة، أما الهجرة الثانية فكان عددهم كبيرًا (83 رجلًا و17 امرأة)، وهُم تقريبًا أغلب المسلمين الموجودين في مكة. وفي سنة 7 من البعثة طلب منهم النبي ﷺ الهجرة إلى الحبشة، وأن يكمل هو دعوته حتى يأذن الله له بالهجرة فقال لهم:

«إنَّ بأرضِ الحَبَشةِ ملِكًا لا يُظلَمُ أحدٌ عندَه»[(44)].

وبالفعل هاجر المسلمون، وفيهم **سيدنا جعفر بن أبي طالب، وسيدنا عثمان بن مظعون، وسيدنا أبو موسى**، ووصلوا عند النجاشي، واستقبلهم أهل الحبشة.. ولكن حدث شيء من الغيظ الكبير عند مشركي مكة، وهو أنه كيف لهذا العدد الكبير من المسلمين أن ينجوا بأنفسهم من الإيذاء وينتصروا عليهم؟! فأرسلوا خلفهم **عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة** وكانا مشركَينِ وقتها، أرسلوهما إلى الحبشة بهدايا لاستعطاف الأساقفة حول النجاشي؛ حتى يقنعوه بإرسال المسلمين معهم مرةً أخرى إلى مكة، وأن يطردهم من الحبشة. فأتوا بهدايا من الجلد الثمين الذي كان يحبه النجاشي ويحبه الأساقفة، ودخلوا عليهم ووزَّعوا عليهم الهدايا وقالوا لهم: **إن عندكم أناسًا من قومنا تركوا ديننا ولم يدخلوا في دينكم، وقد عابوا آلهتنا وسفَّهوا عقولنا وفرَّقوا جماعتنا، وقد بعَثَنا قومنا وهم أعلم بهم لنردَّهم إليهم،**

فإذا كلَّمنا الملك «النجاشي» فسدِّدوا رأينا. أي شجِّعوه على أن يردَّهم معنا. وبالفعل أعطوهم الهدايا وأعطوا النجاشي الهدايا الأخرى وقالوا له: **أيها الملك، إن عندك قومًا من قومنا تركوا ديننا وأتوا بدين جديد ليس بدينك ولا ديننا، ودخلوا في دين لا نعلمه نحن ولا أنت، وقد عابوا عقولنا وسفَّهوا آلهتنا وفرَّقوا جماعتنا، فبعثَنا قومُنا وهم أعلم بهم لنردَّهم إلينا؛ فرُدَّهم علينا.** فقامت الأساقفة فقالوا: **نعم، رُدَّهم؛ فقد تركوا الدين ولن يدخلوا في ديننا.** فاعترض النجاشي وقال: **والله لا أسلمكم إياهم حتى أسمع منهم.** انظر إلى صدق النبي ومعرفته به عندما قال: **«لا يُظلم عنده أحد»**.. وبالفعل أرسل النجاشي إلى المسلمين ليتعرَّف منهم على حقيقة الأمر، فدخل منهم سيدنا جعفر بن أبي طالب، فقال له النجاشي: **ما الذي جاء بكم إلى ديارنا؟ وما هذا الدين؟** فسيدنا جعفر رتَّب كلامه فقال: **أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف، ونأكل الميتة، حتى جاءنا رجل منا، رسول نعرف نسبه وصدقه وأمانته، فأمَرَنا أن نعبد الله ولا نشركَ به شيئًا، ونترك عبادة الأصنام، ثم أمرنا بصدق الحديث والأمانة وحُسن الجوار، ونهانا عن أكل الميتة، ونهانا عن عبادة الأوثان، ونهانا عن قذف المحصنات، وأمرنا بالتوحيد والصلاة.** فعدَّد له أخلاق الإسلام، ثم عبادات الإسلام، ثم قال: **فتعدَّى علينا قومنا، ولم يتركونا ندخل في دين رب العالمين؛ فتركْنا أرضنا وقصدناك ولم نقصد غيرك رجاءَ ألا نُظلم في أرضك.** فقام النجاشي وقال: **وهل معكم شيء من القرآن الذي تلا عليكم محمد؟** فقام سيدنا جعفر ووُفِّق أن يتلو عليه بدايات سورة مريم:

﴿كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[مريم:1-4]

فبكى النجاشيُّ وبكت الأساقفة، وقال النجاشي وهو ممسك عصًا مستقيمة في يده: **إن ما أسمع وما نزل على عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة.** فهذا القرآن وكلام سيدنا عيسى مستقيم مثل هذه العصا وكأنهما خارجان من نفس مصدر النور، وقال: اذهبوا في أرضي، فوالله لا أسلمكم أبدًا. وصدق رسول الله ﷺ عندما قال للمسلمين: **«اذهبوا إلى أرض الحبشة؛ فإنها أرض صدق فيها ملك لا يُظلم عنده أحد»**.

حقد المشركين على المسلمين بهجرتهم إلى الحبشة

المسلمون تركوا مكة وذهبوا إلى الحبشة ليعبدوا الله في سلام وأمان، بدون إيذاء من قريش، ولكن كون قريش ترسل إليهم من يأتي بهم مرة أخرى، فهذا يدلُّ على مدى الحقد الشديد، وكأنهم يرون أنه ينبغي ألا تعبدوا الله في سلام وأمان حتى وإن تركتم بلدكم، فينبغي ألا تعبدوا الله نهائيًّا، وكأنهم يخافون أن يدعوا الناس في الحبشة إلى عبادة الله، فيؤمنوا معهم؛ فيصبحوا في قريش وكأنهم على خطأ.. فالحقد هو المرض الأكبر والأول في الكون والذي ظهر في صورة حقد إبليس على سيدنا آدم عندما تكبَّر عليه بقوله:

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ﴾[ص:76].

و توعَّد بإيذاء ذريته وإغوائهم:

﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر: 39]

وكان هناك شيء هام جدًّا في تربية عقل سيدنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فبالرغم من أنهم ظلوا مع النبي ﷺ سنوات قليلة فإن النبي ﷺ كان يربي أصحابه بمنتهى الوضوح، فوصف جعفر أحوالهم بأن: أخلاقنا كانت سيئة، فكان عندنا قطع للرحم وعبادة للأصنام، فجاءنا إنسان سُمعته طيبة ومعروفة عبر السنين عندنا ولم نرَ مثله قبل ذلك، فعرفنا صدقه وأمانته، فأمرنا بكذا وكذا.. وقد رتَّب الأولويات: التوحيد.. بأن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا وأن نترك عبادة الأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الجوار، وألا يأكل القويُّ الضعيفَ، ثم أمرنا بالصلاة والصدقة.. فتشعر أن المسلم الذي ربَّاه النبي ﷺ فاهم للأولويات التي ترضي رب العالمين، فهذا الجزء منير لديه، فالمسلم ليس بالشخص العابد الذي يكثر من الصلاة ولكننا نتمنى فراقه بسبب سوء أخلاقه، ولا هو بالشخص الخلوق جميل العشرة ولكنه لا يركع لله ولا يصلي فيخاطر بآخرته مع رب العالمين، ولكن المسلم لديه توازن بين الأخلاق والعبادات؛ لأن هذا هو نور النبي ﷺ الذي وصَّانا به حتى يرضى عنا رب العالمين.

قصة شِعب أبي طالب وحرمان المسلمين من احتياجاتهم الأساسية

في منتصف سنة (7) من بعثة النبي ﷺ بعدما استقر أغلب المسلمين في الحبشة عند الملك النجاشي الذي لا يُظلم في أرضه أحد.. اشتد الغيظ والحقد من المشركين وقرروا أن يلجئوا لطريقة أخرى من التعذيب والحرمان للمسلمين من احتياجاتهم الأساسية؛ فقرروا حبس بني هاشم وجميع من أسلم في **«شِعب أبي طالب»**، وكان هذا مكانًا منعزلًا في مكة بعيدًا عن الأسواق، فلا يشترون منهم ولا يبيعون لهم، ولا يتزوجون منهم وسيتركونهم كذلك حتى الموت.. فجاءت عائلة بني هاشم فدخلت فيه، وجاءت عائلة بني عبد مناف فدخلت، المسلم منهم والمشرك الذي دخل حمية لئلا يُفعل في أهله هذا، إلا أبا لهب عم النبي ﷺ خرج وذهب مع قريش وترك عائلته وظاهَرَ (أي نَصَر) قريشًا على النبي وعلى المسلمين. ومرت الأيام والشهور وانتهى طعام المسلمين، وكلما أتى تاجر إلى السوق من خارج مكة وخرج أحد المسلمين ليشتري منه، ذهب إليه أبو لهب ومنعه من التعامل مع المسلم وأخبره أنه سوف يشتري بضاعته بأعلى سعر؛ ويعود المسلم وليس معه طعام لأهله؛ حتى سمعوا بكاء صبيانهم من الجوع. وتنفق السيدة خديجة أغنى أغنياء مكة جميع أموالها على المسلمين في هذه السنوات الثلاث، ويبذل النبي ﷺ قصارى جهده في توحيد المسلمين وكفايتهم بالقليل، ويأتي **«حكيم بن حزام»** ابن أخي السيدة خديجة، فهي عمته، وكان لا يزال على الشرك ولكنه أراد أن يُدخل لهم الطعام على جمل مُحمَّل، فأمسك به أبو جهل وهدَّده بفَضْحه بفعلته هذه؛ لأنهم كتبوا صحيفة وعلَّقوها في الكعبة بأنهم لن يتعاملوا مع المسلمين في بيع ولا شراء ولا نكاح، وهو بذلك يخالف هذه الصحيفة وهذا العهد.. ويأخذ منه الجمل المحمَّل بالطعام والماء بعيدًا عن الشِّعب.. قسوة وعدم رحمة في حرمان الناس من الاحتياجات الأساسية من المأكل والمشرب؛ لمجرد أنهم آمنوا بالله وقالوا: **لا إله إلا الله، سيدنا محمد رسول الله.**

وكان هناك أحد المشركين يدعى «هشام بن عمرو» كان يأتي بالجمل المحمَّل بالطعام والشراب ليلًا؛ حتى لا يراه أحد.. ويقترب من الشِّعب ويضرب الجمل بالسوط فتجري الناقة وتدخل الشِّعب حتى يأكل أهل الشِّعب من هذا الطعام.. وتمر الأيام وهشام بن عمرو مستاء جدًّا مما يحدث مع المسلمين في شعب أبي طالب، برغم أنه ليس مسلمًا ولكنه يرى أن ما يحدث معهم ليس من الرحمة، وأنه ليس من الرجولة أن يتروكهم كذلك؛ لأنهم لم يؤذوهم في شيء.. وظل يفكر فيما يفعل، وبالفعل ذهب إلى أحد أصحابه المشركين ويسمى «زهير بن أبي أمية» فقال له: **أترضى أن تأكل وتشرب وتنكح النساء وبنو هاشم يقتلهم الجوع والعطش في شعب أبي طالب؟** قال: **والله لا أرضى ولكني امرؤ واحد!** قال له: **أنا معك.** وذهب هشام إلى صديق آخر وهو **«المطعم بن عدي»** وكان مشركًا أيضًا ولكنه رجل ذو مروءة فقال له: **أترضى أن تأكل وتشرب وتتزوج النساء وبنو هاشم يقتلهم الجوع والعطش في شعب أبي طالب؟** قال: **لا، ولكني امرؤ واحد!** قال: **بل معنا اثنان زهير وأنا هشام بن عمرو معك.** وذهب مرة أخرى إلى **أبي البختري بن هشام** وكان رجلًا مشركًا ولكنه ذو مروءة أيضًا فقال له هشام: **أترضى أن تأكل وتشرب وتنكح النساء وتعيش في رغد الحياة ومحمد وبنو هاشم يقتلهم الجوع والعطش؟** قال: **لا، ولكني واحد، نحتاج إلى الكثير من الرجال.** قال له هشام: **الآن نحن أربعة رجال فلنفكر فيما نفعل.** وبالفعل اتفقوا على أن يذهبوا في اليوم التالي إلى الكعبة، وينادي أحدهم فيقول إنه غير راضٍ عن الذي يحدث في شعب بني طالب، ويقول: **نحن نعيش في رغد من العيش وبنو هاشم وبنو عبد مناف يقتلهم الجوع والعطش، والله ما هذا بالنَّصَف!** (يعني العدل) وعندئذٍ يقوم كل منهم ويؤكد قوله. وبالفعل هذا ما حدث، وأول من بدأ الموضوع هو «زهير ابن أبي أمية»، وما إن انتهى من كلامه حتى رد عليه أبو جهل وقال له: **كذبتَ**، إنها **لصحيفة معلقة في الكعبة، فتعاهدنا وتعاقدنا عليها.** عندئذ قام «أبو البختري بن هشام» وقال: **بل كذبتَ أنت يا أبا جهل وهو الصادق.. فلا بد أن تُقطع الصحيفة.** وقام من الجهة الأخرى «هشام بن عمرو» وقال: نعم. تُقطَع الصحيفة. وقام من الجانب الرابع «المطعم بن عدي» الذي وافقهم في الكلام.. وبالفعل بدأ الصوت يعلو في القوم بضرورة فك الحصار ونقض الصحيفة، فنظر أبو جهل وقال: **إن هذا الأمر مُبيَّت بليل.** (أي مُخطَّط له من قبلُ)، وكأنه شك في أن اتفاقًا ما حدث بينهم، كل هذا في أثناء دخول أبي طالب عم النبي ﷺ وهو يقول: **حدثني محمد ابن أخي وهو الصادق المصدوق أن الله قد أخبره بأن الأرضة (حشرة تأكل الورق) قد أكلت الصحيفة إلا موضعًا يذكر فيه الله..** كلمة «الله» وكانوا قديمًا يكتبون اسم الله؛ فهم يؤمنون بوجود إله للكون ولكنهم يشركون معه عبادة الأصنام، وقال لهم أبو طالب: **لو لم تجدوا ما أخبرني به محمد لأسلمتكم إياه لتقتلوه..** انظر إلى مدى ثقة أبي طالب في كلام النبي ﷺ وبأنه وحي من رب العالمين.. وبالفعل فتحوا الكعبة فوجدوا الصحيفة جميعها مأكولة إلا الأجزاء المكتوب فيها **«باسمك اللهم»**، وكأنهم نزل عليهم سهم من الله وقرروا نقض الصحيفة وفتح شعب أبي طالب، وعاد المسلمون إلى ديارهم مرة أخرى بعد حصار اقتصادي كبير ومجاعة ضخمة جاهدوا فيها وتحملوا من أجل رب العالمين.

تضحية الصحابة باحتياجاتهم الأساسية والتمسك بعقيدتهم

استطاعت قريش أن تضغط وتستغل بشرية الصحابة في هذا الحصار.. فالإنسان أول ما يحتاج إليه هو المأكل والمشرب؛ فهذه هي الحاجات الأساسية، ثم يحتاج للأمان، فأخذوا منهم كل هذا، ثم يحتاج إلى علاقات اجتماعية مستقرة بأن يُحِب ويُحَب، وأن ينجح في الدنيا ويكون صاحب إنجاز، عندما ينظر إلى نفسه يجد له بصمة وقيمة، وبعد ذلك الاحتياجُ الخامس، وهو أن يُعلِّم الناس ويؤثِّر فيهم، وهذا هو (هرم إبراهام ماسلو للاحتياجات)، فهم يعلمون جيدًا أن الإنسان إذا لم يجد احتياجاته الأساسية من المأكل والمشرب والأمان، فأفكاره وقيمه يمكن أن تهتزَّ، ويمكن أن يتنازل عنها. كان المشركون يعتقدون ذلك، ولكنهم وجدوا الصحابة الذين تربوا على يد النبي ﷺ؛ عقيدتهم ودينهم ومبادؤهم هي أول شيء يعيشون عليه ومن الممكن أن يضحوا بأي شيء في سبيل تمسكهم بدينهم.

وفاة أبي طالب وبداية عام الحزن

نصل الآن في رحلتنا في حياة سيدنا محمد ﷺ إلى نهاية سنة (10) وبداية سنة (11) من البعثة؛ لأنهم دخلوا في شِعب أبي طالب سنة (7) وخرجوا منه في سنة (10) بعد حصار دام ثلاث سنوات في المجاعة والعطش، ومع نهاية سنة 10 من البعثة وقع حدث عظيم في حياة النبي ﷺ وهو موت عمه أبي طالب سنده وحمايته من البشر؛ الرجل الذي لم يُسلم النبيَّ إلى قريش ولم يقبل أن يمسَّه أحد منهم بسوء، وتحمل طوال عمره الإيذاء. كان أبو طالب مقدرًا جميل النبي ﷺ عندما افتقر قديمًا فذهب إليه النبي ﷺ مع العباس وقال له: **«يا أبا طالب، نكفي عنك مؤنة ولدك»** فأخذ العباس جعفر وأخذ النبيُّ عليًّا.على مدى 10سنوات من لدن بعثة النبي ﷺ لم يستطع أحد من المشركين الاقتراب من النبي ﷺ بسوء إلا مرات قليلة، والسر حفظ الله للنبي ﷺ عن طريق عمه أبي طالب، الذي ظاهره أنه مشرك ليس مسلمًا، ويدخل النبي ﷺ على عمه في آخر يوم من حياته وهو نائم على سريره، وعند رأسه «عبد الله بن أمية» أحد كبار المشركين من أصحاب أبي طالب وعلى يساره «عمرو بن هشام» (أبو جهل) مشرك شديد الشرك، وكأنهما يريدان حضور لحظة وفاته لخوفهما من أن يعلن إسلامه قبل الوفاة؛ حتى يسلماه للآخرة وهو مشرك.. ويدخل عليه النبي ﷺ في هذه اللحظة وكأن تاريخ مساندة وعون أبي طالب أمام عينيه فيقول له:

> **«يا أبا طالب، يا عمي، إنك أعظم الناس عليَّ حقًّا وأحسنهم عندي يدًا...»**[(45)]

وكأنه يقول له إن كل لحظة في حياتي أتذكَّر جميلك فيها.. فقال له ﷺ:

> **«أيْ عَمِّ، قُلْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لكَ بهَا عِنْدَ اللهِ»**[(46)]

أي: أشفع لك بها عند ربي يوم القيامة.. وأبو جهل يقف عند رأسه فيقول: **لا ترغب عن ملة عبد المطلب.. لا ترغب عن ملة أبيك وأبي أبيك.** وهنا ينظر أبو طالب في آخر لحظات حياته ويقول: **هو على**

ملة عبد المطلب. ثم يموت ويختلف العلماء هنا هل أبو طالب مات مسلمًا موحدًا يُخفي إسلامه حتى يحمي النبي ﷺ أم مات على الشرك؟ فالكثير منهم يقول مات على الشرك، وبعض العلماء يقول إنه مات موحدًا لله. و«**الزيني دحلان**»[47] أحد علماء المسلمين ألَّف كتابًا اسمه «**أسنى المطالب في نجاة أبي طالب**» بيَّن فيه أنه عندما قال «**هو على ملة عبد المطلب**» أن عبد المطلب أيضًا كان موحدًا لله وكان يقول: «**للبيت رب يحميه**». وهو من جدود النبي ﷺ الذين قال عنهم: «**أنا خيار من خيار**». بل إن الأجيال التي لم يُبعث فيهم نبي يسمونهم «أهل الفترة»، وهي مدة فتور؛ أي توقف بعثة الأنبياء فيها، فالله يقول:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: 15].

فأهل الفترة إن شاء الله من الناجين يوم القيامة لعدم وجود نبي في وقتهم؛ لأن عبد المطلب جدَّ النبي مات ولم يبعث النبي بعد.. فبعض العلماء قال إنه مات على التوحيد لكنه كان يخفي إسلامه، وقلبي مستريح جدًّا لهذا الرأي بأن هذا الرجل الذي أفنى حياته في دعم وخدمة ونصرة ومساندة سيدنا محمد ﷺ مات موحدًا لله.

ثلاث أفكار في وفاة أبي طالب

الفكرة الأولى.. وهي كيف أن الصاحب يمكن أن يبلغ تأثيره على صاحبه لدرجة أنه يظل وراءه إلى أن يدمر دنياه وآخرته.. فأبو جهل ظل وراء أبي طالب حتى لحظة الوفاة وهو يحذره من الدخول في الإسلام، ولم يتركه في أهم لحظة اختيار.. فعندما تجد من يعطي صديقه سيجارة حشيش أو كأس خمر أو أي شيء مؤذٍ لصحته ولدينه وآخرته وهو يتفنَّن في إيذائه بهذا الشكل، بل قد يدفع جميع مصاريف ترابيزة شرب الخمر كنوع من الكرم، ابتعد عن هذا الشخص؛ لأنه سيتسبب لك في اقتراف سيئات لن تتحمل حسابها ووزرها يوم القيامة، ولا تعلم مدى الخراب الذي يسببه لك في حياتك وآخرتك.. قال سبحانه وتعالى: ﴿ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ..﴾.

الفكرة الثانية..

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص:56]

فانظر إلى مدى حب سيدنا محمد ﷺ لعمه أبي طالب وإحساسه بفضله عليه في كل لحظات حياته؛ فيطلب منه أن يقول كلمة واحدة يشفع له بها يوم القيامة؛ حتى يدخل الجنة.. كلمة واحدة هي التوحيد ولكنه لم ينطق بها.

الفكرة الثالثة.. الخلاف بين العلماء في قول: هل أبو طالب مات على التوحيد أو لا؟ حين قال أبو طالب وهو يموت: «**بل على ملة عبد المطلب**». فهل هو على ملَّته في التوحيد أم في الشرك؟ فأنا قلبي مع العلماء الذين قالوا إنه مات على التوحيد، فهذا أحب إلى قلبي، وأشعر أيضًا أنه الأحب إلى قلب رسول الله، ولَأَنْ أخطئ في رأيي وأرجو أن يدخل أحد الجنة أفضل عندي من أن أحكم عليه أنه من أهل النار وهو

موحِّد بالله.. والعلماء ممن قالوا بأنه مشرك لديهم أدلة، ومن يقولون إنه موحد لديهم أدلة على ذلك أيضًا، والكل على خير، ولكني مستريح إلى أن هذا العم الشهم السند والعون لسيدنا محمد ﷺ الذي لم يُسلمه قط لإيذاء المشركين.. إن شاء الله يكون من أهل التوحيد.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي الأمي القرشي، بحر أنوارك، ومَعْدِن أسرارك، وحامِل كتابك، ولسان حجتك، وخير خلقك، عبدك ونبيك الذي ختمتَ به الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم سخر لنا كل خير في الأرض والسماء، وهب لنا ريحًا طيبة كما هي في علمك، وانشر علينا في أحزاننا رحمتك، واحملنا إليك حمل الكرامة مع السلامة والعافية في الدين والدنيا والآخرة، إنك على كل شيء قدير.

---

(43) ورد في الأثر.

(44) رواه الذهبي.

(45) روي في الخبر.

(46) رواه البخاري.

(47) أحمد زيني دحلان. فقيه ومؤرخ وشيخ علماء الحجاز في عصره. تولى منصب الإفتاء وشيخ العلماء في مكة المكرمة عام 1288 هـ في أواخر الخلافة العثمانية.

7

رحلة الطائف وإسلام وفود الجن

نكمل معًا رحلة حياة النبي ﷺ «النور» الذي كلما رأيت تصرفاته ﷺ واقتديت به خرجت من كل شيء مظلم في حياتك إلى نور يشرح صدرك، وتحيا وبالُك مستريح؛ لأن الإنسان إذا كانت تصرفاته مؤذية لنفسه أو لغيره يظلم قلبه؛ لأن الله - سبحانه وتعالى- خلق الإنسان متسقًا ما بين قلبه وفعله، فكلما فعلت شيئًا متسقًا مع فطرتك سكن قلبك، قال النبي ﷺ:

«البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ ما حَاكَ في نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ»[48].

فعندما تبتعد عن سُنة وحياة سيدنا النبي ﷺ تبتعد عن كل سلوك سوي؛ ولذلك نحتاج إلى السير في نور سيدنا النبي ﷺ.

عام الحُزن وسبب تسمية العام بهذا الاسم

وصلنا معًا إلى نهاية العام العاشر وبداية العام الحادي عشر من بعثة النبي ﷺ، فعمره ﷺ الآن 51 عامًا، مات عمه أبو طالب، ودفنه سيدنا علي، وبعد مرور شهر وخمسة أيام وقع الحدث الأكبر الحزين في حياة النبي ﷺ وهو «وفاة السيدة خديجة بنت خويلد» الحبيبة القريبة الزوجة السند المعين.. وكُتب التاريخ لم تذكر لنا سبب وفاتها، ولكن يبدو كما يقول بعض شُرَّاح السِّيَر أنها خرجت من شِعب أبي طالب - وهو الحصار الذي استمر لمدة ثلاث سنوات - خرجت منه منهكة جسديًّا وصحيًّا، وتوفيت وعمرها 65 عامًا.. أكثر من 25 عامًا من الزواج مع سيدنا رسول الله ﷺ وحياة في منتهى القرب والودِّ، وعندما توفيت رضي الله عنها دفنها النبي ﷺ في منطقة في مكة اسمها «**الحَجون**»، والحقيقة أن وفاة السيدة خديجة جعلت العلماء يسمون هذا العام بـ«**عام الحزن**»؛ لأنه انتهى بفقد كبير عند النبي ﷺ؛ أولًا بفقد عمه أبي طالب ثم زوجته السيدة خديجة.

ونحن نسرد معًا السيرة لم يتردد اسم السيدة خديجة كثيرًا في المواقف؛ فالأتقياء الأخفياء قد لا يُذكرون كثيرًا، ولكن رأينا أثرها في نفسية وقلب النبي ﷺ، فهي التي صدَّقته حين كذَّبه الناس، وآمنت به حين كفر به الناس، وواسته بمالها وعمرها، وهي المأوى في المنزل، يتحدَّث إليها، ويشكو لها، ويجلس معها؛ فتعطيه من الحكمة والحنان، ولذلك لا تندهش أن النبي ﷺ بعد وفاتها بسنوات طويلة كان يذكرها.. فقبل وفاتها بأيام كانت تحضر للنبي ﷺ الطعام، فنزل عليه سيدنا جبريل وقتها وقال له:

«يا رسولَ الله، هذه خَديجةُ قد أَتَتْكَ معها إناءٌ فيهِ إدامٌ أو طعامٌ أو شَرابٌ، فإذا هيَ قد أَتَتْكَ، فاقرَأ علَيها السَّلامَ مِن ربِّها ومِنِّي، وبشِّرْها ببَيتٍ في الجنَّةِ مِن قَصَبٍ، لا صَخبَ فيه ولا نَصبَ»[49]

أي بشِّرها ببيت في الجنة من لؤلؤ لا يوجد به إزعاج أو إيذاء مثل الذي عانت منه من المشركين طوال سنوات الدعوة إلى أن توفيت، ولا يوجد فيه مرض ولا إنهاك للجسد مثلما حدث معها.

فطوال رحلتها الطويلة مع سيدنا محمد ﷺ وهي بجانبه ونعم المعين له والسند، وبالفعل عندما جاءت إلى النبي ﷺ أخبرها بما قاله له سيدنا جبريل عليه السلام فقالت: **(اللَّهُ السَّلَامُ، وَمِنْهُ السَّلَامُ، وَعَلَى جِبْرِيلَ السَّلَامُ)**..فأخلاقها قمة السكينة والحكمة.

وتمر السنوات وكانت السيدة عائشة تقول:

> «ما غِرْتُ على أحَدٍ مِن نِسَاءِ النَّبيِّ ﷺ، ما غِرْتُ علَى خَدِيجَةَ، وما رَأَيْتُهَا، ولَكِنْ كانَ النَّبيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، ورُبَّما ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّما قُلتُ له: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ في الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إلَّا خَدِيجَةُ»[50].

وفي رواية أخرى:

> «ما أكثرَ ما تذكُرُها حَمراءَ الشِّدْقِ، قد أبدَلَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ بها خَيرًا منها»[51]

فهذه القصة حدثت تقريبًا بعد وفاة السيدة خديجة بعشر سنوات، فكانت السيدة عائشة تقول للنبي ﷺ ما زلت تتذكرها يا رسول الله وهي «حمراء الشدقين»؛ أي عجوز وقعت أسنانها، فعندما تضحك لا يظهر إلا اللثة الحمراء، فهي توفيت من سنوات طوال وقد أبدلك الله خيرًا منها.. فقال لها النبي ﷺ:

> «ما أبدَلَني اللهُ عزَّ وجلَّ خَيرًا منها؛ قد آمَنَتْ بي إذ كفَرَ بي الناسُ، وصدَّقَتْني إذ كذَّبَني الناسُ، وواسَتْني بمالِها إذ حرَمَني الناسُ...»[52]

فانظر إلى دفاع النبي ﷺ عنها ووفائه بعد تلك السنوات الطوال، وكان ﷺ يقول:

> «أفضَلُ نساءِ أهلِ الجَنَّةِ خَديجةُ بنتُ خُوَيلِدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمَّدٍ، ومَريَمُ بنتُ عِمرانَ، وآسِيةُ بنتُ مُزاحِمٍ امرأةُ فِرعَونَ»[53].

فهُن أفضل نساء العالمين، ولذلك كان العام الذي توفيت فيه السيدة خديجة **«عام الحزن»** بالنسبة للنبي ﷺ.

كيف نعيش لحظات الفقد على مُراد الله؟

السيدة خديجة رضي الله عنها توفيت بعد موت أبي طالب بشهر وخمسة أيام.. قصتان متتاليتان للفقد عند النبي ﷺ في شهر واحد تقريبًا، ففي حياتنا إذا حدث هذا الفقد الكبير ينحني ظهر الشخص، إلا إذا كان مسنودًا بعون رب العالمين سبحانه وتعالى.

فـ«أبو طالب» كان في منزلة الأب، والسند الذي علَّم النبي ﷺ رعي الغنم والتجارة، وكان يحميه من أذى قريش، والسيدة خديجة رضي الله عنها كانت الأخت والأم والزوجة والصديقة، وكانت مثالًا للعطف والاحتواء وحُسن الصحبة للنبي ﷺ، فيكفي أن النبي ﷺ ترك العالم كله يوم البعثة عندما رأى سيدنا جبريل عليه السلام وذهب إليها وقصَّ عليها ما رأى.. تأمل في هذا الموقف وأنت تعرف كيف كانت بالنسبة له!

فعندما يحدث هذا الفقد الكبير يمكن أن تتساءل: لماذا حدث هذا يا رب العالمين مع حبيبك؟ مثلما يحدث إذا مات الأب وحزن أولاده عليه بشدة، ثم بعد مرور شهرين تموت الأم؛ فيصير الفقد بالبيت كبيرًا جدًّا، فنحن عادة لا نسأل الله عما يفعل سبحانه؛ لأننا لا نُقيِّم أفعال رب العالمين؛ لأننا لم نُخلَق لذلك، فنحن نرى فِعل رب العالمين ونتأمل في حكمته، ونعلم أن جميع أفعال رب العالمين -يقينًا- من ورائها الخير؛ لأن النبي ﷺ وهو يناجي ربه سبحانه وتعالى كان يقول:

«وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ»(54).

قال تعالى:

﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة:216]

ويقول تعالى:

﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء:19]

فقد لا يتصور الإنسان وجود الخير في وفاة عم النبي ﷺ وزوجته بصورة متتالية في وقت قصير كهذا..

أولًا: لعلها أُسوة لبيوت كثيرة يحدث فيها فقد متتالٍ مثل هذا.

ثانيًا: تأمل ابن عطاء الله وهو يقول: *«إذا أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأُنس به..»*. فالوقفة على باب رب العالمين وأنت وحيد تبني فيك أيها الإنسان مستوى من الصِّلة بالله والروحانيات تذهب بك إلى مكان آخر في النور في طريق الله وتزيد قوَّتك.. فتستطيع أن تقوم بالله في الدنيا حتى وإن لم تجد أحدًا من حولك.. فكما أنك لا تستغني عن الناس ولكن من الممكن أن تمرَّ بمرحلة فيها فَقدٌ كبير؛ إما بترك، وإما بموت؛ فوقتها قِف على باب رب العالمين لينمو بداخلك السند بالله المُهيمن، وهذا الشيء نحن جميعًا بحاجة إليه ونحن في طريق مولانا سبحانه.

شدة إيذاء المشركين للنبي ﷺ وشجاعة أبي بكر الصديق

لما مات أبو طالب تضاعفت جرأة قريش عليه ﷺ، فبينما هو واقف يصلي في سكون وسلام عند الكعبة إذا بـ«عقبة بن أبي معيط» - نفس الرجل الذي فتح بطن الجمل الميت (سلا الجزور) ووضعها في وعاء وألقاها على ظهر النبي الكريم وهو يصلي- هذا الرجل جاءته فكرة شيطانية أخرى؛ حيث أتى من

خلف النبي ﷺ وأخذ عباءته ﷺ وخنقه بها؛ لدرجة أن النبي ﷺ كان من الممكن ألا يحتمل هذه الخنقة الشديدة، فجاء سيدنا أبو بكر رضي الله عنه وكأن النبي ﷺ لا يغيب عن نظره حتى يطمئن على صاحبه، فأتى وشق الصفوف وأسرع يبعد عقبة بن أبي معيط عن رسول الله ﷺ وهو يقول:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾[غافر: 28]

ويحكي هذا الموقف سيدنا علي بن أبي طالب بعدها بسنوات كثيرة، فبينما كان القوم يجلسون مع سيدنا علي بن أبي طالب بعد استقرار الإسلام وانتشاره يقولون له: **«ألست أنت أشجع الناس؟»**؛ لأن سيدنا عليًّا كان شديد القوة في الحروب، كان علي يقول لهم: **«لا.. ولكن أشجع الناس هو أبو بكر الصديق؛ فكان هو الذي يدافع عن رسول الله من مشركي مكة»**. ويقصُّ عليهم قصة عقبة بن أبي معيط وخنقه للنبي، وإسراع سيدنا أبي بكر وتقدُّمه للدفاع عنه من وسط الصفوف، وبعد ذلك يسألهم فيقول: **«أسألكم سؤالًا: من أفضل عند الله؛ مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه في سورة غافر** ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ **وكان يقصد سيدنا موسى، أم أبو بكر الصديق؟»**. فيقول: **«والله ليومٌ من حياة أبي بكر الصديق خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون؛ فإن مؤمن آل فرعون والذي نزل فيه القرآن وأخبرنا الله بقصته في قرآن يُتلى إلى يوم القيامة كان يكتم إيمانه، أما أبو بكر الصديق فرجل استعلن بإيمانه أمام الخلق»**.

ليس هذا الموقف فقط من الإيذاء، ولكن بينما كان النبي ﷺ يسير في طرقات مكة إذا بشخص يأتي بإناء مملوء بالتراب ويضعه على رأس رسول الله ﷺ، ولم يكن قد نزل وقتها قرآن بالجهاد والدفاع عن النفس، وإنما كان يقول ربنا سبحانه:

﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[الفرقان: 52]

المقصود أن الجهاد كان بالقرآن فقط؛ فنجاهد وندافع عن أنفسنا بإظهار كلام الله وإقناع الناس برحمة رب العالمين، والكلام المنطقي الذي يفتح القلب والعقل والروح.. وإذا بالنبي ﷺ يدخل إلى منزله ووجهه ولحيته مملوءة بالتراب، فتأتي السيدة فاطمة تبكي، وهي التي كانت تُسمى «أم أبيها» بعد وفاة أمها السيدة خديجة، فقد كانت ابنته وأخته وأمه، فهي في قمة العناية والرعاية لأبيها النبي ﷺ، فأتت وأزالت عن وجه النبي ﷺ الشريف وعن لحيته التراب، وهي تبكي فيقول لها ﷺ:

«يا بُنيَّة، لا تبكي، فإن الله مانعٌ أباك»[(55)].

فبإذن الله سيحفظني ويحميني ربي.

فكان يُسكِّن ابنته التي ترى أباها الكبير السن والمقام صاحب الواحد والخمسين عامًا وهو يحدث له مثل هذا الأذى وهو أشرف الخلق، وأطيب الناس وأرحمهم بالمشركين.. وبعد ذلك أتاه الوحي من رب

العالمين بأن يتحرك إلى مكان آخر، يكلِّم الناس عن ربهم، وكان الوحي بالتحرك إلى «الطائف»، وهي تبعد عن مكة بأكثر من 100 كم، ولكن كل صعب يهون في سبيل ربنا الكريم.

معانٍ هامة نستخلصها من إيذاء المشركين للنبي ﷺ وتحمُّله

مشاهد إيذاء النبي ﷺ سواء بإلقاء التراب عليه، أو محاولة خنقه وهو يصلي، أو بإلقاء سلا الجزور (أمعاء الجمل الميت) من عقبة بن أبي معيط على ظهر النبي ﷺ وهو يصلي؛ جميعها مشاهد بها معانٍ هامة جدًّا.

المعنى الأول:

أن النبي ﷺ تحمَّل الكثير جدًّا من العناء والتعب؛ حتى نستطيع أن نعيش الآن في بلادنا آمنين بديننا، ونستطيع أن نذكر الله ونعبده بدون إيذاء، ونستطيع أن نصلي في المساجد بدون خوف أن يحدث لنا مكروه، أو نتعرض للإيذاء مثلما حدث مع النبي ﷺ وصحابته الكِرام.

فعندما يُذكر سيدنا محمد ﷺ نتذكَّر أكبر معاني التضحية، والصبر بنفس طيبة، ودعوته لكل إنسان أن يهديه رب العالمين إلى الطريق المستقيم.

المعنى الثاني:

أن ما حدث مع سيدنا محمد ﷺ رفعة لمقامه، ولكن بالنسبة لنا كبشر يبدو كأنه إهانة.. فعندما تكون كبيرًا وتتعرض لموقف يبدو أن فيه سخرية واستهزاء بك.. تحمَّل فهذا جزء من رحلة الدنيا.. أن تُكرَّم وتُعزَّ ويشكرك الناس ويقدروا مجهودك، وأحيانًا أخرى قد تقابل إنسانًا سفيهًا لم يفعل أي شيء له قيمة في الحياة، ولكن تجد من هذا السفيه الإهانة وسوء الخُلُق.. فيكفيك حينئذٍ أن رسول الله ﷺ أُسوة لك؛ إذ وجد الإيذاء من مشركين لم يفعل معهم إلا كل خير وإحسان وبرٍّ ولكنهم ردُّوا بالإساءة والإيذاء.. فإذا حدث معك مواقف مشابهة فاصبر. ويكفي أن سيدنا محمدًا ﷺ قد مرَّ بمواقف مماثلة، فيمكن أن يكون ذلك سببًا أن يبعثك الله في كنف سيدنا محمد ﷺ:

> «من تشبَّهَ بقومٍ فَهوَ منْهم»[(56)]

المعنى الثالث:

«**إهانة الكبار من الشقاء**». فالنبي ﷺ يقول:

> «ليسَ منَّا من لم يرحَم صغيرَنا ويعرِفْ شرَفَ كبيرِنا»[(57)]

فعقبة بن أبي معيط هو أشقى القوم، عندما فعل هذه التصرفات، ونحن تعظيمًا لجناب النبي لا نقول لفظ «إهانة النبي»؛ لأن النبي ﷺ لا يُهان، فلننتبه إلى الألفاظ، لكننا كمؤمنين نتعلم أنه لا ينبغي أن نفعل أي تصرف غير لائق مع الكبار، فمثلًا لا ينبغي أن أجلس وأمُدَّ قدمي في وجه أبي أو أرفع صوتي عليه، أو يكون هناك رجل أو امرأة عجوز في وسيلة المواصلات وأتركه يقف أو أتركها تقف وأنا جالس..

«ليس منا».. أي أن هذه الأخلاق ليست أخلاقنا.

فالكبير لا بد أن توقِّره.. ومع الأسف من ضمن الأخلاق التي افتقدناها في أجيال هذا الزمان «إجلال الكبير»، فلا بد أن نستمع إلى الكبير ونحترمه، وإذا أخطأ نتناقش معه، مع مراعاة فارق عمره وخبرته، سواء كان معلمًا أو صديقًا أو قريبًا.. فعندما أتناقش مع صديق ليس كما أتناقش مع كبير السن، فحتى وإن كان رأيي صحيحًا مائة في المائة ورأيه خطأ تمامًا، فلا بد أن أراعي فارق السن.

ففي الحديث..

> **«إني لأستحي من عبدي وأَمَتِي يشيبان في الإسلام، فتشيب لحية عبدي، ورأس أمتي في الإسلام، أعذبهما في النار بعد ذلك»**(58)

فعندما يشيب الشخص ويكبر في العمر نوقِّره ونحترمه.. فهذا الخُلُق تحتاج الأجيال إلى أن تعيش به وتعيش في نور سيدنا النبي ﷺ.

رحلة الطائف الصعبة

يبدأ ﷺ بوحي من رب العالمين التحرُّك من مكة قاصدًا منطقة «الطائف».. و«الطائف» بها قبيلة من أكبر قبائل العرب تُسمى «ثقيف».. فأخذ النبي ﷺ «زيد بن حارثة» الذي كان النبي ﷺ وقتها متبنيًا له وكان اسمه «زيد بن محمد» وبدآ يتحركان إلى الطائف. يقول العلماء: إن النبي ﷺ ذهب سيرًا على الأقدام؛ لأنه لو ركب راحلته فمن الممكن أن تتبعه قريش وتعرف بسفره؛ فلم يُرِد أن يلفت انتباههم لخروجه، رغم أن المسافة كانت حوالي مائة كيلو متر أو أكثر.

وما إن وصل إلى الطائف حتى ذهب إلى «عبد ياليل ومسعود وحبيب» أولاد عمرو بن عمير بن ثقيف؛ فهؤلاء هم سادات ثقيف، جلس معهم وتحدَّث معهم عن رب العالمين وعن الآخرة، ودعاهم إلى الإسلام وترك عبادة الأصنام، وإلى صدق الحديث والأمانة، وألا يأكل القويُّ الضعيفَ، وإلى حُسن الجوار وترك أكل الميتة.. وكلها كانت أفعالًا وأخلاقًا جاهلية.. فمن الطبيعي أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها تستجيب لهذا الحديث، ولكنهم فعلوا العكس.. فكل واحد من هؤلاء الثلاثة أراد أن يستهزئ بطريقة مختلفة.

أما **الأول فقال**: أمرُط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك (أي أنه سيذهب ويُقطِّع كسوة الكعبة إن كان الله أرسل النبي ﷺ لهم وبعثه رسولًا).

والثاني قال: أما وجد الله من هو خير منك ليرسله؟!

والثالث قال: إما أن تكون نبيًّا فأنت أعظم من أن أرد عليك، وإما أن تكون كذَّابًا فلن أرد عليك.

فسكت النبي ﷺ وقال:

«إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني»[59]

لأنهم إذا أخبروا مكة بمجيئه وحديثه معهم يظنون أنه ذهب ليستقوي بهم على حربهم، وهذا ليس المقصود، إنما ذهب النبي ﷺ فقط لدعوتهم إلى الله بعدما انغلقت قلوب أهل مكة.

فرفضوا طلبه وقالوا له إنهم سيرسلون إلى مكة من يخبرهم بمجيئه حتى يعادوه ولا يسمحوا له بدخول مكة مرة أخرى، وأغروا (حرَّضوا) الصبيان والسفهاء والمجانين أن يسرعوا وراء النبي ﷺ وزيد بن حارثة ليضربوهما ويسخروا منهما.. وبالفعل هذا ما حدث؛ فقد أسرعوا وراءهما يضربونهما بالحجارة ويلقون عليهما التراب وينادونهما بأبشع الألفاظ والكلمات.. فانطلق النبي ﷺ وسيدنا زيد بن حارثة، يقول النبي ﷺ:

«فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ»[60]

وهي منطقة خارج ثقيف، وذلك بعد إصابة سيدنا محمد ﷺ بجروح في قدمه، وإصابة سيدنا زيد بن حارثة بجروح في رأسه، فلم يتركهما السفهاء حتى دخلا في حائط (بستان) لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما من سادات مكة المشركين، وكان لهما بستان قريب من الطائف؛ لأن الطائف كانت درجة حرارتها معتدلة فتصلح فيها الزراعة.

وكان سيدنا محمد ﷺ ذا هيبة وعظمة وسكينة ووقار، فعندما وجداه (شيبة وعتبة ابنا ربيعة) على هذه الحال من التعب والإرهاق رفقا به، وأرسلا غلامًا لهما يسمى «عدَّاس» بقطف من العنب.. وبالفعل ذهب عدَّاس وجلس بين يدي النبي ﷺ وقدَّم له العنب؛ فأخذ النبي ﷺ حبة منه ليأكلها وقال: «**باسم الله**». ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله ﷺ: «**ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟**». قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى. فقال رسول الله ﷺ: «**من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى؟**». فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟[61] أي أنك كيف عرفت بيونس بن متى؟ فقال النبي ﷺ: «**ذاك أخي، كان نبيًّا وأنا نبي**». راوي القصة يقول: **فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبِّل رأسه ويديه وقدميه، قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك. أي أن غلامك قد دخل في الإسلام.**

وقام عداس بعد هذا الموقف وهو مؤمن بالله ورسوله، وسيدنا النبي ﷺ منجبر خاطره بأن هناك من استجاب لدعوته وآمن بالله.. وسكت النبي ﷺ ورفع يديه وقال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقِلَّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أمْ إلى عدو ملَّكْتَه أمْري؟ إن لم يكن بك عليَّ

غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي غضبك، أو يحلَّ بي سخطُك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا قوة إلا بك»[(62)]

(التجهُّم): هو الوجه الطارد الذي عندما تراه تشعر وكأنه يكرهك.

(العُتبى): أي الاسترضاء.. أي أنني سأظل أطلب رضاك حتى ترضى.

وكأنه ﷺ يعلِّم الكون كله كيف نتعامل مع الأزمات الكبيرة، فليس لنا إلا الله -سبحانه وتعالى- فهو ﷺ راضٍ بقضاء الله وعن كل أفعال الله.

فينزل ملك الجبال عليه السلام يقول له:

«يا مُحَمَّدُ، فقالَ ذلكَ فِيما شِئْتَ، إنْ شِئْتَ أنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأخْشَبَيْنِ»[(63)]

ونحن مؤمنون أن من أركان الإيمان الستة الإيمان بالملائكة.. وللملائكة وظائف، منها «ملك الجبال» الذي قال لرسول الله ﷺ: «إنْ شِئْتَ أنْ أُطْبِقَ **عليهمُ الأخْشَبَيْنِ**»؛ أي الجبال من حولهم، فقال له النبي ﷺ:

«بَلْ أرْجُو أنْ يُخْرِجَ اللهُ مِن أصْلابِهِمْ مَن يَعْبُدُ اللهَ وحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئًا»[(64)]

وقام بعدها النبي ﷺ ليعود إلى مكة وباله منشغل كيف سيدخل مكة بعدما عرفوا بذهابه إلى الطائف.

اختيارات الله لنا دائمًا لحكمة حتى وإن كنا نجهلها

عندما تتأمل في رحلة الطائف يأتي في عقلك سؤال: إذا كان الله لم يكتب أن يؤمن هؤلاء الناس، فلماذا أرسل إليهم رسول الله ﷺ ليدعوهم؟ وهذا السؤال يسأله العقل دائمًا عندما تقوم بمجهود كبير في شيء ولا يأتيك منه ثمرة كما تريد؛ فتتساءل: لماذا قدَّر عليَّ الله هذا؟ والحقيقة أن هذا السؤال يكون في منطقة من العقل تُسمى «العقل القاصر»؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- يُسيِّر مُلكه ويُدبِّره بحكمة، قد لا نستطيع إدراكها جميعًا، ولكن يمكنك أن تدرك لقطة صغيرة فقط منها.. فنحن لا ينبغي لنا أن نضع أفعال رب العالمين تحت تقييم عقولنا؛ لأننا بذلك نظلم أنفسنا ونحمل حِملًا ثقيلًا جدًّا على أنفسنا.

فسيدنا النبي ﷺ سار لمسافة طويلة جدًّا، وتحدث مع أُناس في منتهى السُّخف في طريقة ردهم عليه، ولكن كما تعلم فالإنسان إذا تُرِك لشيطانه يقوم بتصرفات أسوأ من تصرفات الشيطان نفسه، فعندما طلب منهم أن يعود إلى مكة من حيث أتى؛ سلطوا عليه الصبيان والسفهاء يؤذونه ويلقونه بالحجارة والتراب حتى جُرح رسول الله وجُرح سيدنا زيد وجلس النبي ﷺ بعدها ودعا الدعوة التي ينبغي لك أن تحفظها فقال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقِلَّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أمْ إلى عدو ملَّكْتَه أمْري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي غضبك، أو يحلَّ بي سخطُك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا قوة إلا بك»(65)

فهذا دعاء تسخير الأكون، دعاء جبر الخاطر..

فما حدث بعد ذلك كله جبر لخاطر النبي ﷺ من إسلام الغلام «عداس» والذي لم نعرف إلى أين ذهب بعد ذلك، وإذا أراد الله إخبارنا بما حدث له بعد ذلك لذكره لنا وحفظه مثلما حفظ قصص الكثير في القرآن والسُّنة، ولكن يبدو أنها كانت مثل «الطبطبة» على قلب النبي وجبرًا لخاطره، والذي يفرح برؤية شخص موحد لله يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

«الكريم إذا قدر عفا».. فعندما نزل ملك الجبال وطلب منه أن يأمره بأن يطبق عليهم الأخشبين؛ لأنهم ليس فيهم خير، لم يرضَ النبي ﷺ؛ راجيًا ومؤمِّلًا أن يخرج منهم من يؤمن بالله.

ويعود النبي ﷺ إلى مكة حتى يكمل شق طريق النور مرة أخرى؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، بعدما عفا عن أناس لعل الله يهديهم.. وبالمناسبة فهذا حدث بالفعل بعد سنوات طويلة ودخلوا في دين الله أفواجًا.

وفود الجن إلى رسول الله ﷺ

ويعود النبي ﷺ وزيد بن حارثة من الطائف، وفي الطريق يقف النبي ﷺ يصلي كعادته، ويحدث موقف به جبر خاطر كبير من رب العالمين للنبي ﷺ.. وهو استماع مجموعة من الجن لقراءة النبي ﷺ للقرآن.. وقبل أن أكمل معك القصة.. أذكرك بأن عقيدتنا كمؤمنين بالله ورسوله أن نؤمن بالغيب، والغيب هو الأشياء التي لا نراها مثل الملائكة والجن والجنة والنار، والجن مخلوق مُخيَّر ومُخاطب بدعوات الأنبياء مثل الإنسان. فالنبي ﷺ بُعث إلى الثقلين؛ أي الإنس والجن، ولهم في الآخرة جنة ونار، والله سبحانه وتعالى تكلم عنهم في سور كثيرة من القرآن، ومن أشهر السور التي ذكروا فيها في الجزء الـ29 هي سورة «الجن».. قال تعالى:

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[الجن: 14-16]

فـ«الجن» عالم كامل.. المؤمن منه «جن مؤمن»، والكافر منه المؤذي اسمه «شيطان» يعني: شطن أو شط، أي ابتعد عن رب العالمين سبحانه وتعالى.. فربك سبحانه يقول في هذا الموقف:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأحقاف: 29-31]

فاستمعوا وأسلموا، وكان هذا به جبر لخاطر النبي ﷺ الذي بُعث للإنس والجن.

ويعود النبي في طريقه إلى مكة، وهو يفكر ماذا يفعل عند دخوله بعدما عرفت مكة بذهابه إلى الطائف، فوصل عند غار حراء وبعث رجلًا من قبيلة «خزاعة» - إحدى القبائل حول مكة - يطلب من «المطعم بن عدي» - وهو رجل مشرك، ولكنه قوي وعنده مروءة أو مبادئ إنسانية - أن يدخل النبي ﷺ مكة في جواره، أي: حمايته.. وبالفعل قام «المطعم بن عدي» وجمع عائلته وألبسهم السلاح وأوقفهم على مشارف مكة ودخل النبي ﷺ من بينهم وهم مصطفُّون.. فدخل وطاف بالبيت وصلى ركعتين وذهب إلى بيته، وقال «المطعم بن عدي» بصوت مرتفع: «إن محمدًا في جواري».. أي في حمايتي.

إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي

بعد عدة أيام من عودة النبي ﷺ من الطائف إلى مكة يأتي أحد كبار العرب وكان اسمه «الطفيل بن عمرو الدوسي» ليطوف بالكعبة، فكما ذكرنا سابقًا أن الكعبة كانت محاطة بالأصنام التي تطوف حولها القبائل المختلفة.. فحذَّره مشركو مكة من النبي ﷺ وقالوا له إنه ساحر يدَّعي أنه نبي، فإذا صدَّقته يفرق بينك وبين أبيك، وبينك وبين أولادك، وبينك وبين زوجتك؛ فلا تسمع له أبدًا.. فدخل الطفيل ليطوف بالكعبة وهو متخوِّف من سماع النبي ﷺ، فوضع في أذنه «الكُرسُف» (القُطن)، يقول: (فحشوت أذنيَّ كرسفًا). حتى لا يستمع لكلام رسول الله فيصيبه من سحره كما حذَّره المشركون، ثم توقَّف قليلًا وقال في نفسه: **«ثكلتك أمك يا طفيل! إنك رجل شاعر لبيب تُميز الباطل من الحق، فاستمع له»**. وبالفعل ذهب إلى رسول الله ﷺ وقصَّ عليه ما قالته عنه قريش بأنه ساحر، وطلب منه أن يسمع ما يقول، فتلا عليه النبي ﷺ القرآن، وكلَّمه عن توحيد الله، ودعاه إلى الإسلام، فقال الطفيل: **(والله ما أعدل هذا الكلام! وما أحسن هذا الكلام!)**. كلام مستقيم على الطريق الصحيح، متَّسق مع العقل والمنطق والرحمة والإنسانية، وقال: **(أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله)**. وطلب من النبي ﷺ أن يدعو الله بهداية قبيلة دوس.. فدعا لهم النبي ﷺ بالهداية، وانصرف الطفيل، ويبدو أنه كان رجلًا محبوبًا جدًّا ومؤثرًا جدًّا، وكلمته مسموعة، وله مصداقية. فلما عاد إلى دوس جاء أبوه ليسلِّم عليه، فقال له: يا أبي، لا أُسلِّم عليك؛ لستَ مني ولستُ منك. فقال له: ما لك يا بُني؟ قال: دخلت في دين محمد.. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولا أستطيع أن أتحدث معك حتى تدخل في الإسلام.. فقال له والده: يا بُني، أنت مني ودينك ديني. وذهب فاغتسل ودخل في الإسلام، وبعد ذلك جاءت زوجة الطفيل فقال لها: لستِ مني ولستُ منكِ حتى تدخلي في الإسلام. فقالت له: يا طفيل، أنا منك وأنت مني وديني هو دينك.

فقال لها: اغتسلي وادخلي في الإسلام.. وكان له مكانة كبيرة في قلوبهم، فكان عندما يفعل شيئًا يتبعونه فيه من شدة ثقتهم فيه وفي رأيه.. وكان هذا الموقف جبرًا لقلب النبي ﷺ بعد المشهد الصعب الذي حدث معه في الطائف.

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة من نُصرة النبي ﷺ ليس فقط في الأرض وإنما في السماء.

القرآن نور لقلبك فلا تحرم نفسك أجره

قصة إسلام الجن..

أولًا: ربنا سبحانه وتعالى حفظها لنا وهي كانت غيبًا؛ أي لو لم يخبرنا بها رب العالمين لما كنا سنعرفها.. فقصَّها لنا في سورة الأحقاف وفي سورة الجن.

وفي سورة الأحقاف قال تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأحقاف: 29، 30]

وفي سورة الجن قال تعالى:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[الجن:1، 2]

فالرشد عكس الغواية..

انظر كيف أثر القرآن في الجن.. فلا تحرم نفسك من سماع القرآن حتى وإن كان 20 دقيقة في الـ24 ساعة، فأنت تنام 8 ساعات وتستيقظ 16 ساعة، استمع إلى القرآن 20 دقيقة في يومك.. فاجعل قرآن ربك ونوررب العالمين يدخل إلى أذنك وقلبك لينير طريقك؛ لتسيروأنت مطمئن خلف رسول الله ﷺ.

وإن كنت لا تقرأ القرآن طوال العام، فحاول أن تقرأ ولو صفحتين في اليوم؛ فتختم القرآن مرة كل عام، ويا حبذا لو تستطيع أن تختم القرآن مرة كل شهر؛ فتقرأ جزءًا في اليوم، ومن لا يستطيع فليقرأ صفحتين في 5 دقائق فيختمه مرة في العام ومرة في رمضان؛ حتى لا يكون هاجرًا للقرآن.

لا تحجب نفسك عن نور الهداية

الطفيل بن عمرو الدوسي كان واضعًا القطن في أذنيه، وبعد ذلك راجع نفسه، فقال لماذا لا أستمع إلى محمد؟ ففي هذا الموقف أتخيل حال الكثيرين منا وهو واضع القطن في أذنه فيكون هناك حاجز بينه وبين الاستماع للسُّنة.. أو تعلُّم دينه.. لا يحب أن يستمع إلى العلماء ويقول إنه يعلم طريقه مع ربه، لا

بد يا صديقي أن تتعلم أولًا خطوة خطوة، وبعد ذلك يكون لديك القدر الذي يجعلك تستطيع أن ترى الطريق وحدك، فرسول الله ﷺ يقول:

«إني قد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتُم به فلن تَضِلُّوا أبدًا، كتابَ اللهِ، وسُنَّةَ نبيِّه»[66]

اللهم صلِّ على أشرف موجود وأفضل مولود، صلوات تناسب مقامه العالي ومقداره الغالي، وتعمُّ أهله وأزواجه وأولياءه وأنصاره، اللهم صلِّ عليه وعلى جملة رسلك وأحبائك، وزمرة ملائكتك وأصفيائك صلاةً تعم بركتها المطيعين من أهل أرضك وسمائك، اللهم اجعلنا ممن أسبلتَ سترالعرش عليهم، ونظرت بعين العناية إليهم، وبحولك وقدرتك ألا يُقدَر عليهم؛ فأنت يا مولانا خيرحافظ وأنت أرحم الراحمين.

---

(48) رواه مسلم.
(49) رواه البخاري.
(50) رواه البخاري.
(51) رواه البخاري.
(52) رواه ابن إسحاق.
(53) رواه أحمد.
(54) رواه مسلم.
(55) رواه البيهقي.
(56) رواه أبو داود.
(57) رواه الترمذي.
(58) رواه أبو يعلى.
(59) رواه ابن إسحاق.
(60) رواه مسلم.
(61) رواه ابن هشام.
(62) رواه الطبراني.
(63) رواه البخاري.
(64) رواه البخاري.
(65) رواه الطبراني.
(66) رواه المنذري.

رحلة الإسراء والمعراج

ولا نزال مستمرين في رحلة «نور»، رحلة في حياة سيدنا محمد ﷺ وقد انتهى فيها عام الحزن بنهاية السنة العاشرة بوفاة أبي طالب والسيدة خديجة رضي الله عنها ومع بدايات السنة الحادية عشرة وذهاب النبي ﷺ إلى الطائف صده أهلها ورفضوا الإيمان به، وأثناء طريق العودة آمنت به وفود الجن كما تطرقنا في الفصل السابق، وعند عودته إلى مكة آمن به الطفيل بن عمرو الدوسي سيد قبيلة دوس، ثم عاد الطفيل إلى بلده، وبعد سنوات طويلة عاد بقبيلته كلها وقد أسلمت ببركة دعوة النبي ﷺ.. فانجبر خاطر النبي ﷺ وهو عائد من الطائف، ولكن هناك رحلة هي أكبر جبر لخاطر سيدنا محمد ﷺ ومواساته بعد سنوات طويلة كان يحمل فيها همَّ الأمة ومصالحها، وكان دعمًا وسندًا لكل شخص مؤمن به، وحتى من لم يؤمنوا به كان يدعو لهم بالهداية.. قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال: 33]

وفي ليلة 27 من رجب[67]، يأتي الأمر من رب العالمين لسيدنا جبريل بأنه يريد سيدنا محمدًا ﷺ ليصعد إلى السماء، ولكن يريده أن يذهب أولًا للصلاة في بيت المقدس، وقبل هجرة النبي بعام واحد نزل سيدنا جبريل عليه السلام بـ(البراق) وهو دابة تشبة الحصان الصغير **(ما دون البغل وما فوق الحمار يضع حافره عند منتهى طرفه)** أي يذهب إلى آخر ما تصل إليه عيناك فيما يشبه سرعة الضوء.. ففي هذه الليلة إما أن النبي ﷺ كان في بيته وإما أنه كان عند الكعبة فكلها روايات في مشهور السيرة، وقد أخبرنا القرآن أنه كان في «مكة» قال تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الإسراء: 1]

فالله – سبحانه وتعالى – أراد أن يُري النبي ﷺ آيات تثبِّت قلبه وتشد من أزره.

(سبحان) أي: نفي أيِّ نقص عن رب العالمين، فهو القادر على كل شيء.. فما ستشاهدونه هذا يا أهل كل زمان هو معجزة، و(**المعجزة) هي فعل خارق للعادة خاضع لقدرة رب العالمين**، وهذه معلومة هامة جدًّا أن تعرف أن معجزات الأنبياء ليست خاضعة لقدرة الأنبياء، ولكنها خاضعة لله الذي هو على كل شيء قدير.

فمنذ ثلاثة أو أربعة آلاف سنة إذا أخبرتك بأنني سأرسل كرسيًّا أو منضدة مثلًا إلى أوروبا في ثلاث أو أربع ساعات فلم تكن لتصدقني؛ لأنها كانت ستستغرق شهرين أو أكثر حتى تصل بسبب بُعد المسافات، ولكن الآن وبقدرات البشر المحدودة يمكن أن أرسلها في طائرة فتصل بالفعل إلى أوروبا بعد ساعات قليلة.

ومثلًا الفيديوهات تنتشر الآن في ثوانٍ معدودة بين الدول والقارات، فهذه قدرة البشر، فما بالك بقدرة رب العالمين سبحانه وتعالى؟!

ينزل سيدنا جبريل عليه السلام ويصعد النبي ﷺ على البراق فيهتز البراق ويحدث له شيء من رجفة الهيبة لسيدنا محمد ﷺ فيقول له سيدنا جبريل: (**اثبت.. فوالله ما ركب عليك أعظم من محمد ﷺ**). فيسكن البراق ويركب عليه سيدنا النبي ﷺ وينطلقان إلى بيت المقدس.

وهناك المعجزة العظمى وهي صعود النبي ﷺ إلى السماء.

مشاهد رآها النبي ﷺ في طريقه إلى بيت المقدس

في الطريق من مكة إلى بيت المقدس يرى النبي ﷺ أكثر من مشهد..

المشهد الأول:

قال ﷺ:

> «مَرَرْتُ علَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي عِنْدَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ، وَهو قَائِمٌ يُصَلِّي في قَبْرِهِ»(68)

فعقيدتنا أن الأنبياء أحياء كما قال سيدنا محمد ﷺ:

> «الأنبياءُ أحياءٌ في قُبورِهم»(69)

> «إنَّ اللهَ حرَّم على الأرضِ أن تأكلَ أجسادَ الأنبياءِ»(70)

فكأن النبي ﷺ كان يرى تاريخ النبوة وهو في طريقه، فنظر إلى قبر سيدنا موسى فوجده يصلي في قبره.

المشهد الثاني:

بعدها سار مع سيدنا جبريل وإذا به يشم رائحة طيبة فيقول له:

> «ما هذه الرَّائِحةُ الطَّيِّبةُ يا جِبْرِيلُ؟»(71)

فيجيبه بأنها رائحة قبر ماشطة بنت فرعون، فيسأله النبي عن قصتها فيجيبه بأنها كانت تمشط شعر ابنة فرعون فوقع منها المشط فأخذته وقالت: باسم الله. فسألتها ابنة فرعون: (الله أبي؟). قالت: (**لا.. ربي وربك ورب أبيك**). فأخبرت البنت أباها بأن الماشطة تقول باسم الله وتعبد إلهًا غيره، فأتى بها وسألها فقالت: (**نعم.. ربي وربك الله**). فأتى بِقِدْرٍ كبيرة من النحاس وملأها بزيت مغلي وأتى بها وبأبنائها وبدأ في إلقاء أولادها فيها واحدًا بعد الآخر حتى تكفر بربها وتؤمن به، فقالت له إن لها طلبًا منه وهو أن يجمع عظامها هي وأولادها ويدفنهم في قبر واحد.. فوافق على ذلك وقال: (لكِ عليَّ هذا). وكان في يدها طفل رضيع تحمله، فعندما أراد أن يلقيها وطفلها ترددت، فتكلم الطفل الرضيع وقال لها: (**اثبتي يا أماه**

فإنك على الحق). فقذفها وابنها في القدر.. وسيدنا ابن العباس وهو يقص علينا القصة قال: إن هناك أربعة تكلموا في المهد، وهم:

[سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام، وطفل جُرَيج العابد، وشاهد في قصة سيدنا يوسف، وطفل ماشطة بنت فرعون].

يستمر سيدنا محمد ﷺ بعدما يرى تاريخ الدعوات والصبر والتضحية إلى أن وصل إلى بيت المقدس فينزل ﷺ ويربط البُراق في حائط عند بيت المقدس سمي بعدها حائط البُراق، ويدخل فيجد جميع الأنبياء، فعدد الأنبياء الذين ذكرهم سيدنا محمد ﷺ مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ورسول، نعرف منهم خمسة وعشرين جاء اسمهم في القرآن، يقول النبي ﷺ: فدخلت فإذا بموسى وعيسى وإبراهيم.. وصفه النبي ﷺ:

> **«رَجُلٌ آدَمُ طُوالٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِن رِجالِ شَنُوءَةَ»**(72)

أي طويل ورفيع وشعره أكرت بعض الشيء مثل قبيلة شنوءة في اليمن،

> **(وإذا عيسى ابنُ مريمَ قائمٌ يُصلِّي، أقربُ الناسِ به شبهًا عروةُ بنُ مسعودٍ الثقفيُّ، وإذا إبراهيمُ قائمٌ يُصلِّي، أشبه الناسُ به صاحبُكم - يعني نفسَه)**(73)

فسيدنا إبراهيم كان النبي ﷺ يشبهه.

وكانوا يصلون حتى جاء وقت الصلاة فصلى بهم النبي ﷺ.

أنوار من رحلة الإسراء والمعراج

العلماء أخبرونا بأن سيدنا محمدًا ﷺ أُسري بجسده وروحه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم بعد ذلك صُعِد بجسده وروحه إلى السماء، ونحن مصدقون بهذا الكلام؛ لأننا في عصورنا هذه نستطيع أن نذهب بالجسد والروح بالطائرات بين البلاد المختلفة، والمسافة التي كانت تقطع قديمًا في شهور أصبحنا نقطعها في ساعات قليلة، فإذا كان البشر قد استطاعوا ذلك فما ظنك بقدرة رب البشر سبحانه وتعالى؟!

فهذه الرحلة هي رحلة جبر خاطر لسيدنا محمد ﷺ سيرى فيها تاريخ البشرية وهي تضحي بالغالي والرخيص من أجل رب العالمين - سبحانه وتعالى- وحتى يعود ﷺ ويخبرنا بما رآه.. فقد رأى سيدَنا موسى وهو يصلي في قبره.. فإذا كان الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون فما بالك بالأنبياء؟! فالترتيب في المنزلة هو **(النبيون، الصديقون، الشهداء، الصالحون)** فالنبيون في منزلة عالية جدًّا عند رب العالمين، فإذا كان سيدنا موسى يصلي في قبره فما بالك بسيدنا محمد ﷺ في قبره وهو مشغول بالدعاء لنا وبرد

السلام والصلاة التي نصليها عليه، فهو ﷺ من أخبرنا بذلك بأنه يرد السلام على من يصلي ويسلم عليه، وهو من قال:

«حياتي خيرٌ لكم، ووفاتي لكم خيرٌ، تُحْدِثون فيحدثُ لكم، فإذا أنا متُّ عُرِضَتْ عليَّ أعمالُكم، فإن رأيتُ خيرًا حمدتُ اللهَ، وإن رأيتُ شرًّا استغفرتُ اللهَ لكم»[74]

وتفكر في إخبار رب العالمين لسيدنا محمد ﷺ بقصة ماشطة بنت فرعون التي ضحت بروحها وأطفالها من أجل عقيدتها، وكأن هذا هو تاريخ البشرية كله، فكما أن هناك من البشر من لم يختاروا الإيمان برب العالمين.. فهناك من اختاروا رب العالمين وأضاءوا قلوبهم بنور الهداية، فلم يرضوا قط بديلًا عن الله وأصبحوا مستعدين لتحمل أي معاناة في سبيل رضاه سبحانه..

مثلًا من يصلي الفجر ويذهب لعمله مبكرًا رغم تعبه وإرهاقه ليكسب رزقه من حلال ويعيش في خدمة أسرته وأحبابه تكون حياته ذات قيمة.. فكن كذلك كلما نظر إليك رب العالمين وجدك في عمل يرضى عنه.

الوصول للسماء ورؤية الجنة

بعد أن وصل النبي ﷺ إلى المسجد واصطف جميع الأنبياء خلفه، توجه إلى محراب بيت المقدس وصلى بهم إمامًا.. موقف جبر خاطر كبير لسيدنا محمد والمسجد ممتلئ بالبشر ولكنهم ليسوا كأي بشر، بل أنبياء.. يمثلون رحلة الكون جميعها من بداية سيدنا آدم عليه السلام وحتى سيدنا عيسى عليه السلام الذي بُعث قبل النبي ﷺ.. مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ورسول، يصلي بهم النبي ﷺ فيقرأ الفاتحة والسورة ثم يركع ويسجد وكأنه يتسلم قيادة العالم الروحاني.. العالم الذي يصل القلب برب العالمين – سبحانه وتعالى – ففي هذا المشهد المهيب جبر خاطر لسيدنا محمد ﷺ وبشارة للفتح بأن الله سبحانه سيريه هذا المشهد في الدنيا، وحدث هذا بالفعل بعد سنوات طويلة ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وحج النبي بعد عدة سنوات وكان عدد الصحابة معه مقاربًا لهذا.

بعد ذلك ذهب النبي ﷺ ليركب البراق مرة أخرى، ولكن قبل أن يركب أتاه سيدنا جبريل عليه السلام بإناءين كما في الحديث.. إناء من لبن، وإناء من خمر، وقال له: اشرب. فاختار النبي ﷺ إناء اللبن فشرب منه، فقال له سيدنا جبريل: **(اخترت الفطرة)**. وفي رواية أخرى: **(هُديت إلى الفطرة وهُديت أمتك)**. ما دام اختار اللبن فقد اختار الطريق الصحيح الذي فيه الرزق الحلال.. فالخمر لم تكن قط من الفطرة.

ثم يركب ﷺ البراق مرة أخرى.. قال تعالى:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾[النجم:1-7]

فصعد النبي ﷺ إلى السماء، وعندما وصل هو وسيدنا جبريل إلى السماوات السبع التي لها حراس من الملائكة قالت الملائكة: من معك؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قيلَ: وقدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ؟ فليس المقصود من (أُرسل إليه) رسالة النبوة؛ لأن الملائكة يعرفون النبي جيدًا، ولكنهم يقصدون: (أوَ قد أُرسِل إليه بزيارة الله؟). فيقول سيدنا جبريل: (نعم).. فيصعد النبي ﷺ إلى السماء الأولى فيجد سيدنا آدم فيقول له: **(مَرْحَبًا بالِابْنِ الصَّالِحِ والنَّبيِّ الصَّالِحِ)**. ثم يصعد السماء الثانية فيطرق سيدنا جبريل فيسأله حرس السماء: من معك؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قيلَ: وقدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ؟ فيقولون: (فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ). ويسمع سيدنا محمد ﷺ بترحيب الملائكة له ويرى في السماء الثانية سيدنا عيسى عليه السلام فيسلم عليه ويقول: **(مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبيِّ الصَّالِحِ)**. ثم يصعد السماء الثالثة – وفي كل مرة تسأل الملائكة الحراس نفس السؤال ويرحبون بالنبي ﷺ – فيجد فيها سيدنا يوسف فيقول للنبي ﷺ: **(مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبيِّ الصَّالِحِ)**. ثم يصعد إلى السماء الرابعة فيجد سيدنا إدريس ويرحب به: **(مَرْحَبًا بالأَخِ الصَّالِحِ والنَّبيِّ الصَّالِحِ)**. ثم في السماء الخامسة يجد سيدنا هارون أخا سيدنا موسى فيقول له: **(مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبيِّ الصَّالِحِ)**. ثم يصل النبي ﷺ إلى السماء السادسة فيجد سيدنا موسى فيرحب به بنفس التحية: **(مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبيِّ الصَّالِحِ)**[(75)].

وعند انتقاله إلى السماء السابعة يبكي سيدنا موسى –كما في رواية الحديث– وعندما سُئل عن سبب بكائه يقول: **(يا رَبِّ، هذا الغُلَامُ الذي بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِن أُمَّتِهِ أفْضَلُ ممَّا يَدْخُلُ مِن أُمَّتِي)**[(76)]. لأن بني إسرائيل كان لديهم عِنادٌ شديد، وقد انتقل سيدنا موسى إلى ربه وهو غاضب عليهم وهم في سنوات التيه، قال تعالى مذكرًا بدعوة سيدنا موسى قبل وفاته:

﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[المائدة: 25]

ومات سيدنا موسى ورب العالمين يقول:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[المائدة: 26]

فيصعد النبي ﷺ إلى السماء السابعة فيجد الشيخ الأكبر أبا الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام ويقول له سيدنا إبراهيم:

(يا محمَّدُ، أقرئ أمَّتَكَ منِّي السَّلامَ، وأخبِرْهُم أنَّ الجنَّةَ طيِّبةُ التُّربةِ عذبةُ الماءِ، وأنَّها قيعانٌ، وأنَّ غِراسَها سُبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلَهَ إلَّا اللهُ واللهُ أكْبرُ)[(77)]

.. فـ«**الغراس**» الثمن الذي تحجز به ملكك ومكانك في الجنة.. فاجعلها وِردًا على سبحتك باستمرار.

ويصعد النبي ﷺ بعد ذلك فيصل إلى شجرة (نبق) عند العرش عند الجنة.. قال تعالى:

﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾[النجم: 14-16]

فعندما وصل إليها النبي ﷺ تلونت بألوان لم تخطر على قلب بشر وكأنها تتزين لاستقبال النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ إلى أبواب الجنة فوجدها مكتوبًا عليها: **(الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر)**، **«فقلتُ: يا جبريلُ، ما بالُ القَرْضِ أَفْضَلُ من الصدقةِ؟»**. قال: **(لِأَنَّ السائلَ يَسْأَلُ وعِنْدَهُ، والمُسْتَقْرِضُ لا يَسْتَقْرِضُ إلا من حاجةٍ)**[78].

مشاهد من نور

ثلاثة مشاهد مليئة بالأنوار في رحلة الإسراء والمعراج:

المشهد الأول:

عندما عُرِض على النبي ﷺ الخمر واللبن فاختار (اللبن)، فسيدنا جبريل أخبره بأنه اختار الفطرة، وكأن سيدنا جبريل يخبر كل واحد منا أن «الخمر ليست من الفطرة». فالفطرة تُدَمَّر بالخمر والمخدرات؛ لأن الفطرة والنفسية والقلب تُظلم، ويفقد الإنسان أنوارًا تركها لنا النبي ﷺ، وكذلك يفقد ثقته بنفسه وإحساسه أنه عبد يراه مولاه سبحانه وسوف يحاسبه غدًا، وقد يتجرأ أكثر على غيرها من الكبائر تحت تأثير سُكْره وغياب عقله.. فانتبه يا عبد الله.

المشهد الثاني:

عندما طلب سيدنا إبراهيم عليه السلام من سيدنا محمد ﷺ أن يخبر أمته بشيء.. انتبه جدًّا لكلامه؛ لأنه أبو الأنبياء وفي السماء السابعة، فأخبر النبي ﷺ أن يخبر أمته بأن الجنة جميلة وغراسها كنز «**لا حول ولا قوة إلا بالله**».. أي إنه لا حائل بيننا وبين الأزمات ولا المصائب ولا مقوي على كل خير إلا الله، فلا يوجد إلا فاعل واحد في الكون وهو الله سبحانه وتعالى، وهذه عقيدتنا.

وبالمناسبة فقد عاشها سيدنا إبراهيم يوم أن حمى الله ابنه إسماعيل من الذبح ومن السكين، فالسكين ليست هي الفاعلة ولكن الفاعل هو الله الذي لا حول ولا قوة لنا إلا به.. فلا حامي إلا الله، ويوم أن حمى هاجر وابنه سيدنا إسماعيل من الأرض التي لا زرع فيها ولا ماء، وانفجرت بئر زمزم التي تشرب منها البشرية جميعًا، فيعيش المسلمون في خيرها يشربون منها كل الأوقات، فهو عليه السلام رأى أن الفاعل الوحيد في الكون هو (الله).

المشهد الثالث:

هل لاحظت العبارة المكتوبة على باب الجنة والتي رآها النبي ﷺ بأن **(الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر)**؟ فالمكتوب على باب الجنة يدعونا إلى (السند والمساعدة والعون والدعم)، يدعوك إلى أن تتصدق وتقرض غيرك وتساعده، ولن تستطيع فعل ذلك إلا بالعمل والكد من حلال لتملك ما تساعد به غيرك، وكأن خلاصة أبواب الجنة أن تكون نافعًا لمن حولك ومسئولًا عنهم، ولستَ عبئًا عليهم، ويوم

القيامة سيرى الخلق مقامات الناس الذين كانوا عونًا للخلق عندما يكرمهم ربهم ويظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

لقاء الله في رحلة المعراج

في رحلة النبي ﷺ وقبل أن يصل إلى سدرة المنتهى بعد الانتقال من السماء السابعة، رُفِع له البيت المعمور «فقلت: ما هذا يا جبريل؟». قال: (هذا البيت المعمور وكأنه كعبة الملائكة يدخله في اليوم سبعون ألف ملك يحجون أو يطوفون ثم يخرجون لا يعودون إلى يوم القيامة). لأن رب العالمين لديه أعداد هائلة من الملائكة لا تخطر على قلب بشر.. فإذا كان هناك الأعداد التي لا تحصى من الحيوانات والطيور فما بالك بالخلق الأعظم وهم الملائكة؟!

نهر الكوثر هدية رب العالمين لنبيه Œ:

ثم يصعد النبي ﷺ فيرى نهرًا على ضفافه قباب اللؤلؤ.. أي إن البيوت والقصور حوله من اللؤلؤ.. ماؤه أحلى من العسل وأصفى وأبيض من اللبن.. فسأل سيدَنا جبريلَ عن هذا النهر فقال له: هذا نهر الكوثر.. النهر الذي أهداه الله لنبيه يوم أن كان أحد المشركين يؤذيه في نفسيته ويقول له إنه أبتر؛ أي مقطوع السيرة بعد موته؛ لأن أولاده الذكور ماتوا، فعندما ينتقل ويموت لن يتذكره أحد.. فقال له رب العالمين:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[الكوثر: 1]

فكان هدية للنبي ﷺ والمنتفع بها أمته؛ لعلم الله أن هذا تطييب وجبر لخاطر سيدنا النبي ﷺ؛ لعلمه سبحانه بانشغاله ﷺ بنا وبما ينفعنا..

ثم يصعد النبي ﷺ حتى وصل إلى رب العالمين، وهنا نوضح معلومة في العقيدة وهي أن رب العالمين ليس في مكان معين يحويه؛ لأن الله ليس بجسم، والنبي اقترب منه حتى يصل إليه، وإنما صعود النبي ﷺ إلى الله قرب مكانة وليس قرب مكان.. فالله سبحانه لا تحويه الجهات الست مثلما يقول سيدنا الإمام الطحاوي في العقيدة الطحاوية.. فلم يكن في مكان والنبي ظل يصعد إلى أن وصل إليه، وإنما اقترب من ربه قرب مكانة وليس قرب مكان مثلما علمنا العلماء في دروس العقيدة.

قال تعالى:

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾[النجم:9، 10]

.. أوحى إليه رب العالمين بماذا؟

ما أخبرنا به النبي أنه أوحى إليه بـ(الصلوات الخمس) وبـ(آخر آيتين من سورة البقرة)، وبالآية التي تخبرنا بأن الله يغفر كل شيء إلا الشرك بالله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء: 48]

الشيء الأول الذي أوحى الله به إلى رسوله: الصلوات الخمس عندما صعد النبي ﷺ إلى ربه فقال:

«فَفَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاةً»(79)

فالله يريد أن يقابلنا خمسين مرة يغفر لنا وندعوه ونشعر بالسكينة والمعية ونحن بين يديه ويدخل نوره في قلوبنا..فينزل سيدنا محمدﷺ فيجد سيدنا موسى فيسأله: (ماذا افترض عليك ربك؟)، فيقول النبيﷺ: «خمسين صلاة». قال سيدنا موسى: (إني عالجت بني إسرائيل، وإن أمتك لا تطيق ذلك، فاسأل ربك التخفيف). أي إنه أخبره أنه من خبرته مع بني إسرائيل فإن أمة الإسلام لا تستطيع أداء الخمسين فريضة، فاطلب من ربك التخفيف، فصعد النبي ﷺ وطلب من ربه التخفيف، فظل يخفف عنه، وسيدنا موسى في كل مرة يخفف الله فيها الصلاة لنصف العدد يطلب من سيدنا محمد أن يسأل ربه التخفيف، وفي آخر مرة قال رب العالمين لسيدنا محمد ﷺ: «هي خَمْسٌ وهي خَمْسُونَ لا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ». وينزل سيدنا محمد إلى سيدنا موسى فيقول له: (قدْ واللَّهِ رَاوَدْتُ بَنِي إسْرَائِيلَ علَى أدْنَى مِن ذلكَ فَتَرَكُوهُ). وكأن سيدنا موسى يعرف أحوال بعضنا وأنه حتى الخمس صلوات يمكن أن يتكاسل عنها بعضنا، فاستحى النبي ﷺ أن يصعد مرة أخرى ونزل بالخمس صلوات المفروضة.

الشيء الثاني الذي أوحى رب العالمين به لرسوله: (خواتيم سورة البقرة) من بداية:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:285، 286]

إلى آخر السورة، فقال ﷺ:

«مَن قَرَأَ بالآيَتَيْنِ مِن آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ في لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»(80)

فإما كفتاه همه وغمه، وإما كفتاه قيام الليل وكأنه صلى قيام الليل هذه الليلة.

ثم الشيء الثالث.. والبشرى العظيمة.. قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[النساء: 116]

ويقول سيدنا محمد ﷺ إنه وهو موجود في هذا المكان العظيم قبل أن يصل إلى خطاب رب العالمين توقف سيدنا جبريل؛ لأن المكان الذي صعد إليه النبي ﷺ لم يدخله أحد إلا النبي ﷺ، فنظر النبي إلى سيدنا جبريل والذي له ستمائة جناح وقد أصبح كـ«الحلس البالي» من خشية الله. «الحلس البالي» مثل الثوب القديم المتجمع بعضه إلى بعض.. ويقول رب العالمين:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[التكوير:22-27]

أي رأى سيدنا جبريل في أفق السماء. وكلمة «ضنين» معناها بخيل، أي إن النبي ﷺ لم يبخل عليكم بأن يقص عليكم ما رآه عند ربه من الغيب.

وينزل سيدنا محمد ﷺ حتى يواجه الناس ويخبرهم بما رآه.

حب رب العالمين لأمة النبي ﷺ

البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يحجون ولا يرجعون إليه مرة أخرى.. فالله سبحانه وتعالى لديه عدد كبير جدًّا من الملائكة، وصف النبي ذلك في حديثه «أطت السماء»، مثلما تضغط على قطعة خشب فتكاد تنكسر وتصدر صوتًا، وهكذا السماء بها زحام شديد، وما فيها موضع ثلاثة أصابع إلا فيها ملك قائم أو راكع أو ساجد حتى إذا قامت القيامة قاموا يقولون: (سبحانك ما عبدناك حق عبادتك).. فالله سبحانه وتعالى عظيم، وعباده لا يحصَوْن عددًا، ليس محتاجًا لعمل أي منا أو صلاته ولكنه يحبنا ويحب لقاءنا ويدعونا لذلك خمس مرات كل يوم في الصلاة، فقد قال للنبي ﷺ إنه افترض على الأمة خمسين صلاة.. فهذه جرعة حب كبيرة جدًّا، وكأنه سبحانه يتودد إلينا ويريد أن يقابلنا خمسين مرة في اليوم.. وهو سبحانه من ينادي علينا للصلاة ويتقرب إلينا بإقرار الأذان عند كل صلاة حتى نتذكر لقاء رب العالمين سبحانه، فهو يحب أن يلتقي معك فيها ويسمعك ويستجيب لك، فلا تتعامل مع الصلاة على أنها مجرد تكليف تصلي حتى لا تُعذَّب لتركك إياها أو تصلي ليفتح الله لك أبواب الرزق فقط، فكلها وإن كانت نوايا عظيمة، ولكن اعلم أن الأصل في الصلاة أن الله يحب قربك ولقاءك؛ لذلك طلب مقابلتك خمسين مرة.. ولكن سيدنا موسى أخبر النبي ﷺ أن الله افترض على بني إسرائيل فرضين فقط ولكنهم كانوا منشغلين بالنعمة عن المنعم ولم يؤدوهما.. فلا تنشغل عن رب العالمين بغيره، وعندما تسمع (حي على الصلاة) أسرع إلى مولاك سبحانه وتعالى.

ما رآه النبي ﷺ في السماء وتصديق أبي بكر له ﷺ

قبل نزول النبي ﷺ من السماء أراد الله أن يُري النبي ﷺ بعض أنواع العذاب في النار.. فرأى سيدنا النبي ﷺ عذاب آكل الربا الذي يستغل احتياج الناس ويستنزفهم، ورأ ى عذاب آكل مال اليتيم، وعذاب آكل المال الحرام، وعذاب المغتاب الذي يقع ويخوض في أعراض الخلق، وعذاب الزناة الذين أصروا ولم يتوبوا إلى الله.. قال ﷺ:

«لما عُرِجَ بي مررتُ بقومٍ لهم أظفارٌ من نُحاسٍ يخْمِشون وجوهَهم وصدورَهم ، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريلُ ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحومَ الناسِ، ويقعون في أعراضِهم»[(81)]

.. فهم من يؤذون سمعة أحد الناس ويفترون عليه بكلام يُفسد عليه حياته، أو يضره في عمله، أو يُكرِّه مَن حوله فيه.. يؤذونه إيذاء شديدًا في سمعته.. فهذا عذاب من لم يتب إلى الله ويصلح ما فعله.

وينزل النبي ﷺ بعد ذلك إلى الكعبة مرة أخرى وهو منشغل البال، فهو مأمور بتبليغ المؤمنين ما رآه وبتبليغ الأمر بفرض الصلوات الخمس والأحداث التي رآها، كما أنه مأمور بدعوة غير المؤمنين وإخبارهم بما رآه عند رب العالمين في الملأ الأعلى، وإخبارهم كذلك بحال الملائكة والجنة والنار.. فمر به أبو جهل فسأله: (هل كان من شيء؟). قال النبي ﷺ إنه أسري به الليلة. قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. ثم حكى له ما رآه.. فسكت أبو جهل كالمستهزئ لا يريد أن يكذبه حتى لا يتوقف النبي ﷺ عن الكلام، ثم طلب منه أن ينتظر، وبدأ أبو جهل يصيح وينادي على رؤساء القبائل، فبدأت الناس تتجمع فقال: (حدِّث قومك بما حدثتني). فقال ﷺ: إني أسري بي الليلة. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. ثم بدأ يحكي لهم، فمنهم من بدأ يضرب كفًّا بكف وهو مستغرب مما يقول، ومنهم من وضع يده على رأسه، ومنهم من ينظر إليه نظر المكذب، ومنهم من يعترض ويقاطع سيدنا النبي ﷺ.

وقام أحدهم فقال: (صف لنا بيت المقدس). فقد ذهب هذا الرجل من قبل والنبي ﷺ لم يكن قد ذهب سابقًا، فقال النبي ﷺ:

«فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتى التبس عليَّ بعض النعت، قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر حتى وُضع دون دار عقال أو عقيل فنعتُّه وأنا أنظر إليه»[(82)]

يعني رفع الله بيت المقدس أمام عيني رسول الله ﷺ فرآه بوضوح عند بيت عقيل فوصفه لهم بدقة، والله سبحانه على كل شيء قدير.

فعندما تقرأ عن هذه المعجزات لا تقل: كيف؟ فنحن البشر نستطيع أن نفعلها.. فنحن الآن نستطيع عن طريق التليفون أو التليفزيون أن نعرف هذه المعلومات والصور، فما ظنك بقدرة رب العالمين؟! فكل شيء مكَّننا الله منه في الدنيا، فهو سبحانه وتعالى من فتح على الناس ومكنهم من اكتشافه، ومكنهم كذلك من معرفة هذه المعلومات بمشيئته، قال تعالى:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾[البقرة: 255]

فهو سبحانه من سمح لنا بمعرفة واختراع الطائرات والصواريخ، وهو من مكننا عن طريق الإيميل أن نكتب خمسمائة أو ستمائة كلمة من التليفون وتصل إلى آخر العالم بنفس الترتيب، فلم نكن نعلم أن الهواء والأسلاك يمكن أن تنقل هذه الرسائل، ولكنه سبحانه هو مَن علَّمَنا مِن علْمه.. فعندما تقرأ عن هذه المعجزات تيقَّنْ بقدرة رب العالمين.

وبعد وصف النبي ﷺ لبيت المقدس بشكل دقيق جدًّا أخبرهم بأمر آخر.. وهو أنه وهو في طريقه رأى قومًا مسافرين في الطريق، وصفهم لهم ووصف لباسهم وألوان جِمالهم «الأبيض والأسود والأحمر» وأخبرهم بأنهم كانت لديهم ناقة شاردة منهم كانوا يبحثون عنها، وقدَّر لهم بالتقريب الوقت الذي سيصلون فيه.. فبعد مدة دخلت بالفعل القافلة وحكَوْا لهم ضياع الناقة والبحث عنها وأن هذا كان سببًا في تأخرهم عن موعدهم.. وبرغم كل هذه الأحداث لم يصدقوا النبي ﷺ؛ لأنهم لم يريدوا تصديقه.

وذهبوا إلى أبي بكر يقصون عليه ما يقول صاحبه فقالوا له: (انظر ما يقول صاحبك أنه أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ونحن نضرب أكباد الإبل حتى تمشي شهرًا حتى تصل إلى بيت المقدس). قال أبو بكر: (إن كان قال هذا فقد صدق.. إني أصدقه في أمر السماء أفلا أصدقه فيما يقول؟!).. فإن كان النبي ﷺ قال هذا فقد صدق؛ لأن أعماله ومعجزاته ﷺ خاضعة لقدرة ملك الملوك- سبحانه وتعالى- الذي أرسله.

ومن وقتها و(عبد الله بن عثمان) - سيدنا أبو بكر- أصبح يطلق عليه لقب (الصدِّيق)، وأخذ هذا اللقب بسبب أعلى درجات التصديق للنبي ﷺ في قصة الإسراء والمعراج..

ولنقترب الآن من هجرة النبي ﷺ وبداية عهد جديد لنور النبوة.

التصديق المطلق من سيدنا أبي بكر لصاحبه النبي ﷺ

أتى اليوم الذي سُمي فيه سيدنا أبو بكر بـ(الصدِّيق)، فأبو بكر اسمه (عبد الله) وأبوه اسمه (عثمان)، ولكن قديمًا كان العرب ينادون بعضهم بعضًا بـ«الكُنية»، فكان (عبد الله) يُكنى بـ(أبي بكر)، ووالده عثمان يكنى بـ(أبي قحافة)، فكان يسمى (عبد الله بن أبي قحافة)، فمن هذا اليوم أصبح يعرفه المسلمون بـ(أبي بكر الصديق)؛ لأن الناس وقتها شككوا في كلام النبي ﷺ ولكنه لم يفعل مثلهم، بل قال: أنا معك مصدقك.. والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾[الزمر: 33، 34]

فالمقصود بالآية: هو سيدنا أبو بكر.

ويعلمنا سيدنا أبو بكر كيف تكون «صاحب صاحبك».. كيف تشعر به وتفهمه والكل معرض عنه ولا يشعر به.. ويعلمنا كيف تكون سندًا لصاحبك والكل مشغول عنه، فكان دومًا سندًا ودعمًا للنبي ﷺ.

ففي حالنا نحن نحتاج إلى الشخص الداعم الذي عندما ننظر إليه نأخذ كمًّا من التصديق.. وكأنه يخبرنا بأن نكمل ولا نتوقف، نجد هذه النظرة في عيون الآباء والأمهات عندما يكون أولادهم في بطولة رياضية مثلًا تجد الابن يستمد من نظرات والديه التشجيع والنجاح.. فحاول أن تكون كذلك؛ لأن أقربنا إلى الله أرحمنا وأحننا بصاحبه.

فالصاحب الجميل جزء من الجنة.. قال ﷺ:

> **«إن المسلمَيْن إذا التقيا فتصافحا وتساءلا، أنزل الله بينهما مائة رحمة، تسعة وتسعين لأبشِّهما، وأطلَقِهما، وأبرِّهما، وأحسنِهما مساءلة بأخيه»**(83)

فالصاحب المهتم جدًّا بالسلام والمصافحة ويسألك عن أحوالك ويطمئن عليك تنزل عليه تسع وتسعون رحمة، وغير المهتم الذي يتصرف بثقل وكأنه منشغل عنه تنزل عليه رحمة واحدة.. فالله تعالى يرحم الشخص بسبب كرمه وإقباله وعطائه لصاحبه.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه [ثاني اثنين في الإسلام، وثاني اثنين في الهجرة، وثاني اثنين في الغار، وثاني اثنين في القبر]. فالصاحب شيء ثمين جدًّا.. فإذا أردت أن تتعلم شيئًا من السيرة النبوية في أنوار النبي ﷺ عن الصداقة.. فاجعل عينيك على سيدنا أبي بكر الصديق طوال رحلتنا، وتأمل كيف كان نِعمَ الصاحب لسيدنا النبي ﷺ.

اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحماتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين سيدنا محمد عبدك ورسولك إمام الخير، وابعثه يوم القيامة مقامًا محمودًا يغبطه عليه الأولون والآخرون، وصل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد، واجعلنا يا مولانا في دنيانا من الصادقين، وبين عبادك من المقبولين، وعند لقائك من المطمئنين، وفي الآخرة بين يديك من الفائزين الأولين.

---

(67) اختلف العلماء في تحديد ليلة الإسراء والمعراج على أكثر من قول: **أولها وأشهرها**: أنها في ليلة السابع والعشرين من رجب، وأشهر من قال بذلك: أبو حيان في البحر المحيط، وابن عطية في المحرر الوجيز، **وثانيها**: أنها في شهر ربيع الأول، وأشهر من قال بذلك الإمام النووي. غير أن العادة جرت أن يأخذ المسلمون بقول العلماء الذين حددوها في ليلة الـ 27 من رجب، واحتفل بها المسلمون قديمًا وحديثًا في هذا التاريخ.

(68) رواه مسلم.

(69) رواه البزار.

(70) رواه ابن ماجه.

(71) رواه أحمد.

(72) رواه مسلم.

(73) رواه مسلم.

(74) رواه ابن سعد.

(75) رواه البخاري.
(76) رواه البخاري.
(77) رواه الترمذي.
(78) رواه السيوطي.
(79) رواه مسلم.
(80) رواه البخاري.
(81) رواه أبو داود.
(82) رواه أحمد.
(83) رواه الطبراني.

بداية ظهور الأنصارفي حياة النبي ﷺ

عرض النبي ﷺ دعوته على القبائل

فصل جديد في رحلة سيدنا محمدﷺ في «نور» نوضح فيه كيف بدأت علامات الهجرة، فالهجرة بدأت بأن سيدنا محمدًا ﷺ عندما كانت القبائل تأتي كل عام في مكة كان يمشي في وسط أسواقهم ويذهب إلى بيوتهم في مِنى يدعوهم إلى الله، ومن يخبرنا بهذه القصة هو (سيدنا جابر بن عبد الله الأنصاري)، فيقص علينا بأثر رجعي كيف وصل الإسلام إلى الأنصار في المدينة..

كان هناك بقايا مشوهة في المفاهيم والمعتقدات لدى هذه الأقوام من العرب، فكانوا معترفين بالكعبة وبأنها بيت الله وبأن لها ربًّا يحميها، ولكنهم كانوا يعبدون آلهة أخرى، فهم مشركون بالله، قال تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[الزخرف: 87]

ولكنهم كانوا يعتقدون أن الآلهة الأخرى التي يعبدونها تنفع وتضر وتنصر وتحمي، فلذلك سُموا بـ«المشركين»، وكانوا يتعجبون من فكرة وجود إله واحد للكون،قال تعالى:

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص: 5]

فهذا ليس عجيبًا ولكنه الحق أنه (لا إله إلا الله)، فكانوا يأتون للحج عند الكعبة، لكل قبيلة منهم صنم يعبدونه، وكانوا يطوفون حول الكعبة ويقومون ببعض العبادات والأشياء التي تشبه الطواف، ومنها ما كان من اختراع المشركين وقتها، فعندما كانت تأتي القبائل في موسم الحج كان النبي ﷺ يسير في وسط الأسواق فيقول لهم:

«قولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، تُفلِحوا»(84)

«مَن يُؤْويني؟ مَن يَنصُرُني حتى أُبَلِّغَ رِسالاتِ ربِّي وله الجَنَّةُ؟»(85)

فاتفق أبو لهب وأبو جهل أن يسيرا خلفه في وسط الأسواق ووسط البيوت ويقذفاه بالتراب ويحذرا الناس منه فيقولا: (لا تصدقوا هذا الفتى من قريش.. احذروا هذا الفتي؛ فقد فرق بيننا وسفَّه ديننا وعاب آلهتنا...). الكلام الذي يقولونه منذ سنوات عدة.. لدرجة أن سيدنا محمدًا ﷺ كان يمشي وأبو لهب ظل يمشي خلفه فسأل رجل ممن رأى المشهد صاحبه فقال: (من هذا الأحول الذي يمشي وراء محمد؟). فأجابه أنه: (أبو لهب عمه).. كما ترى عزيزي القارئ.. قسوة شديدة جدًّا، ولكن انظر إلى كَمِّ هذه الصعوبات ففي نهايتها فتح كبير عندما تعلم به تتعجب من كرم رب العالمين من حيث لا نحتسب.

من ضمن القبائل الموجودة وقتها قبيلة (بنو عامر بن صعصعة)، ذهب إليهم النبي ﷺ يتكلم معهم فأُعجبوا بكلامه ووجدوه منطقيًّا ورحيمًا جدًّا وأفضل من الشِّرك الذي يفعلونه.. فرئيس هذه القبيلة

قال: (هذا الفتى من قريش لو أخذته لأكلت به العرب.. قل لي يا محمد: ألئن أظهرك الله وانتصرت أيكون لنا الأمر من بعدك؟)، أي يمكن أن نأخذ النبوة أو الزعامة من بعدك ؟ قال النبي ﷺ:

«الْأَمْرُ إِلَى اللهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»(86)

فرد عليه الرجل بأن قال: (أفتهدف نحورنا «نحميك فنتعرض للأذى» ولا يكون لنا الأمر من بعدك؟ قم يا أخا العرب لن نكون معك).. ويقوم النبي ﷺ فيسير حتى يصل إلى (بنو شيبان بن ثعلبة) يدعوهم إلى الله فقالوا له: (إلام تدعو؟). فتلا عليهم رسول الله ﷺ القرآن فقال:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: 33]

فرؤساء القبائل قالوا: (ما أجمل هذا الكلام! وما أعدل هذا الكلام!).. فجميعه كلام مستقيم مع الفطرة، ولكنهم قالوا: (ولكن يا محمد ننصرك على العرب، فإن عذر صاحبهم مقبول ودينه مغفور، ولكن ليس لنا عُذر أمام كسرى). معنى الكلام أنهم سيقفون معه ضد العرب ويقدرون عليهم ولكنهم لن يكونوا معه إذا أراد أن يدعو كسرى «الفرس» وقيصر «الروم» فسيتركونه يذهب وحده إليهم.

قال لهم النبي ﷺ:

«ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق».. فشكرهم على صدقهم ولكنه قال: «إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه»(87)

يعني لا يشترط على الله نصرته أوقاتًا والتخاذل أوقاتًا أخرى، بعد ذلك أتى أحد الرجال يُسمى (أبو الحيسر أنس بن رافع) ومعه آخر يُسمى (إياس بن معاذ)، فهذان الرجلان من المدينة من قبيلة (الأوس) كانا آتيين إلى مكة ليستعينا بقريش ليكونوا معهما ويساعدوهما بجيشهم في حربهما «يوم بعاث» بين الأوس والخزرج، فلما دخلا مكة قابلهما سيدنا محمد ﷺ وقال لهما: «هل لكم إلى خيرٍ ممَّا جئتم له؟»، فأبو الحيسر أنس بن رافع قال: (قل يا محمد). قال ﷺ:

«أنا رسولُ اللهِ، بعثني إلى العبادِ أدعوهم إلى أن يعبدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا»(88)

ثمَّ ذكر لهم الإسلامَ وتلا عليهم القرآنَ ودعاهم إلى الإسلام، فإياس بن معاذ قال: (ما أجمل هذا الكلام! إنما يدعوننا لدين هو خير من ديننا)، قام أبو الحيسر أنس بن رافع وأخذ التراب ورماه على وجه صاحبه وقال: (اصمت، فوالله ما جئنا لذلك، إنما جئنا لمن هو خير من ذلك..جئنا من أجل الحرب وليس الإيمان.. قم يا أخا العرب). فقام عنهم سيدنا محمد ﷺ.

تضيق تضيق، ولكن اعلم أنه كلما زاد الضيق كان الفتح كبيرًا جدًّا ومن حيث لا نحتسب.

اسعَ واجتهد واعلم أن الجبر والفتح سيأتيانك من الله في الوقت المناسب

النبي ﷺ بعد انغلاق قلوب قريش ظل يطوف بالقبائل يدعوهم إلى الله.. ففكرة طرق الأبواب وأنه إذا حاولت في باب معين لفترة طويلة ولم يفتح، فأتصور أن هذا قدري فأظل أجلس كالعاجز حتى تنتهي حياتي.. فهذه فكرة تحتاج إلى مراجعة؛ لأن النبي ﷺ لم يفعل ذلك.. والنبي نورينير لك الطريق، هل رأيت صاحبنا الذي قدم السيرة الذاتية له في شركة وظل يحاول إلى أن جاء ميعاد المقابلة الشخصية ولكنه لم ينجح فيها.. فمن الطبيعي أنه تقدم لهذه الوظيفة عدد كبير، فحتمًا سيتم اختيار أحدهم ورفض الباقي، ولكن بعد هذا الموقف تجده يجلس في بيته ينتظر دون محاولات أخرى.. فهذا خطأ فلا بد أن تطرق جميع الأبواب مرات عديدة.

سيدنا النبي ﷺ ظل يسير في الأسواق ويسير خلفه أبو لهب وأبو جهل يحذران الناس من الاستماع له ويصفانه بأسوأ الصفات، ولكن النبي ﷺ لم يأبه لذلك وظل يحدث القبائل ويقول لهم:

> «قولوا لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفلِحوا»(89)

فإذا طبقنا هذا الكلام في حياتنا.. فاطرق جميع الأبواب في كل شركة ولكل شخص يمكن أن يساعدك ولا تشْكُ من عدم وجود شغل، وإذا سألناك: كم مرة بحثت عن عمل؟ نجد أنك بحثت مرة أو اثنتين أو ثلاثًا فقط، حتى وإن كنت تبحث منذ ستة شهور مثلًا ففيها تقريبًا مائة وخمسة وسبعون يومًا لا بد أن يكون منهم مائة يوم وأنت تبحث وتجتهد؛ لأن الإنسان في رحلة سعيه لوصوله لغرضه ينمو وتتكون بداخله أشياء لم تكن موجودة إلا من خلال هذه الرحلة.. فالله سبحانه وتعالى سيكافئك على تعبك.

ينطبق نفس الكلام على موضوع «الزواج» وادخار المال من أجله، وينطبق أيضًا على من يدعون الناس إلى الله ولا يجدون أثرًا لدعوتهم.. حسِّن أخلاقك، قم بمسئولياتك حتى تكون كبيرًا في أعين من حولك، فعندما تدعوه يتأثر بك وبكلامك.. حتى وإن لم يستجب ويتأثر فاعلم أن هذا حدث مع النبي ﷺ لسنوات طويلة فلم يستجب معه إلا عدد قليل حوالي مائة أو مائتي شخص فقط.. ولكن الجبر سيأتي من رب العالمين فقط.. أكمل رحلتك مع طرق الأبواب.

موقف (عبس وتولى) وبداية أمر الأنصار

نكمل معًا مع آخر أيام سيدنا النبي ﷺ في مكة قبل المرحلة الكبرى في حياة المسلمين في المدينة.. يُقال إن في هذا الوقت وقبل أن يقابل النبي ﷺ الأنصار في الحج حدث موقف (عبس وتولى)، وفيه كان النبي ﷺ يقف في مكة مع صناديد قريش من الكبار والزعماء مثل: (عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة)، فكان ﷺ يكلمهم عن رب العالمين وكانوا منتبهين معه، فجاء سيدنا (عبد الله بن أم مكتوم) وكان كفيفًا، جاء لسيدنا النبي ﷺ فقال له: (علمني مما علمك الله.. علمني مما علمك الله). والمفسرون في هذه المسألة لهم قولان؛ **الأول:** أن من عبس وتولى هو الوليد بن المغيرة والمشركون.

والقول الثاني: أن من عبس كان سيدنا النبي ﷺ.

وقلبي مستريح للرأي الأول الذي يقول إن المشركين هم من عبسوا؛ لأن النبي ﷺ ليس من طبعه أن يتضايق ويعبس في وجه من يريد منه النصيحة أو يطلب أي شيء، لم نعهده على هذا الحال من قبل، لا في بداية حياته ولا في آخرها.. قال تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾[عبس:1، 2]

فالمشركون الذين كان النبي ﷺ يتكلم معهم كانوا من الأغنياء المؤثرين الذين لو كانوا أسلموا لارتفع العذاب عن الكثير من أهل مكة، وكان هؤلاء المشركون لا يحبون أن يأتي أحد من البسطاء الفقراء يتكلم في حضورهم (قمة العنصرية)، فعندما جاء عبد الله بن أم مكتوم وتوجه له النبي عبس الوليد بن المغيرة، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾.. لماذا عبست يا وليد بن المغيرة؟ فيمكن أن يكون الذي جاء هو من يُسْلِم و يشرق قلبه بالإيمان:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾[عبس: 3، 4]

وبعد ذلك ذهب الكلام إلى سيدنا محمد فقال تعالى:

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾[عبس:5 - 7]

فأنت يا محمد تفعل ما عليك وما بوسعك معهم فاتركهم ينصرفوا ولا شيء عليك:

﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾[عبس: 8-10]

فكن مع هذا الصحابي الذي جاءك يسعى ويريد الإيمان وهو سيدنا عبد الله بن أم مكتوم..

ويأتي المشهد الكبير، وهو مجيء ستة من الخزرج ليحجوا ويطوفوا حول الأصنام عند الكعبة وقابلهم سيدنا محمد ﷺ، ويقال إنهم كانوا يحلقون شعرهم بعد المناسك، فأتاهم سيدنا محمد ﷺ وقال لهم:

«أفلا تجلسون أكلمكم؟»[(90)]

قالوا: (بلى).. فبدأ ﷺ يكلمهم عن رب العالمين وأنه نبي هذه الأمة، ودعاهم إلى التوحيد فوضعوا أيديهم على رءوسهم وقالوا: (أهذا هو النبي الذي تكلمكم عنه اليهود.. والله لا يسبقونكم إليه).. فالذي حدث هو أن اليهود في المدينة كانوا كلما اختلفوا معهم قالوا لهم: (هذا زمان نبي آخر الزمان سيبعثه الله ونقاتلكم معه ونقتلكم قتل عاد وإرم).. أي أنه سيأتي هذا النبي ونقاتلكم معه وننتصر عليكم.. فمن نشر الدعاية الكبرى لمجيء النبي ﷺ لمدة سنوات طويلة هم اليهود، وينزل القرآن، فيقول تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: 89]

أي أنهم كانوا معترفين أن هناك نبيًّا آخر الزمان ولكن لما جاءهم لم يؤمنوا به.

فرجال الخزرج علموا أن النبي ﷺ هو نبي آخر الزمان فشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.. وطلبوا من النبي ﷺ أن يعودوا إلى بلادهم ليحكوا لقومهم ما حدث معهم حتى يأتوا معهم ليؤمنوا في العام المقبل.. وكأنهم وعدوه ﷺ أن يجهزوا المدينة لاستقباله ﷺ حتى تبدأ مرحلة بها نصر من الله وفتح ودخول الناس في دين الله أفواجًا بعد ثلاث عشرة سنة من الصبر والتحمل والمنطق والرحمة على أشد الناس تكذيبًا لسيدنا رسول الله ﷺ.

إن الله ينصر هذا الدين بالرجل الفاجر

سيدنا محمد ظل سنوات طويلة قرابة ثلاثة عشر سنة يدعو الناس في مكة، وبعد ذلك سبحان الله الذي إذا أراد شيئًا يقول له كُن فيكون، أتى ستة من الأنصار حدثهم النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام وكأنهم كانوا موتى فأحياهم بكلامه.. وتذكروا كلام اليهود لهم بأنهم سيحاربونهم مع هذا النبي وينتصرون عليهم.. (لا يسبقونكم إليه)، ومن هنا آمنوا معه وبدأت مرحلة المدينة التي كلها فتح على المسلمين.

فلاحظ هنا من قام بالإعلان في المدينة عن مجيء النبي ﷺ.. إنهم (اليهود) أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو ملك ومالك الكون، فهو الملك وفي نفس الوقت هو المُتصرِّف في كل شيء سبحانه وتعالى.. فجعل أكثر الناس معاداة لسيدنا النبي ﷺ هم أكثر من فعل الإعلان والدعاية عن مجيئه.. فتفكَّرْ دائمًا في سُنة الله، وأن الله تعالى عندما يحميك يجعل من يريد إيذاءك يخدمك.. فيؤذيك إيذاء يجعل قدرات ومهارات تنمو بداخلك ومعتقدات خاطئة تتراجع، ينمو فيك كل شيء ضعُف ونسيته بسبب رغد العيش وأحيانًا عندما توجد النعمة تجد أن أكثرنا يتكاسل.. وهناك من ينمو ويساعد من حوله في أوقات الوفرة، ولكن الكثير يتكاسل ويعتاد النعم.. فعندما توجد الأزمات اعلم جيدًا أن هذه الأزمات تخدمك وتعطيك دفعة إلى الأمام.

فالنبي ﷺ يقول:

> «وإنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بالرَّجُلِ الفاجِرِ»[(91)]

فمثلًا يمكن أن يظهر شخص ينكر معاني القرآن أو ينكر سُنة النبي ﷺ فيشكك الناس في ثوابت مستقرِّين عليها طوال عمرهم في أنوار سيدنا محمد ﷺ، فعندما يفعل ذلك تجد أن الناس بدءوا يبحثون ويسألون العلماء، ويظهر العلماء فيعلموننا ويفهموننا سُنة النبي ﷺ وكيف نفرق بين الصحيح والضعيف، ويبدأ حدوث حراك ينمو فيه وعي الناس ويعودون لله سبحانه وتعالى.

ولا تنس أن أكثر شخص عمل إعلانًا لسيدنا موسى عليه السلام هو (فرعون) الذي حشر الناس

> ﴿... وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[طه: 59]

أي طلب أن يُجمع الناس في الصباح حتى يشاهدوا انتصاره على سيدنا موسى وغلبته بالسحرة، فكان اختيار التوقيت في الصباح من ناحية أخرى حتى ينصر الله سيدنا موسى ويشاهد الجميع سجود السحرة بعد إيمانهم بالحق وبمعجزة سيدنا موسى..

فاطمئن لإرادة رب العالمين وتدبيره لشئونك.. فسِر في الطريق الصحيح، وقم بفعل ما في وسعك، واعبد الله، وقم بمسئولياتك، وكُن مجتهدًا في الدنيا.. تجد أن الأيام الصعبة تنميك ويأتيك الفتح من حيث لا تتوقع تمامًا، فيمكن أن يأتيك من عدوك.

بيعة العقبة الأولى ودور مصعب بن عمير العظيم

عندما استأذن الستة من الأنصار الذين أسلموا على يد النبي ﷺ أن يعودوا إلى بلادهم عادوا بالفعل وبمنتهى الجدية وبدءوا يدعون الناس هناك إلى الله.. وكانت المدينة بسبب وجود اليهود بها يعرف الناس أن هناك أديانًا سماوية وأن هناك ربًّا للكون، فكانوا قريبين من الإيمان.. فما كان من بيت إلا دخل منه أحد في الإسلام، ومر عام وفي موسم الحج أتى منهم اثنا عشر رجلًا ليبايعوا سيدنا محمدًا ﷺ، وسميت (بيعة العقبة الأولى)، فمنطقة العقبة هي منطقة قريبة جدًّا من الحرم في مكة، وبايعوا سيدنا محمدًا ﷺ، وسميت البيعة أيضًا (بيعة النساء)؛ لأن سيدنا النبي ﷺ بايع الرجال فيها على نفس الأشياء التي بايع عليها النساء؛ لأن الفرق في البيعة بين مبايعة الرجال والنساء هو أن الرجال يبايعونه على الحرب.. ولكن وقتها لم يكن الله تعالى قد فرض الحرب على المسلمين في الدفاع عن أنفسهم.. فبايعوا رسول الله ﷺ ألا يشركوا بالله شيئًا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم، وسيدنا النبي ﷺ قال لهم:

> «أُبَايِعُكُمْ علَى أَلَّا تُشْرِكُوا باللهَّ شيئًا، ولَا تَسْرِقُوا، ولَا تَزْنُوا، ولَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، ولَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بيْنَ أَيْدِيكُمْ وأَرْجُلِكُمْ، ولَا تَعْصُونِي في مَعروفٍ». ثم قال: «فمَن وفَى مِنكُم فأَجْرُهُ علَى اللهَّ، ومَن أَصَابَ مِن ذلكَ شيئًا فَأُخِذَ به في الدُّنْيَا، فَهو له كَفَّارَةٌ وطَهُورٌ، ومَن سَتَرَهُ اللهُّ، فَذلكَ إلى اللهَّ: إنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وإنْ شَاءَ غَفَرَ له»[92]

وبالفعل بايعوا النبي ﷺ، وأثناء عودتهم إلى المدينة مرة أخرى بعث النبي ﷺ معهم سيدنا (مصعب بن عمير) ذاك الصحابي الذي أسلم في بداية الإسلام في أول أربعين صحابيًّا من المهاجرين الأوائل.. ذاك الشاب المترف الذي كان يرتدي النعال الحضرمية وكأنها مستوردة من الخارج، وهو من قال عنه النبي ﷺ:

> «ما رأيت بمكة أحدًا أحسن لِمَّة، ولا أرق حُلَّة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير»[93]

«اللِّمَّة»: هي تسريحة الشعر، وثيابه كانت رقيقة في غاية الأناقة.. وكان أيضًا مؤمنًا محبًّا ومقبلًا جدًّا على دعوة النبي ﷺ، ووجد النبي منه تحمُّلًا عظيمًا للمسئولية وحبًّا كبيرًا لهداية الخلق، وبالفعل ذهب

مع الرجال إلى المدينة وبدأ هناك يقرأ عليهم القرآن ويعلمهم أحكام الدين التي كانت قد نزلت في مكة وقتها، ومن هنا بدأ الإسلام ينتشر في جميع بيوت أهل المدينة لاستعداد نفسيتهم للتوحيد.

ويُقال إن سيدنا مصعب بن عمير هو أول صحابي صلى الجمعة بالمسلمين بعد سيدنا محمد ﷺ، ففي هذا الوقت قد فُرضت الصلوات الخمس في ليلة الإسراء والمعراج، فكانوا يريدون أن يصلوا الجمعة في المدينة فسألوا عنها النبي ﷺ فأخبرهم بأن ينظروا إلى السبت الذي تتخذه اليهود ويصلوا في اليوم السابق له حتى يستطيعوا تحديد يوم الجمعة، وأوضح لهم طريقة الصلاة وبأنها ركعتان، وطريقة الخطبة، كل هذا بالمراسلات كما يقول أهل السير.

ويُقال أيضًا إن أول من صلى الجمعة في المدينة هو أحد الصحابة ويُسمى (أبو إمامة أسعد بن زرارة).. فهذه الأسماء من الممكن أن تكون جديدة على مسامع كثير من المسلمين ولكنهم هم الرجال الذين بني عليهم الإسلام في هذا الوقت.. أسماؤهم غير معروفة مثل معرفتنا بسيدنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ولكنهم من الأسماء التي لا بد أن نحفظها في المدينة وبدايات الهجرة ومنهم (مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة)..

وفي وسط هذه القصة كان هناك اثنان من كبار الأنصار من (بني عبد الأشهل) وهي قبيلة كبيرة جدًّا في المدينة.. يُسميان (أُسَيد بن حُضَير) و(سعد بن معاذ)، كانا متعصبين جدًّا وكانا مشركين، فاستاءا مما حدث في المدينة وتساءلا عمن يسفه عقول الضعفاء ويجعلهم يبدلون دينهم.. فـ«أسيد بن حضير» يقول لـ«سعد بن معاذ»: هل نترك أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير يكملان في هذا الطريق؟

فأجابه سعد بن معاذ بأن أسعد بن زرارة هو ابن خالته وأنه لا يستطيع أن يتحدث معه في هذا الأمر ويتشاحن معه، فطلب منه أن يذهب هو ليتكلم معه، فوافق أُسَيد، وبالفعل ذهب وهو شديد العصبية ودخل على مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة في مجلسهما في أحد البيوت هناك، وقبل أن يقترب منهما همس أسعد بن زرارة في أذن مصعب بن عمير وقال له: (جاءك سيد في قومه إن أسلم أسلم قومه.. فاصدق الله فيه وادع الله أن يفتح بينك وبينه). فدخل عليهما أسيد بن حضير شاتمًا، يقول لهما كلامًا مثل: سفهتم عقول الضعفاء، وبدلتم ديننا، اتركونا وشأننا، اخرجوا عن ديارنا. فقام سيدنا مصعب بن عمير وقال له: (إن شئت فاجلس فاسمع؛ فإن أعجبك الكلام فبها ونعمت، وإلا قمنا عنك). قال: (أنصفت). وغرس حربته في الأرض وجلس يسمع، فقرأ عليه سيدنا مصعب بن عمير القرآن وحدثه عن سيدنا محمد ﷺ وعن رب العالمين وعن الآخرة، قال: (فعرفنا الإسلام في وجهه من استبشاره وتسهله).

فقال (أسيد بن حضير) لسيدنا (مصعب بن عمير): (ماذا تفعلون إذا أردتم أن تدخلوا في الإسلام؟) قال: (تغتسل وتطهر ثوبيك وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وتصلي ركعتين). وكانوا قديمًا يرتدون قطعتين من الثياب الجزء العلوي يسمى «رداء» والسفلي يسمى «إزارًا»، وبالفعل اغتسل، وطهر ثيابه، وشهد الشهادتين وصلى ركعتين وقال لهما: (إن من ورائي سيدًا في قومه - سعد

بن معاذ- فإن أسلم فلن يترك بيتًا من بيوت الأنصار إلا وأسلم جميعًا). ورجع سيدنا (أسيد بن حضير) ليتحدث مع (سعد بن معاذ).

مواقف من نور

الموقف الأول: سيدنا مصعب بن عمير الذي كان أغلب المسلمين لا يعرفون اسمه، هو الصحابي الذي هيأ المدينة لاستقبال النبي ﷺ، فهو من طلب منه النبي ﷺ أن يسبقه إلى المدينة، وكان أول من صلى الجمعة بالناس وحفَّظهم القرآن الذي تعلَّمه على يد النبي ﷺ في مكة، وكان أفضل سفير يُمثل سيدنا محمدًا ﷺ في أهم مكان ستحدث فيه نقلة في دعوة سيدنا النبي ﷺ في الهجرة الشريفة.

وأنا أتصور دائمًا أن سيدنا مصعبًا طوال وجوده في مكة كان يتعلم بتركيز جدًّا ونظره على النبي ﷺ في كل شيء ليستقي من أنواره وأخلاقه ويحفظ كل ما يتعلمه منه حتى جاءت له الفرصة فقد كان مستعدًّا لها.

فتعريف الحظ كما نعرف: هو فرصة لاقت منك استعدادًا.

فالنبي ﷺ اختياراته تكون بالطبع بوحي من رب العالمين، فلم يختر سيدنا أبا بكر أو عمر أو عثمان أو عليًّا ولكنه اختار سيدنا مصعب بن عمير ليعلِّم الناس في المدينة، فلم يكن هناك بيت من بيوت المدينة إلا ودخل فيه الإسلام، وعند مجيء النبي ﷺ إليهم في الهجرة استقبلوه بـ«طلع البدر علينا».. والفضل هنا أولًا لله سبحانه وتعالى عن طريق سيدنا «مصعب بن عمير»الذي جمع بين حُسن مظهره وحبه؛ لأن يكون مسلمًا في أبهى صورة، لكن لم تشغله النعمة عن المُنعم سبحانه وتعالى.

الموقف الثاني:

(أسعد بن زرارة) الصحابي الأنصاري الذي لم يترك سيدنا (مصعب بن عمير) قط، وفي كل موقف كان يرشده إلى طريقة التعامل مع كل شخصية والتعريف بها.. ربما هناك 99 % من المسلمين لا يعرفون أسعد بن زرارة، فاللهم أرنا إياه في الجنة، فهناك الكثير من الناس أخفياء في الدنيا ولكنهم مشهورون عند رب العالمين.

وهناك في وسطنا الكثير على هذا الحال يقومون بأعمال كثيرة من الخير ومساندة الناس، وعند موتهم نشعر بأن هناك شيئًا كبيرًا جدًّا نقص؛ لأنهم طوال حياتهم كانوا يخدمون ويساعدون ولا يتحدثون عن ذلك، فعندما يموت أحد هؤلاء الأشخاص تجد أنه ترك فراغًا أكبر مما نتصور؛ لأنه كان سندًا ويتحمل الكثير من المسئوليات.. فاللهم أرنا هؤلاء الكِرام في الجنة.

قصة إسلام سيدنا «سعد بن معاذ»

بعدما أسلم سيدنا (أسيد بن حضير)عاد إلى (سعد بن معاذ) الذي كان ينتظره وهو مستاء جدًّا من ابن خالته أسعد بن زرارة لمساندته مصعب بن عمير في الدعوة وإيوائه عنده، فعند رؤيته أُسيد بن حضير وهو قادم من بعيد قال: (أحلف بالله لقد جاء بوجه غير الذي ذهب به). فدخل عليه سيدنا (أسيد بن حضير) فقال له: **(كلمتهم فلم أجد في كلامهم بأسًا وقالا لي: إن أحببت كففنا عنك ما تكره)** وتركتهم

ولكني يا سعد بن معاذ قد بلغني أن «بني حارثة»، وهي قبيلة أخرى معادية لـ«بني عبد الأشهل» والتي منها سعد بن معاذ، فقال له: (**لقد بلغني أن بني حارثة يريدون أن يقتلوا أسعد بن زرارة لما علموا أنه ابن خالتك ليغفروك فيه**). يعني: ليُكيدوك، فيبدو أنه كان هناك شيء بينهم مثل الثأر مثلًا، فقام سعد بن معاذ غاضبًا ليحمي ابن خالته، فلما دخل سعد بن معاذ وأثناء قدومه إلى ابن خالته قال أسعد بن زرارة مرة أخرى لسيدنا مصعب: (**لقد جاء سيد السادات هذا، إن آمن والله لا يتخلف عنه اثنان، فاصدق الله فيه**).. فدخل سيدنا سعد بن معاذ، فلما وجدهم مطمئنين ولا يؤذيهم أحد علم أن أسيد بن حضير فعل ذلك كي يجعله يسمع منهم، فدخل عليهم شاتمًا أيضًا وقال لهم: (**أجئتمونا في ديارنا لتُسمعونا ما نكره؟ خلوا عنا ديارنا**).

فقام سيدنا مصعب وقال: (**اجلس واسمع؛ فإن أعجبك ما نقول فبها ونعمت، وإلا كففنا عنك ما تكره**). فقال: (**أنصفت**). فجلس وغرس حربته وقال: تكلم. فبدأ سيدنا مصعب بن عمير يقوم بنفس منهجه يقرأ القرآن ويتكلم عن رب العالمين وعن سيدنا محمد ﷺ.. كلام منطقي رحيم يفتح قلب أي إنسان لديه ذرة فطرة، فقال أسعد: (**فعرفنا الإسلام في وجهه من إشراقه وتسهله**) وقال: (**ماذا تفعلون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟**). قال: (**تغتسل فتَطَهَّرُ وتُطهِّر ثوبيك، وتشهد الشهادتين، وتصلي ركعتين**). وبالفعل قام بعمل هذه الأشياء، وكأنه في لحظة تبدل حاله من شخص بداخله مظلم لشخص مضيء بنور الإيمان، ومن مُشرك لمؤمن بالله.

(سيدنا سعد بن معاذ) سيموت بعد هذا الموقف بحوالي خمس أو ست سنوات، وعند وفاته اهتز له عرش الرحمن فرحًا بقدوم روحه، وسنوضح هذا في الفصول المقبلة.

بعدما أسلم (سعد بن معاذ) انطلق إلى بني عبد الأشهل وكأنه لا يريد أن يتركهم على شركهم ويود أن يخبرهم بما رآه من القرب من رب العالمين وشعوره بنور الإيمان، فدخل عليهم وقال: (**يا بني عبد الأشهل، ما ترون أمري فيكم؟**). وكأنه يقول: من أنا بالنسبة لكم؟ فقالوا: (**أنت سيدنا وأعلمنا وأعظمنا نصيفة**). أي أنك أكثر شخص يفهم في الدنيا ويعرف ما يصلح أمرنا، قال: (**فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام إن لم تدخلوا في دين محمد**). فأمست ديار بني عبد الأشهل وما منهم من رجل ولا امرأة، ولا شيخ ولا صغير إلا دخلوا جميعًا في الإسلام.

كل هذا الفتح والنبي ﷺ ما زال في مكة.. ولنتعلم هنا أنك عندما تجتهد في شيء يسخر الله لك جنود الدنيا جميعها.. ففي هذا الموقف تجد أن عدد من دخلوا في الإسلام فيه أضعاف من دخل الإسلام طوال ثلاث عشرة سنة في مكة رغم أن النبي ﷺ كان يدعوهم بقلبه وروحه ونفسيته وماله كي يؤمنوا برب العالمين ولكنهم لم يؤمنوا إلا قليل منهم.. فتجد أنه أحيانًا تضيق تضيق ثم يأتي الفتح فيما لا يخطر على قلب بشر.. فصبرًا!

قال تعالى:

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ..﴾[الطور: 48]

مشهد مليء بالأنوار يتجلى بين اندفاعية وهجومية سيدنا سعد بن معاذ – وهو السيد في قومه الذي تأذى مما يحدث في المدينة – وبين سكون وهدوء سيدنا مصعب بن عمير وكان سبب هذا السكون عند سيدنا مصعب هو اليقين بأن الذي يخلق التأثير في كلامه هو (الله) وليست ردوده وحكمته؛ فالكثير من البيوت التي خربت ليست بسبب المشاكل ولكن بسبب طريقة النقاش في المشاكل حتى وإن كانت تافهة، ولكن الطريقة المزعجة هي التي تؤججها بسبب وجود شخص مندفع وآخر أكثر اندفاعية، فينشأ هنا صراع بين الأهل وأولادهم وبين المتزوجين أو الأخوات أو الأصحاب والزملاء في العمل بسبب الندية في التعامل.

ولكن هنا سيدنا مصعب بن عمير كان رد فعله مختلفًا، فبرغم ما سمعه من كلام سيئ من (سعد بن معاذ)، فقد قال له بكل هدوء وطلب منه أن يجلس ويسمع، فإن أعجبه كلامه فبها ونعمت، وإن لم يعجبه فسيتركه ويمشي، فاحترم عقله ونفسيته وخيرَّه.

فهذه النقلة في كلام سيدنا مصعب تعلمنا أنه عند المناقشة مع بعضنا عندما يكون أحدنا مندفعًا، يحاول الآخر الحفاظ على البيت والهدوء والنقاش بالعقل ومعرفة بشرية مَن أمامه، وأن الخطأ وارد في سلوك وأسلوب كل منا.. والله تعالى يقول في القرآن:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت:34]

وهنا يتجلى الصدق في هذه الآية، وهو أنك عندما تكون ساكنًا وثابتًا في طريقة النقاش فالمشكلة ستُحل وينصلح الجميع سواء في البيت أو في العمل وتكسب حب رب العالمين؛ لأنك ستكون نبويًّا محمديًّا؛ لأن هذه المواقف كثيرًا ما حدثت مع النبي ﷺ وتعامل معها بكل سكون وحكمة، وكان ذلك سببًا في هداية مَن أمامه.. فنحن نحتاج بشدة في وقتنا هذا إلى الأسلوب الرحيم.

فمن يحدث الناس عن رب العالمين لا بد أن يحدثهم ويدعوهم بالرحمة وليس بالاندفاع والغلظة في مواجهة من أمامه.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وآته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، واجزه عنا ما هو أهله بأفضل ما جزيت نبيًّا عن قومه ورسولًا عن أمته، وصلِّ وسلم على جميع الأنبياء والصديقين يا أرحم الراحمين.

اللهم اكتب لنا رزقًا كثيراً، وقلبًا لنعمائك بصيراً، وعلمًا نافعًا غزيراً، وقبراً برحمتك وصالح الأعمال منيراً، وحسابًا بفضلك وعفوك يسيراً، وملكًا في جنة الفردوس كبيراً.. إنك يا مولانا على ما تشاء قدير، وأنت نعم المولى ونعم النصير.

---

(84) رواه الدارقطني.

(85) رواه أحمد.

(86) رواه ابن هشام.

(87) رواه ابن حبان.

(88) رواه ابن حجر.

(89) رواه الذهبي.

(90) رواه ابن إسحاق.

(91) رواه البخاري.

(92) رواه البخاري.

(93) رواه ابن سعد.

10

بيعة العقبة وأشهر قصص هجرة الصحابة

بيعة العقبة الثانية وفداء الأنصار للنبي ﷺ

نصل الآن إلى ما قبل أيام قليلة من هجرة النبي ﷺ وبداية العهد الجديد المدني، فنحن الآن في هذا الفصل نستعرض أحداث شهر ذي الحجة من السنة الأخيرة قبل هجرة النبي ﷺ والتي ستكون في شهر ربيع الأول.. فماذا حدث في هذا الشهر؟

حدث أن عددًا كبيرًا من أهل المدينة قد جاءوا إلى مكة في فوج كبير حتى يحجوا في هذا الشهر للأصنام الموجودة حول الكعبة، ولكن في هذه المرة من وسط هذا الفوج جاء مجموعة من الأنصار الذين أسلموا وكان عددهم **سبعين رجلًا وامرأتين «نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو»**، ولكنهم لم يفصحوا عن السبب الحقيقي لمجيئهم إلى مكة؛ لأن من بين الفوج مشركين، فمن الممكن إذا علموا بإسلامهم أن يؤذوهم أو يبلغوا أهل مكة عنهم فتحدث حرب، فكان الأمر ساكنًا وهادئًا وفي السر، وقد وصلوا قرب مكة فخيَّم كل الفوج القادم من المدينة، وقام على الفور سيدنا مصعب بن عمير حتى يرى رسول الله ﷺ

الذي اشتاق إليه كثيرًا فذهب مسرعًا إليه، واستقبله رسول الله ﷺ، وظل مصعب يُحدِّثه عن جمال قلوب الأنصار، وعن سرعة إقبالهم على الإسلام، وعن استبطائهم قدوم رسول الله ﷺ، فكانوا يريدونه أن يأتي إليهم في المدينة، فعرف منه النبي ﷺ الأخبار، ثم أوصاه أن يذهب ليسلم على أمه؛ لأنها تضايقت بسبب مجيئه إلى النبي ﷺ أولًا قبل أن يسلم عليها وكانت مشركة وقتها، فقالت لابنها: **(يا عاق، تأتي إلى مكة ولا تُسلِّم عليَّ في أول من تُسلِّم)** قال لها: **(لا أستطيع إلا أن أرى رسول الله ﷺ أولًا)**.

ثم بعد ذلك اثنان من الأنصار لم يصبرا على الانتظار واشتاقا أن يريا رسول الله ﷺ فخرجا من وسط الفوج القادم من المدينة وذهبا يسألان عن النبي ﷺ حتى علما أنه في بيت العباس، فذهبا هناك وطلبا مقابلته فطلب منهما العباس أن ينتظراه في منطقة العقبة قرب مكة وسيأتيهما النبي ﷺ هناك.

ومن هنا جاءت التسمية **(بيعة العقبة)** نسبة إلى المكان الذي عقد فيه هذا الاتفاق، وأتى الجميع في هذا المكان، السبعون رجلًا والمرأتان جاءوا ليسلموا على النبي ﷺ ويبايعوه على الإسلام وعلى نصرته.

وقد خرج مع النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب - ابن عم النبي ﷺ- والكثير من روايات السير تقول إنه كان قد أسلم وأخفى إسلامه حماية للنبي ﷺ، وبعضها تقول إنه كان مشركًا ولكنه كان يقف بجانب النبي ﷺ مكان أبي طالب، وبالفعل وصل الجميع إلى منطقة العقبة، وقد خرج الأنصار السبعون رجلًا والمرأتان بشيء من التخفي بدون أن يشعر بهم أحد، وجلس العباس وجلس النبي ﷺ، وقال العباس: (أيها الناس، إنكم تعلمون أننا مع محمد في عزة ومنعة، وأننا منعناه من أن يؤذيه قومه؛ فإن أخذتموه لتنصروه فافعلوا، وإلا فاتركوه فإنه في عزة ومنعة). فقام أحد الأنصار يُسمى (البراء بن معرور)، وستبدأ في سماع أسماء جديدة من أسماء الأنصار الذين كانوا في المدينة، وقال: **(يا رسول الله، خُذ لنفسك ما شئت)**.. أي بماذا تأمرنا يا رسول الله أن نفعل؟ قال ﷺ:

> **«أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»**[(94)]

معناه أني سآتي معكم وأعيش بينكم لنشر الدعوة فساعدوني على ذلك، وإذا عاداني أحد فأعينوني على أن ندافع عن أنفسنا.

فقال البراء بن معرور: **(والله يا رسول الله لنمنعنك ما نمنع منه أُزرنا)**. «الإزار» هو القطعة من الملابس التي تُرتدى من الأسفل، ومعنى هذه الكلمة: أننا سنحميك كما يحمي أحدنا شرفه وملابسه، وهذه الكلمة كان يطلقها العرب دليلًا على الاجتهاد في الدفاع والنصرة، وقال له: **(فافعل ما شئت يا رسول الله)**.

فقام (أسعد بن زرارة) والذي يقال عنه في بعض روايات السيرة إنه أول من خطب الجمعة في المدينة، فقال: (يا رسولَ اللهِ، عَلامَ نُبايِعُكَ؟)، قال النبي ﷺ:

> **«تُبايِعوني على السَّمعِ والطاعةِ في النَّشاطِ والكَسَلِ، وعلى النَّفَقةِ في العُسْرِ واليُسْرِ، وعلى الأمْرِ بالمَعْروفِ، والنَّهْيِ عن المُنكَرِ، وعلى أنْ تَقولوا في اللهِ لا تَأْخُذُكُم فيه لَومةُ لائِمٍ، وعلى أنْ تَنصُروني إذا قَدِمْتُ يَثرِبَ،**

فتَمْنَعوني مِمَّا تَمنَعون منه أنفُسَكُم وأزْواجَكُم وأبْناءكُم»[95]

فقام الناس يبايعون النبي ﷺ، فقام أسعد بن زرارة، وكانت سنه صغيرة وقتها، وقال لهم: (**إنكم تعلمون أن مبايعة رسول الله فيها مفارقة العرب وأن تعضكم السيوف**). معناه: أنكم لا بد أن تعرفوا عواقب هذه المبايعة أننا بعد مجيئنا مع رسول الله من الممكن أن الكثير من العرب لا يسمحون لنا بذلك؛ بالإيمان وبعبادة الله فيحاربوننا، فقالوا: (**دع عنا يا أسعد، والله لا نقيل ولا نستقيل**).. أي: أننا ليس من الممكن أبدًا أن نترك النبي ﷺ ولا أن نسأله أن يتركنا أبدًا، فقال النبي ﷺ: «**ولكم الجَنَّةُ**».

فقام الناس يبايعونه، وقام أبو الهيثم بن التيهان وقال: (**يا رسول الله، إن بيننا وبين القوم حبالًا** – يقصد يهود المدينة – **وإنا لقاطعوها، أفإن أظهرك الله أتتركنا؟**). فقال النبي ﷺ:

«بلِ الدَّمَ الدَّمَ، والهدمَ الهدمَ»[96]

وهذه الكلمة من الممكن أن تكون غريبة على المسامع ولكن معناها عند العرب أن دمنا أصبح واحدًا وكأننا عائلة واحدة، (الهدم الهدم): أي إذا كنتم مسلمين مسالمين لا تعتدون على أحد وكان هناك من يعاديكم وأنتم مسالمون فهدمتم العلاقة معهم فأنا سأبني العلاقة معكم وأهدم مع من يعاديكم ويعادينا، وسنصبح عائلة واحدة مسالمين.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[البقرة: 256]

نعبد الله وننشر الدين بسلام، فإن عدا علينا الناس نكون دمًا واحدًا وعائلة واحدة.. فقام الناس يبايعون النبي ﷺ، وبعد ذلك انصرف القوم ليعودوا إلى المدينة وأعطى النبي ﷺ الإذن لأهل مكة المسلمين أن يهاجروا، وبعد شهور قليلة وفي ربيع الأول سيهاجر النبي ﷺ إلى المدينة.

الجديَّة وتحمل المسئولية في بيعة العقبة

مشهد بيعة العقبة بالنسبة إليَّ.. مشهد مليء بالجدية في تحمل مسئولية دعوة سيدنا رسول الله ﷺ.. الدعوة المليئة بالرحمة والأخلاق وبناء النفس والأوطان والحضارة.. معانٍ كانوا مفتقرين إليها، ويمكن أن يكون هذا سرًّا من أسرار تمسك الأنصار بالنبي ﷺ، وهو أنه «***أوجد لحياتهم معنى***»، فقد كانوا أناسًا عاديين يأكلون ويشربون ولديهم شهواتهم.. فلا يوجد ما يحكمهم من السماء، فقد كان يحكمهم المزاج فقط، فنتج عن ذلك أن القوي كان يأكل الضعيف، وكانوا يسيئون الجوار، فهم أنفسهم من وصفوا أنفسهم بذلك، فعندما وجدوا من لديه رحمة ومنطق تمسَّكوا به واستعدوا أن يفدوه بأرواحهم من أجل نصرة فكرته الرحيمة المنطقية.

والإنسان عندما يجد لحياته معنى لا يفرط فيه.. فكن مثل الأنصار ما دمت اتفقت مع نفسك على الجدية في الحياة.. عِش بهذا المعنى الغالي إلى أن تلقى الله سبحانه وتعالى.

بمرور الأيام بعد بيعة العقبة يشتد الإيذاء أكثر على المسلمين ويشتكون إلى سيدنا النبي ﷺ أنهم لا يستطيعون أن يتحملوا كمَّ الإيذاء من مشركي مكة، فيأتي الإذن من رب العالمين - سبحانه وتعالى- للرسول ﷺ بأن يأذن لهم بالهجرة إلى المدينة.. فهاجر سيدنا عمار بن ياسر، وسيدنا بلال بن رباح، وسيدنا سعد بن أبي وقاص، وقد جاء سيدنا عمر بن الخطاب المعروف ببأسه وقوته، فأراد أن يساعد الناس؛ لأنهم كانوا يهاجرون في الخفاء، فقام في وسط الكعبة وقال: **(من أراد أن تُثكَل أمه أو ييتم ولده فليتبعني خلف هذا الوادي)**.

«تُثكَّل»: أي تفقد ابنها، «يُيَتم»: أي يفقد والده.. معنى الكلام أن من يريد أن يموت ويفقده ابنه أو تفقده أمه فليتبعنا، فلم يأت وراءه أحد، وبالفعل خرج معه عشرون من فقراء وبسطاء الصحابة، فأوصلهم إلى المدينة؛ لأنهم لم يكن ليستطيعوا الهجرة دون السند والقوة من سيدنا عمر بن الخطاب الذي حماهم من بطش مشركي قريش.

ولكن من بين المشاهد الصعبة جدًّا في الهجرة.. أن من أوائل العائلات التي حاولت أن تهاجر هي عائلة أبي سلمة وأم سلمة وابنهما سلمة، خرج الثلاثة وكان أبو سلمة ممسكًا بالجمل وأم سلمة تركب عليه وهي ممسكة بابنها سلمة ومحتضناه، وكانوا خارجين من مكة في طريقهم إلى المدينة، فبينما هم كذلك إذا بعائلة أبي سلمة وعائلة أم سلمة قابلوهم في الطريق ودارت بينهما مشاحنة؛ لأنهم كانوا مشركين، فعائلة أم سلمة قالت له: **(أنت غلبتنا على نفسك، فلن تأخذ زوجتك معك؛ لأنها من عائلتنا)**. وعائلة أبي سلمة قالت: إذا أخذتم زوجته وفرقتم بينهما فلن نترك لكم الولد. وحدثت بينهما مشاجرة كبيرة بها عشرات الناس، وظلوا يجذبون الولد الصغير سلمة حتى خلعوا ذراعه وتفرقوا عن بعضهم، وفرَّ سيدنا أبو سلمة إلى المدينة، فكان مشهدًا صعبًا جدًّا، وهو رؤية أعداد من المشركين الذين خلعوا كتف الطفل الصغير وخطفوا الزوجة وضربوا الزوج، وهذا يوضح لك كَمَّ النعيم الذي نحن فيه الآن، فإننا نستطيع أن ننزل ونصلي في المساجد ونحضر دروس العلم في الأزهر الشريف،ونستطيع أن نعبد الله بدون خوف، فهذه نعمة كبيرة، قال تعالى:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[قريش: 3، 4]

وظلت أم سلمة لمدة سنة كاملة تخرج إلى أطراف مكة تبكي وتدعو الله أن يعيد لها ولدها وأن تسافر إلى زوجها، وظلت هكذا إلى أن أشفق عليها أحد أبناء أعمامها فذهب وتوسط لها عند أهل زوجها أن يردوا إليها ولدها، ثم توسط لها عند عائلتها أن يتركوها تسافر إلى زوجها وبالفعل تركوها.

تقول: فقمت فركبت على البعير ومعي ولدي. وتحركت تجاه المدينة وحدها، فوجدت في طريقها «عثمان بن طلحة» وكان مشركًا وقتها، فسألها إلى أين تذهب.. فأجابته بأنها تريد أن تذهب إلى زوجها في المدينة، فطلب منها ألا تسير وحدها في هذه الصحراء، وأمسك بخطام الناقة «حبل الناقة» وظل يسير بها من مكة إلى المدينة؛ أي ما يقرب من 480 كم، قالت: **(فوالله ما رأيت رجلًا خيرًا من عثمان بن**

طلحة).. فبالرغم من أنه ما زال مشركًا فإنه كان رجلًا شهمًا، وكانت فطرته سليمة، تقول عنه إنه كان يمشي بها فإذا أراد أن يستريح أو أستريح أناخ الناقة ثم ابتعد تحت إحدى الأشجار فنام.. فكان يتركها حتى إذا أرادت أن تقضي حاجتها أو تنام كان يترك لها مساحة شخصية لها، وبعد أن تستريح تنادي عليه فيأتيها فتركب هي وابنها على الناقة ويسير معهما.. ظل كذلك طوال الطريق حتى رأوا وهم في طريقهم ديار المدينة عند (قُباء) قال: **(هذه ديار زوجك فاذهبي)**. ثم استدار وعاد إلى مكة، تقول: **(فوالله ما رأيت رجلًا أعظم من عثمان بن طلحة)**.

وظلت أفواج الصحابة تصل واحدًا تلو الآخر في الخفاء إلى أن يصل إليهم رسول الله ﷺ في المدينة.

كيف نشكر الله على نعمة الأمان والسكينة؟

مشهد الهجرة بالنسبة إلي يُذكرني بكل إنسان فينا يعيش في بلده في أمان فيستطيع أن ينزل إلى عمله ويعبد ربه بدون أن يُهجَّر من بلده أو يؤذى بسبب أغلى شيء قيم في حياته وهو (عقيدته).. فإذا كنت تعيش في بلدك في أمان، فقدِّر ذلك، يقول تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[العنكبوت: 67]

فإذا أنزل الله عليك الأمان في بلدك..فاحمد الله كثيرًا على هذه النعمة..احمد ربك أنك إنسان سوي في نفسك قريب من ربك، واحمد ربك أنك تستطيع أن تساعد في استقرار المكان والبلد الذي تعيش فيه.

الصحابة رضوان الله عليهم حتى يستطيعوا أن يعبدوا الله ويصلوا إليه اضطروا أن يهاجروا من مكة إلى المدينة بسبب شدة إيذاء مشركي مكة لهم والتسبب في قتل الكثير منهم.

فالأمان والهدوء والسكينة..نِعَم كبيرة جدًّا يجب عليك أن تشكر الله عليها؛ لأنها تسهم في الاستقرار والبناء.

وعندما تفرق أم سلمة وأبو سلمة عن بعضهما بسبب الهجرة، فمن الجميل أن تشاهد أمامك قصص التضحية بالغالي من أجل الأغلى.. فعندما أتفكر في هذا المشهد ونحن بحمد الله وفضله نعيش بأمان في أغلب بلادنا... أتذكر أبًا مثلًا يعمل لساعات طويلة ويشتاق إلى الجلوس فترة أطول مع زوجته وأولاده ولكن لقمة العيش ليست سهلة فيضحي بشيء غالٍ مثل الراحة والترفيه عن النفس بالخروج وغيره من أجل الأغلى، وتجد أن زوجته وأولاده مقدرون تعبه ولا يضغطون عليه ويدعون له ويرضون بالقليل منه؛ لأنهم يعلمون أن هذه هي رحلة الحياة فيحاولون أن يتجمعوا ويخرجوا كل فترة حسب المتاح من الوقت، وأيضًا الأب الذي يضطر إلى السفر إلى الخارج من أجل توفير احتياجات أسرته والسعي وراء رزقه.

وكأن الدنيا دائمًا بها تضحية بالغالي من أجل الأغلى، وهناك مثل يقول: **(الغالي يرخص للغالي)**.

فالصحابة ضحوا باستقرارهم في سبيل السير في أنوار سيدنا النبي ﷺ واللحاق به وجواره، وفي سبيل القرب من رب العالمين.. فكونك تعيش في أمان فهذه نعمة كبيرة جدًّا، احمد ربك عليها وساهم في إبقاء هذا الأمان.

قصة (عياش بن أبي ربيعة)

من قصص الهجرة العجيبة للصحابة قصة (عياش بن أبي ربيعة) و(هشام بن العاص).. كانا صاحبين اتفقا على أن يهاجرا مع بعضهما، أما (هشام بن العاص) فحبسوه وظلوا يضربونه حتى فتنوه عن دينه، وأما (عياش بن أبي ربيعة) فركب على الجمل وبدأ يتحرك ليهاجر إلى المدينة، فتتبعه أبو جهل - وهو ابن عمه - وقال له: **(يا عياش، أتسافر وتترك أمك.. لقد أقسمَتْ ألا تمشط شعرها وألا تقوم من الشمس حتى تراك)**. وكان قديمًا الذي يترك شعره دون عناية وتمشيط له يزداد فيه القمل ويصيبه بالأذى، ومن يجلس في الشمس يمكن أن يموت بسبب ضربة الشمس لشدة الحرارة هناك، وكان سيدنا عمر يمر فرأى هذا المشهد فقال له: **(يا عياش، لا تسمع له، أما أمك فإن آذاها القمل فستمتشط، وإن تعبت من الشمس فستستظل.. إنهم يريدون أن يفتنوك عن دينك)**. قال عياش: **(يا عمر، دعني أبر قسم أمي، ولي عندها بعض المال آخذه ثم أهاجر إلى رسول الله ﷺ)**. قال: **(يفتنك عن دينك)**. فرد عليه: **(دعني يا عمر)**. قال عمر: **(إذًا، إن أبيت إلا الذهاب فخُذ ناقتي فإنها نجيبة - قوية وسريعة - فإن رابك شيء فانج عليها)**. قال: **(حسنًا)**. فأعطاه سيدنا عمر ناقته؛ لأنها قوية وسريعة، حتى إذا شك في تصرفاتهم وأحس بالغدر منهم أسرعت به بعيدًا عنهم ونجا بنفسه منهم، وبالفعل ركب على الناقة وعاد خلفه أبو جهل، وبينما هم في وسط الطريق إذا بأبي جهل يقول له: **(يبدو أن ناقتي ضعيفة لا تستطيع أن تحملني فاحملني خلفك)**. وفعلًا ركب أبو جهل خلف عياش.. وبينما هما على أبواب مكة إذا بأبي جهل يخنق عياشًا من الخلف وأنزله من على الناقة وربطه وظلوا يضربونه حتى دخل مكة، وقال أبو جهل: **(هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا)**. وظلوا يضربونه حتى فتنوه عن دينه، وحُبس عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص في مكان ليس له سقف وكانا مكبلين.

وسيدنا عمر بن الخطاب وبعد مرور أيام كثيرة من هجرة النبي يقول: **كنت أرى أن الله لا يقبل من هؤلاء المفتونين لا صرفًا ولا عدلًا، عرفوا الله ثم كفروا به! حتى نزلت علينا:**

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر:53، 54]

قال: وكان النبي في المدينة يدعو «**اللهم نجِّ عياش بن أبي ربيعة.. اللهم نجِّ المستضعفين من المؤمنين**».

فقام سيدنا عمر بن الخطاب وكتب هذه الآية، وعندما سمع بأن هناك من يذهب إلى مكة أوصاه بأن يوصلها إلى هشام بن العاص وعياش بن أبي ربيعة، فلما قرأها هشام بن العاص لم يفهمها فقال: **(اللهم فهمنيها)**. فألقى الله في قلبه أنها نزلت فيه وفي جميع المفتونين وفي عياش بن أبي ربيعة، فتمنى أن يرجع، وسيدنا النبي ﷺ في المدينة يقول:

«مَن لي بعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص؟»[97]

أي: من يستطيع أن ينقذهما ويفك أسرهما؟ فلقد أُلقي في قلب النبي ﷺ بالوحي أنهما تابا ويريدان أن يعودا إليه، فقام الوليد بن الوليد بن المغيرة – وهو أحد الصحابة ولكن والده الوليد بن المغيرة أحد كبار المشركين – فقال: **(أنا يا رسول الله)**. فهو يستطيع دخول مكة وله من يحميه هناك، وبالفعل ذهب حتى وصل إليهما في مكانهما فتسور– أي: تسلق السور – وبشيء يشبه السكين فك الوثاق وعاد بهما إلى سيدنا محمد ﷺ، وقبل النبي إسلامهما، وهنا هاجر جميع الصحابة إلى المدينة.. وتعتبر هذه القصة من أغرب قصص الهجرة التي حدثت.

أربع نقاط هامة في قصة عياش بن أبي ربيعة

1. لحظة نسيان عياش تاريخ أبي جهل جعلته يدفع الثمن باهظًا
2. رأيت في هذا الموقف رحمة رب العالمين عندما نزل القرآن يخاطب عياشًا
3. رحمة ربنا سبحانه وتعالى بنا أوسع بكثير من تفكيرنا
4. لاحظ انشغال سيدنا النبي ﷺ بالدعاء لهما

1 لحظة نسيان عياش تاريخ أبي جهل جعلته يدفع الثمن باهظًا.. فعلى الرغم من أنه لم ير منه خيرًا قط، ورأى منه إيذاء للناس وافتراء.. قام بتصديقه، وإن أقسم له، مما تسبب له في دفع الثمن والبُعد أيامًا وشهورًا عن رسول الله ﷺ، وأحيانًا –للأسف الشديد– يلدغ الإنسان من الجحر أكثر من مرة ويظل مصرًّا على خطئه ولا يتعلم الدرس.

2 رأيت في هذا الموقف رحمة رب العالمين عندما نزل القرآن يخاطب عياشًا، فلم يذكره بخطئه بأنه فُتن عن دينه، ولم يوبخه ولكن أتى اللفظ ﴿ ۀ ہ﴾.. وفي التفسير لفظ (عباد) في القرآن يطلق في كثير من الأحيان على أحباب الله المقربين مثل:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[الفرقان: 63]

ومثل:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[الزمر: 17، 18]

أما لفظ (عبيد) فتطلق على المؤمن وغير المؤمن مثل:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت:46]

فالله سبحانه وتعالى أنزل الآية:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر: 53]

دعوة لعدم اليأس مهما بلغت الذنوب، فهي آيات تربت على كتف كل طائع وكل عاصٍ.

3 رحمة ربنا سبحانه وتعالى بنا أوسع بكثير من تفكيرنا، فسيدنا عمر رضي الله عنه كان يقول: (كنت أظن أن الله لا يقبل منهم صرفًا ولا عدلًا). أي فرضًا ولا سُنة.. أي: كيف لشخص أن يُفتن عن دينه بعدما عرف النبي ﷺ وصلى وراءه!

كيف له أن يستمع إلى كلام أبي جهل ويصدقه! ولكن رحمة الله أوسع من إدراك البشر حتى وإن كان واحدًا من أعظم البشر وهو سيدنا عمر.

4 لاحظ انشغال سيدنا النبي ﷺ بالدعاء لهم.. فبدلًا من أن ينشغل أحدنا بالحكم على تصرف عياش وعلى تصديقه لأبي جهل مما تسبب في بعده عن النبي وفتنته في دينه بسبب أنه عاد إلى أمه ليأخذ منها المال.. الأولى أن ينشغل بكيف كان النبي ﷺ مشغولًا بالدعاء له، وكيف استطاع أن ينقذه مما هو فيه.

فمن الجميل أن ينشغل الإنسان بالنافع والدعاء بدلًا من الانشغال بفضائح الخلق والتنظير عليهم.

هجرة صهيب الرومي وانتظار النبي ﷺ للإذن بالهجرة

(صهيب بن سنان) أو (صهيب الرومي) هو أحد الصحابة الذين عاشوا في مكة أيام سيدنا النبي ﷺ قبل الهجرة، وزاد ماله بشكل كبير، فكان لديه كنوز، وعندما أراد أن يهاجر لم يأخذ كل هذه الكنوز حتى لا يثقل على نفسه حملها، وفكر أن يدفنها ويعود مرات أخرى يأخذ منها، فأمسك به المشركون على أبواب مكة فسألوه إلى أين يذهب، فقال لهم: (**أهاجر حيث أمرنا رسول الله** ﷺ). فقالوا له: لن نتركك، فقال: (**اتركوني أذهب وأدلكم على كنزي**). قالوا: (**إذن.. هو الرأي**). فدلهم على كنزه فتركوه.. تخيل كل ما ادخره في حياته تركه لهم من أجل اللحاق برسول الله والفرار بدينه من بطش الكفار!.. فالغالي يرخص للغالي كما في المثل المشهور.. وركب على الجمل وانطلق إلى المدينة، وبعدما حكى للنبي ﷺ ما حدث معه قال له رسول الله ﷺ:

«**يا أبا يحيى! ربح البيع**»[(98)]

أي: أنك بعت مالك ولكنك كسبت حب الله والنبي ﷺ وآخرتك وروحك وقلبك وعقلك.. اشتريت النور الذي أتى به النبي ﷺ.

ولم يبق في مكة وقتها كما يقول رواة السيرة: (**إلا من حُبس أوفُتن عن دينه أو المشركون**).

وبقي النبي ﷺ وسيدنا أبو بكر الصديق وسيدنا علي بن أبي طالب، وطوال الوقت سيدنا أبو بكر يسأل النبي ﷺ أن يأذن له بالهجرة فيرد عليه النبي ﷺ:

> «**لا تعجل، لعل الله أن يجعل لك صاحبًا**»[(99)]

وكان سيدنا أبو بكر يتمنى أن يكون هو صاحبه، فذهب واشترى راحلتين، و(الراحلة) هي الجمل الذي يستطيع السفر لمسافات طويلة جدًّا، تشبه في وقتنا هذا السيارة (4×4) التي تسير في عرض الصحراء، وبالفعل اشترى الراحلتين وظل يطعمهما ويجهزهما حتى يأتيه الإذن من النبي ﷺ بالهجرة، وسيدنا علي ظل مع النبي ﷺ.

خطة المشركين للتخلص من النبي ﷺ ومن دعوته

وذات يوم اجتمع المشركون بعدما وجدوا أن عدد المسلمين بدأ يقل جدًّا في مكة وأن أكثرهم قد هاجر، وأنه بهجرة سيدنا محمد ومن تبقَّى معه سيكونون كأنهم انتصروا عليهم، فاجتمعوا في (دار الندوة) وجلسوا يفكرون فيما يفعلون مع محمد، وكان من بينهم شيخ من (نجد) يُقال إنه الشيطان تمثل في صورة هذا الشيخ النجدي، وبدأت الأفكار تُطرح؛ فقال أحدهم: (نحبسه في شيء يشبه السجن الحديد حتى يموت). فقال بعضهم: (لا.. ليظهرن أمره من وراء هذا الحديد). فقال أحدهم: (ننفيه إلى بلاد بعيدة لا علينا ما يفعل)، ثم التفتنا فأصلحنا أمرنا، فقال الشيخ النجدي: (أنتم تعلمون ما يقول محمد وكيف يكسب قلوب الرجال، والله لو ذهبتم به إلى أقصى البلاد لآمنوا به ثم جاء بهم ليطأ أعناقكم).. أي سيأتي معه المؤمنون وينتصرون عليكم في مكة، أما أبو جهل فجاءته فكرة، فقال: (ما رأيكم أن نقتله؟).

ولكن في هذه المرة كانت فكرة أبي جهل للقتل مختلفة عما سبق، فقال كلمته المعروفة على المسامع: (**نأخذ من كل قبيلة رجلًا جلدًا قويًّا من أوسط الناس، ونعطي كل واحد منهم سيفًا، ثم يجتمعون عليه فيضربونه ضربة رجل واحد فيُفرق دمه بين القبائل، فلا يستطيع بنو هاشم أن ينتقموا من جميع القبائل**). فقال الشيخ النجدي: (**أحسنت القول**).. الشيطان أُعجب بالفكرة التي طرحها أبو جهل!.. تخيل!

وينزل القرآن بما حدث في هذا المجلس، قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال: 30]

وبالفعل بدأت الفكرة تنتشر بين القبائل المشركة، وبدءوا يختارون أشجع وأقوى رجل من كل قبيلة لينفذوا فكرة أبي جهل ويضربوا النبي ﷺ ضربة رجل واحد، ولكن لا يكون في مُلك الله إلا ما أراد الله، وتذكر:

«واعلَم أنَّ الأمَّةَ لو اجتَمعت علَى أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يَنفعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللهُ لَكَ، ولو اجتَمَعوا على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللهُ عليكَ»(100)

فالله تعالى كتب لرسول الله ﷺ أمرًا غير الذي كان في نية المشركين.

لا تجعل من عقيدتك وقيمك موضع اختيار أبدًا

عندما قال سيدنا محمد ﷺ لسيدنا (صهيب الرومي): **(يا أبا يحيى، ربح البيع)**.. لا بد أن نتوقف عند فكرة البيع والشراء في المعاملة مع رب العالمين.. فالذي يحرك الإنسان في نظام القيم هو علاقته بالأشياء.. فمثلًا الشخص الذي يذهب إلى عمله يوميًّا مبكرًا لديه علاقة بالراحة وعلاقة بالانتظام والجدية والالتزام، فعندما يستيقظ مبكرًا يعلي من علاقته بالانتظام والالتزام والجدية ويخفض علاقته بالراحة؛ لأنه يمكن أن يغلق المنبه وينام وقتًا إضافيًّا ولكنه اختار الأصعب حسب شخصيته الملتزمة.

ومثلًا إذا أقرض شخص صديقه المال حتى ينقذه من أزمة، فهنا هو بين علاقتين (علاقة بقيمة المال وعلاقة بقيمة السند والدعم)، فإذا رفض أن يقرض صديقه مع قدرته يكون هنا قد أعلى قيمة المال وخفَّض قيمة السند، والعكس صحيح.

فسيدنا صهيب بن سنان الرومي عندما رفض المشركون أن يتركوه يهاجر إلى رسول الله إلا بعدما يعطيهم جميع ماله، خفَّض علاقته بالمال والشعور بالأمان المالي والذي يكون سر سعادة الكثير من البشر في هذه الدنيا، وجعل علاقته بربنا وبعقيدته فوق كل شيء، ولكن في حالنا من الممكن أن يتعرض أحدنا لموقف يكون التخيير فيه ما بين أهم شيء في الدنيا والآخرة وهو (العقيدة) وبين (العلاقة بالمال).. ولذلك فمن يخرج زكاة ماله ويتصدق فهذا شخص سوي خفَّض علاقته بالمال ورفع عليها علاقته بالالتزام بدين رب العالمين وبأنوار النبي ﷺ الذي أوصانا بإخراج زكاة أموالنا.

احترس من أفكارك، ولا تكن نصيرًا للشيطان

في قصة اجتماع المشركين.. وهي أنه أحيانًا تخرج من الإنسان أفكار يُعجب بها الشيطان.. ففكرة أبي جهل أن (نضربه ضربة رجل واحد) أُعجب بها الشيخ النجدي الذي يقال عنه في الرواية إنه كان الشيطان المتجسد في هذه الصورة.. ففي آخر سورة من القرآن قال تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِى

﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[الناس:1-6]

نعم هذه استعاذة من شياطين الجن وشياطين الإنس، فيا رب احمنا من شر ناس يستطيعون أن يفكروا في أفكار مؤذية محبطة يتعجب الشيطان من سوئها.

فإذا فعلت معصية فلا تُعلمها لأحد حتى لا تكون في رِكاب الشيطان، فإذا أردت أن تُعلِّم شخصًا شيئًا فعلِّمه الخير، ولا تفكر في أفكار تدمر بها أصحابك أو عائلتك..

«أمسِكْ عليْكَ لسانَكَ»(101)

فأبو جهل من كثرة الإبداع في الشر صرح بفكرة أعجبت الشيطان..فاللهم خُذ بأيدينا ونجنا يا رب العالمين من كل شر.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد صلاة توصلنا إليه، وتجمعنا عليه، وتقربنا لحضرته، وتمتعنا برؤيته، ونحظى بعطفه ونفوز بمناجاته.

اللهم اجعلنا من خواصك وأحبابك، ومن الفائزين بعظيم عطائك، اللهم اجعلنا عندك في محل الصدق، ورقِّنا في مراتب القُرب، فإنك يا مولانا نِعم الإله ونِعم الرب.

---

(94) رواه ابن إسحاق.
(95) رواه أحمد.
(96) رواه الهيثمي.
(97) رواه ابن إسحاق.
(98) رواه الحاكم.
(99) رواه ابن إسحاق.
(100) رواه الترمذي.
(101) رواه الترمذي.

11

قصة هجرة النبي ﷺ

بداية هجرة النبي ﷺ وتفاني أبي بكر

في هذا الفصل نريد أن نعيش معًا أحداث قصة بالتأكيد يعرفها أغلب المسلمين، ولكن نريد أن نعيشها بطريقة مختلفة لنستقي منها أنوار سيدنا النبي ﷺ، فتعرَّف عليها بعقلية المبتدئ (**beginner's mindset**)، بعقلية من يريد أن يعرف لماذا أراد الله أن تقرأ أحداث هذه القصة الآن، فهذه القصة موجودة خالدة في كتب السِّيَر بجميع تفاصيلها، كما نزلت فيها آيات القرآن وقتها، وظلت الآيات تنزل فيها وتحكيها إلى ما بعد ثماني سنوات بعد حدوثها.

فهذه قصة (**هجرة النبي ﷺ مع صديقه أبي بكر الصديق من مكة إلى المدينة**).. فكانت مرحلة انتقالية هامة جدًّا في حياة رسول الله ﷺ بل في حياة الإسلام ودعوة سيدنا محمد ﷺ والنور الذي تركه لنا حتى نضيء به كل جزء مظلم من شخصياتنا ونفوسنا وحياتنا كلها.

ينزل سيدنا جبريل عليه السلام على سيدنا محمد ﷺ ويطلب منه ألا ينام هذه الليلة في فراشه؛ لأن المشركين اتفقوا على موعد قتله في هذه الليلة، فجمعوا من كل قبيلة رجلًا حتى يضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه، فذهب سيدنا محمد ﷺ إلى سيدنا علي بن أبي طالب – ابن عمه – الذي رباه وقال له:

> «**نم على فراشي وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر**»(102)

«تسجَّ» أي تغطَّ، «البُرد» أي العباءة.

فالنبي ﷺ كان له عباءة خضراء عندما ينام يغطي بها نفسه، وطلب من سيدنا أبي بكر الصديق أن يتجهز ولكنه لم يقل له ماذا سيفعلون أو ما هو موعد التحرك، وفي هذه الليلة تجمَّع بالفعل المشركون، من كل قبيلة رجل، وظلوا واقفين أمام بيت النبي ﷺ، وقد خرج النبي ﷺ من بيته أمامهم وقرأ سورة يس.

قال تعالى:

﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾[يس:1-8]

إلى أن جاءت الآية التي عندما قرأها نام جميع الرجال الأشداء الذين كانوا واقفين متجهزين للقتال وهي قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[يس:9]

فبينما هم واقفون ضرب الله عليهم النعاس، فالنوم مخلوق خلقه الله في أجسادهم وقتها حتى إن النبي ﷺ أخذ التراب ووضعه على رءوسهم ولم يشعروا بذلك، وأنا عندما أقرأ هذه القصة أرى أن ما حدث يعتبر جزءًا من دعوة سيدنا النبي ﷺ الذي أراد أن يوضح لهم قدرة رب العالمين عليهم.. فهم لم يناموا فقط، ولكنه خرج أمامهم وقد حماه الله منهم، وكان من ورائهم محيط، وكان ذلك بقدرة رب العالمين.

فلما استفاقوا وضع كل منهم يده على رأسه فوجد التراب، فعرفوا أن هناك شيئًا قد حدث، ففتحوا الباب ودخلوا فوجدوا أن من ينام في الفراش هو سيدنا (علي بن أبي طالب) وليس رسول الله ﷺ فلم يقتلوه؛ لأنهم لم يكونوا يريدونه هو، بل يريدون رسول الله ﷺ، وأيضًا نظرًا لمكانته عندهم بسبب أبيه أبي طالب.

ذهب سيدنا محمد ﷺ ودخل على أبي بكر الصديق وقال له: (**الصُّحْبَةَ يا رَسولَ اللَّهِ**). قالَ:

«**الصُّحْبَةَ**»(103)

السيدة عائشة تقول: (**والله ما رأيت أحدًا يبكي من الفرح مثلما رأيت أبي وهو يبكي**). ويخرج سيدنا النبي ﷺ مع صديقه أبي بكر الصديق والذي قال له: (**يا رسول الله، إذن خُذ راحلة من راحلتيَّ هاتين**). قال ﷺ:

«**قدْ أخَذْتُها بالثَّمَنِ**»(104)

قال: (**بالثمن يا رسول الله**).. ومن هنا يظهر بطل جديد في قصة حياة النبي ﷺ وهي الناقة التي سماها (**القَصْواء**) والتي ستكمل معنا قصصًا كثيرة في رحلة حياة النبي ﷺ سنتعرف عليها في الفصول التالية، وقد تجهز سيدنا أبو بكر للخروج وصحبة النبي ﷺ والتي لم تكن كأي صحبة، فبدأ يوزع الأدوار على أفراد عائلته.

- **عبد الله بن أبي بكر**.. ابنه، وقد طلب منه أبو بكر أن يأتي لهما كل ليلة في (غار ثور) ويخبرهما بالأخبار التي يتداولها المشركون في الصباح.

- **عامر بن فهيرة**.. وهو خادم سيدنا أبي بكر الصديق، وقد طلب منه أبو بكر أن يمشي على آثار أقدامهما ويخفيها بالإبل والأغنام التي يرعاها ثم يأتيهما في كل يوم ليشربا اللبن .

- **السيدة أسماء بنت أبي بكر**.. وكانت وقتها حاملًا في سيدنا عبد الله بن الزبير بن العوام، فطلب منها أبوها أن تأتيهما بالطعام في كل يوم .

وبالفعل تحرك سيدنا النبي ﷺ وصاحبه وسارا مسافة كبيرة جدًّا بين الجبال حتى وصلا إلى تجويف غار ثور، وكان صعوده مرهقًا جدًّا؛ فقد جربت أنا الصعود إليه منذ أكثر من عشر سنوات فكان في غاية الصعوبة.. فتخيل أن النبي ﷺ كان عمره وقتها ثلاثة وخمسين عامًا وسيدنا أبو بكر الصديق أصغر منه بسنتين ونصف السنة فتعبا تعبًا شديدًا، وكان سيدنا أبو بكر الصديق قد اتفق مع (**عبد الله بن أريقط**)

– وكان مشركًا وقتها – أن يكون هو دليلهما في طريق الهجرة من عند غار ثور إلى المدينة حتى يدلهما على طرق لا يراهما فيها أحد من المشركين، وقبل أن يدخلا إلى غار ثور قال سيدنا أبو بكر للنبي: (انتظر يا رسول الله). ودخل هو أولًا يطمئن لعدم وجود عقارب أو أفاعٍ فيه، ولكنه قد وجد بعض الشقوق في الغار، فظل يقطع قماشًا من ثيابه ويسد به هذه الشقوق فغطاها جميعها إلا شقًّا واحدًا نفد ما معه من قماش فلم يغطه، فوضع قدمه على هذا الشق، ونام النبي ﷺ على قدم سيدنا أبي بكر الصديق، فأتى عقرب فلدغ سيدنا أبا بكر في قدمه فلم يتحرك حتى لا يزعج النبي ويوقظه، ولكن من شدة الألم نزلت من عينه دمعة على خد النبي ﷺ فاستيقظ وسأله: «ما لك يا أبا بكر؟». فقص عليه ما حدث وأراه مكان الجرح فتفل النبي ﷺ في يده الشريفة ومسح بها على اللدغة فشُفي وقال:

«اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة»(105)

(أدِّ الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك

لا تجعل مجرد معرفتك بقصة سيدنا علي بن أبي طالب تنسيك قوة المعنى الموجود بها، وهي أن سيدنا محمدًا ﷺ ترك سيدنا علي بن أبي طالب في مكة وهاجر هو من أجل أن يرد الأمانات إلى أصحابها وهناك ثلاث نقاط مهمة في هذا الأمر:

النقطة الأولى:

أن هناك تناقضًا رهيبًا عند من لا يريد الحق وهم (**قريش**)، ولكنهم لم يجدوا من هو أكثر أمانة من الصادق الأمين سيدنا محمد ﷺ، فهم برغم رفضهم دعوته بعبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة الأصنام، أصروا أن يعبدوا هذه الأصنام التي لا تتكلم ولا تأمرهم بالحلال والحرام؛ لأن دعوة الإسلام ستجعلهم يخالفون هواهم ويجاهدون شهواتهم المؤذية، فبالرغم من أن هواهم ليس مع الرسول ﷺ ودعوته فإنهم يعلمون أنه أكثر شخص أمين، فمصلحتهم معه.. فظهر هذا التناقض الرهيب وقت المصالح.

النقطة الثانية:

أن رسول الله ﷺ ترك أكثر شخص ثقة حتى يرد الأمانات ويعيدها إلى أصحابها، فمن الممكن أن يترك أي شخص مشرك منهم أو عبدًا من العبيد الموجودين في مكة، ولكنه لم يفعل ﷺ وترك شخصًا أمينًا يراعي الله تعالى، فهو من تربية النبي ﷺ، ولذلك تأخرت هجرة سيدنا علي بن أبي طالب حتى أعاد جميع الأمانات إلى أصحابها أولًا.

النقطة الثالثة:

شيء مهم جدًّا وهو:

«أدِّ الأمانةَ إلى منِ ائتمنكَ، ولا تخنْ من خانكَ»(106)

فبالرغم من غدر المشركين وأنهم كانوا يريدون قتل النبي ﷺ، فإنه شغل باله برد الأمانات، وهذا هو الفرق بين الكفر وبين نور النبي ﷺ، ونحن كأتباع سيدنا محمد ﷺ لا بد أن تكون هذه أخلاقنا ومبادئنا، فمهما تغير من حولك فكُن كما أنت ولا تسمح لأحد أن يخطف منك مبادئك أو يغير من قيمك.. كُن كما أنت سائرًا في نور النبي ﷺ مهما تغير من حولك.

داخل الغار.. لا تحزن يا صاحبي

وصلنا معًا إلى مشهد ما بعد وصول النبي ﷺ إلى غار ثور والاستتار فيه من كفار قريش، هذا وقد فقد الكفار صوابهم بسبب عدم تحقيق ما تمنوه من قتل النبي ﷺ وتمكُّنه من الخروج من بين أيديهم، فأسرع أبو جهل إلى بيت أبي بكر ظنًّا منه بأنه سيعرف منه الحقيقة وما حدث لصاحبه ولكنه لم يجده، فسأل السيدة أسماء بنت أبي بكر فقال لها: (أين أبوك؟ وأين محمد؟). قالت له: (الله أعلم أين أبي وأين رسول الله). فقام بضربها على وجهها لطمة أسقطت قرطها - حلقها - فلما رأى ذلك وكأنه أحس بعدم رجولته بأن امتدت يده على امرأة، فنظر إليها وانصرف ولم يقل شيئًا، وبدءوا يبحثون عن النبي ﷺ في كل مكان، كما أنهم كتبوا منشورًا بأن من يأتي بمحمد وصاحبه له مائة من الإبل وهذا كان عطاءً كبيرًا جدًّا، وبالفعل بدأ الناس يتجهزون للبحث عن سيدنا محمد ﷺ وصاحبه أبي بكر.

وظلوا يتناقشون ويتبادلون الأفكار حتى هدتهم عقولهم إلى البحث عنه عند غار ثور، ولكن الله هو الحامي الحفيظ، وصعدوا حوالي أكثر من ألف متر حتى وصلوا إلى غار ثور، وكان الغار -كما رأيته- عندما تنظر إليه تجده عبارة عن تجويف والأرض من تحته، وهنا نجد أن قصة الحمامة والعنكبوت هذه قصة ضعيفة من حيث السند، فالأقوى منها من حيث الإسناد هو أن الله سبحانه وتعالى أراد منهم ألا ينظروا إلى الأسفل فاكتفوا بنظرة عابرة إلى الغار من الأعلى، فحفظ الله رسوله الكريم ﷺ وصاحبه أبا بكر الذي كان يقول لسيدنا محمد ﷺ: **(يا رسول الله، وصلوا، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا)**، فقال ﷺ:

> **«ما ظَنُّكَ يا أَبَا بَكْرٍ باثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟!»**(107)

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: 40]

«لا تحزن» أي لا تخف، وكأنه يقول له اطمئن فنحن في معية الله، قال تعالى:

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور: 48]

فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يصل المشركون إليهما كانوا سيرونهما، ولكنه أراد ألا يصلوا إليهما، فالإبصار والنظر الموجود بعيونهم هذا من خلق الله، فأزاله عنهم فلم يروهما، وباتا في الغار ثلاث ليالٍ، وكان:

- عبد الله بن أبي بكر يأتي لهما بالأخبار.

– عامر بن فهيرة يأتيهما بالأغنام ليشربا اللبن ويمشي على آثار الأقدام فيخفيها.

– السيدة أسماء بنت أبي بكر تفك القماشة التي كانت تربط بها وسطها وتقسمها نصفين؛ نصف تربطه في ردائها والنصف الثاني تربط به الطعام، وكانت حاملًا وقتها فسُميت **(ذات النطاقين)**.

استمر هذا الوضع ثلاث ليالٍ، بعدها نزل النبي ﷺ وصاحبه ليبدآ معًا طريق الهجرة بقيادة (عبد الله بن أريقط)، وكان مشركًا ولكنه كان ماهرًا بالطريق، فاستعان به النبي ﷺ.

وفي أثناء طريق النبي ﷺ وبداية خروجه من مكة في طريقه إلى المدينة فعل أمرين:

1. دعا بآية قرآنية فقال:

﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾[الإسراء: 80]

2. نظر إلى مكة وبكى في لحظة كلها مشاعر، وكأنه يقول إنه كان يريد لأهلها كل الخير، ويريد فقط أن يوصل لهم رسالة رب العالمين بمنتهى الرحمة المتسقة مع العقل والإنسانية، ولكنهم رفضوا ذلك، فنظر إلى مكة وقال:

«واللهِ إنَّكِ لخيرُ أرضِ اللهِ، وأحبُّ أرضِ اللهِ إلى اللهِ، ولولا أنِّي أُخرِجتُ منكِ ما خرجتُ»[(108)]

فنزل القرآن على سيدنا محمد ﷺ يقول:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[القصص:85]

وبدأ النبي ﷺ يتحرك في اتجاه المدينة.

حب الوطن.. سُنة من سنن رسول الله ﷺ

لا توجد لفتة في حياة سيدنا رسول الله ﷺ إلا وهي وحي من رب العالمين ونور منه سبحانه وتعالى ..فكون سيدنا محمد ﷺ وهو خارج من مكة يلتفت إليها ويقول لها: أنت أحب البلاد إلى الله وأحب البلاد إليَّ.. فهذا الكلام يعيدنا إلى فكرة **(حب الوطن)** وبأنه من صميم سُنة النبي ﷺ؛لأن هذا الموضوع انقرض عند الكثير من الناس، وهي فكرة أن هناك من يحب بلده ويدعو له، فأصبح من يتكلم في هذا يتهمه الناس بأنه يزايد أو أنه يريد مصلحة لنفسه أو ينافق، ولكن انتبه فهذا من سنة النبي ﷺ ومما أوصى به القرآن أيضًا.

فتذكر سيدنا إبراهيم عندما سكن في وادٍ غير ذي زرع عند بيت الله، فإنه كان يدعو لهذا البلد بهذا الدعاء، فقال:

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[البقرة: 126]

وأيضًا قال:

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[إبراهيم: 35]

فكان يدعو الله للبلد ولرزق أهل البلد ولعقيدة أهل البلد، مثلما فعل النبي ﷺ، وكأنه يتحدث إلى أرض البلد وجدرانها، وسيدنا محمد ﷺ لا يفعل إلا كل ما هو شريف.

فإذا كنت تعيش في بلدك وأنت مكرم فيه وبه رزقك وعملك وفيه أمانك .. فأشركه في دعائك، واقتدِ برسول الله ﷺ وسِر في أنواره، ولا تنسَ أن الإنسان الذي يُصاب في بلده كأنه أصيب في نفسه، فقد قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[النساء: 66]

فادعُ لبلدك أيًّا كان، وادعُ الله أن يمن عليك وعلى بلدك وعلى نفسك وأهل بلدك بالرزق الواسع ..فهذه سنة سيدنا محمد ﷺ في مشهد مهم جدًّا في هجرته الشريفة.

أحداث في طريق الهجرة

في طريق النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق من مكة إلى المدينة حدثت مجموعة من المواقف أريد أن أسردها على حضراتكم.. فكل موقف منها إذا تفكرت في المعنى والحكمة الموجودة من ورائه فسيفيدك في حياتك.

الموقف الأول:

مرور النبي ﷺ على أحد الأعراب الفقراء رعاة الغنم وكانت أغنامه هزيلة جدًّا يرعاها في وسط الصحراء، فبسبب قلة الأمطار والزرع ضعُفت أغنامه .. فنزل النبي ﷺ هو وصاحبه عنده فقال له: والله ما لنا شاة، وإن شاءنا لحوامل، فما بقي لنا لبن. فقال النبي ﷺ:

«**فما تلك الشاة؟**»، فأخذها النبي ﷺ فاحتضنها ومسح على ضرعها فامتلأ باللبن، فحلبها وسقى أبا بكر، ثم سقى الراعي، ثم شرب ﷺ، فقال الراعي: (**من أنت؟ فوالله لا يخفى علي أمرك**). وكأنه يقول إن ما شاهده لم يكن يحدث مع أحد من البشر، قال: (**أنت الذي تزعم قريش أنك صابئ؟**). «الصابئ»: هو الذي غير دينه، فقال النبي ﷺ: «**إنهم ليقولون ذلك**». فقال الرجل: أشهد أن ما جئت به حق. ثم قال: أتبعك؟ قال رسول الله ﷺ: «**لا، حتى تسمع أنَّا قد ظهرنا**»[109]

وكأنه يقول له فقط أسلم الآن، ولكن لأن هذا الوقت صعب، فأنت لا تستطيع تحمُّل الأوضاع الحالية حتى لا يؤذيك أحد، فإذا استقر الوضع وتخطينا الأزمة فالحقْ بنا، فكان ﷺ ناصحًا أمينًا.

الموقف الثاني:

هو موقف «**سُراقة بن مالك**»، فعندما رصدت قريش مائة ناقة لكل من يدل على محمد وصاحبه، كان سراقة في مجلس فقال أحد الرجال: لقد رأيت رجلين يسيران بالجمال. وأشار إلى طريقهما، فاحتال سراقة وقال له إنهما ليسا هما ولكنهما رجلان قد أرسلتهما في مهمة، قال: (**وخبأتها في نفسي**). وظل في مجلسه حوالي ساعة ثم انطلق إلى بيته فأمر جاريته أن تحضر له فرسه، وكأنه كان يعرف أن من رآهما الرجل كانا سيدنا محمدًا ﷺ وصاحبه؛ لأنه لم يرسل أحدًا من الرجال كما ادعى، وبالفعل أخذ فرسه – وكان فارسًا مغوارًا – والكنانة الموجودة بها الأسهم وانطلق مسرعًا، وكان كلما اقترب من سيدنا محمد ﷺ ساخت – غاصت – قدم الفرس برغم مهارته في السير في الصحراء وسط الرمال، ولكن هذا ما كان يحدث معه، قال: (**فأخرجت الأزلام**). و«الأزلام» هي حجارة كان يستخدمها للقرعة مثل الملك والكتابة مثلًا في وقتنا هذا، وكأنه كان يستخير الآلهة يقول: (**فخرجت الأزلام على غيرما أريد**). الأزلام أشارت له بأن رجوعه أفضل، قال: (**فعصيت الأزلام واتبعتهم حتى اقتربت منهم، أسمع محمدًا يقرأ القرآن ولا يلتفت، بينما أبو بكر يلتفت حوله ورسول الله ساكن يقرأ القرآن حتى ساخت قدم الفرس ثانية، فأخرج الأزلام فكانت النتيجة مرة ثانية ارجع ولكنه أكمل الطريق**). ويقول: (**عندما اقتربت منه علمت أنه ممنوع**). أي هناك من يحفظه، فظللت أقع من على فرسي فقلت له: (يا محمد،أعرض عليك الأمان). ثم عرضت عليه بعض الطعام والشراب فقال ﷺ:

> «**لا حاجة لي في طعامك ولا شرابك ولكن عمِّ علينا**»[(110)]

أي: عُد ولا تُخبر أحدًا بأنك رأيتنا، وفي رواية طلب سراقة بن مالك من رسول الله ﷺ أن يكتب له عطاء، أي: مالًا، فطلب النبي ﷺ من عبد الله بن أريقط الدليل أن يكتب له عطاء، وأبلغه أن يأتي ليأخذه بعد أن يصلوا إلى المدينة، وفي بعض الروايات قال له:

> «**كأني بك يا سراقة تلبس سواريْ كسرى**»[(111)]

وكسرى كان وقتها هو ملك الفرس الذي يحكم أكثر من نصف العالم، وكأن سراقة استغرب الحديث، فكيف له أن يصل إلى سواري كسرى ولكنه وافق؛ لأنه يثق في صدق وعد رسول الله ﷺ.

وتذكر بعض قصص السيرة أنه بعد سنوات طويلة حصل المسلمون بالفعل على سواري كسرى في عهد سيدنا عمر بن الخطاب، فأرسل عمر إلى سراقة وقتها وكان قد دخل في الإسلام وكبر في السن، وقال له: (**يوم بر ووفاء**). وأعطاهما إياه.

الموقف الثالث:

قبل وصول النبي ﷺ إلى المدينة مر في طريقه بامرأة مشهورة في قصص السيرة تُسمى بـ«**أم مَعبد**» أو «**أم مِعبد**»، فهذه المرأة الكريمة كانت تزرع الأرض من حولها، وعندما يمر بها الناس كانوا ينزلون عندها فتقدم لهم الطعام والشراب، وكان لها خيمة في هذا المكان، فكانت إنسانة كريمة، فلما رأتهما دعتهما فنزلا عندها فقدمت لهما الماء واعتذرت بسبب عدم وجود طعام لديها؛ لأن أغنامها هزيلة لا لبن فيها.

فدعا النبي بإحدى الشياه الموجودة عندها فمسح على ضرعها فامتلأ الضرع، وشرب النبي ﷺ وشربوا منه، فتعجبت مما رأت وأسلمت على يده، وعندما عاد زوجها ببعض الجمال الهزيلة أخبرته بما رأت وقالت له: **(لقد جاءني رجل وضيء الوجه سهل الخُلُق...)**. وبهذه المناسبة فإن أم معبد تُعد من أكثر الأشخاص الموجودين في سيرة النبي ﷺ والتي وصفت شكل النبي ﷺ من عظيم تعلقها به من بعد هذا اليوم.

وكان سيدنا أبو بكر الصديق وسيدنا عمر بن الخطاب بعد وفاة النبي ﷺ يجلسان معها ويسمعان منها عن النبي ﷺ، ويبكون وهم يتذكرون سيدنا محمدًا ﷺ.

وبعد هذا الموقف أكمل النبي ﷺ طريقه مع صاحبه أبي بكر الصديق متجهين إلى المدينة .

إضاءات في السيرة

يشغل بالي كثير من الناس الذين ذُكروا في السيرة في لقطات معينة ولم نعرف أسماءهم ولكنهم رأوا النبي ﷺ وأسلموا على يده، فأقول: سبحان من اعتنى بهؤلاء العباد الذين لم يعرف أحد حتى أسماءهم، فمثلًا الراعي الذي نزل عنده النبي ﷺ وطلب منه اللبن، فاعتذر له بأن أغنامه هزيلة لا لبن فيها فأتى النبي بواحدة منها فمسح ضرعها فامتلأ ضرعها باللبن فشربوا منه، ورأى أمامه هذه المعجزة فاحترم هذه النعمة وأسلم في لحظتها على يد النبي ﷺ عندما رأى التأييد الرباني والمعجزة من رب العالمين، كل هذا من كرم الله وفضله، وليس هذا فقط مع الراعي، ففضل الله علينا جميعًا في كل جوانب حياتنا، سخر لنا من ينصحنا لنهتدي، وأجرى أرزاقنا على يد العباد بكرمه وليس بنياتنا الطيبة، فنحن ننسى ونغفل وهو يعتني ويُكرم، حتى إن الصالحين عندما يدعو لهم أحد بأن يعطيهم الله على قدر نيتهم الطيبة .. يطلبون تعديل الدعاء بأن يعطيهم الله على قدر كرمه وعطائه؛ لأن كرم الله أفضل وبالتالي من الجميل جدًّا حتى وإن لم تعلم اسم الراعي أن ترى كرم الله وعنايته به في هذا الموقف .

شيء آخر في موقف سراقة بن مالك .. فالله سبحانه وتعالى لو أراد أن يمسك سراقة بالنبي وبسيدنا أبي بكر ويسلمهما إلى قريش فيقتلوهما، أو يدل على مكانهما، لكان فعل ذلك وانتهت القصة إلى هنا، مثلَ أنبياء كثيرين ذكرهم القرآن في قوله تعالى:

﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[المائدة: 70]

وتكون قصة حياة سيدنا رسول الله ﷺ هي فقط الثلاث عشرة سنة التي قضاها في مكة، فقد حدث أن بعض الأنبياء قد قتلوا من أقوامهم، مثل سيدنا يحيى وسيدنا زكريا، فلا تقل أين الله فيما حدث لهم؟ فكانت هذه إرادة الله لهم.

ولكن إذا أراد الله الحماية يُسخر الأكوان كلها .. فالحصان والرمال التي تحركت وغاصت فيها قدم الفرس كلها من الأكوان التي تتبع هيمنة الملك سبحانه وتعالى.

فهو سبحانه مَن أمر البحر بحفظ سيدنا موسى، وأمر الحوت بحفظ سيدنا يونس، وأمر السماء بحفظ سيدنا نوح من سيول الأمطار.. فجميع هذه الظواهر هي من ملك الله .. فالله سبحانه وتعالى حفظهم بملكه، وأنت أيضًا مخلوق في مُلك الله فاطمئن؛ لأنك في مُلك المُهيمن سبحانه وتعالى.

وقبل وصول سيدنا محمد ﷺ إلى المدينة حدث أكثر من موقف

الموقف الأول:

بينما كان النبي ﷺ يسير في طريقه إذ وجد خيمة يقف أمامها رجلان، فسأل الدليل عبد الله بن أريقط قال: يا رسول الله، **(لصان من «أسلم» يقال لهما المهانان، فإن شئت أخذنا عليهما)**. ثم سألهما عن اسميهما فقالا: نحن المهانان. وكأن سُمعتهما جعلت صورتهما أمام الناس وحتى أمام أنفسهما بأنهما المهانان بسبب طريقهما في الإجرام، فقال النبي ﷺ:

> «بل أنتما المكرمان»[(112)]

ودعاهما إلى الإسلام، ورغبهما في حب الله والآخرة، فأسلما وطلب منهما أن يلحقا به في المدينة بعد ذلك.

الموقف الثاني:

بعد أن وصل النبي ﷺ إلى مشارف المدينة - وهذه المعلومة لا يعرفها الكثير من المسلمين -استقبله بعض الأنصار خارج المدينة عند (قُباء) قبل استقبال جميع الأنصار له على مشارف المدينة والذين ظلوا ينتظرون قدومه في كل صباح حتى تصير الشمس حارقة، ثم يذهبون ويأتون ثانية في اليوم التالي .. وفي أحد الأيام رأى أحد اليهود النبي ﷺ وأبا بكر على مشارف المدينة عند قُباء، فقال هذا اليهودي: **(يا بني قيلة)** - أي يا أنصار، فـ(قيلة) كانت المرأة التي أتى منها نسل قبائل الأوس والخزرج - **هذا جدكم الذي تنتظرونه)**. «جدكم»: معناها العظمة التي ليس بعدها مذلة في العزة والشرف، وكأنه يقول لهم لقد أتاكم من تنتظرونه فخرج الناس في استقبال النبي ﷺ.

وفي هذا الموقف كان سيدنا أبو بكر متقدمًا يتكلم مع الناس، بينما كان النبي ﷺ يقرأ القرآن خلفه، فظن بعض الناس أنه هو النبي، فعندما لاحظ أبو بكر هذا خلع رادءه وظلل على رسول الله ﷺ فعلم حينها الناس من هو رسول الله ﷺ واستقبلوه بالفرحة.

الموقف الثالث:

تحكي السيدة صفية بنت حُيي بن أخطب، فأبوها حيي بن أخطب هو سيد يهود المدينة، فتقول: (ذات يوم وأنا في المدينة دخل عليَّ(أبي حُيي وعمي ياسر) وهما ثابطان كسلانان، فسمعت أبي يحدث أخاه فيقول: **(أهو هو؟)** من عند قُباء. قال ياسر: **(نعم.. هو هو)**. فصفات النبي ﷺ مكتوبة عندهم في

التوراة، قال: (**وماذا تنوي؟**). قال: (**عداوته ما بقيت**). وكأنه يقول نعم، إنه النبي ولكني لن أتبعه ولن أتركه بأمان ما دام لم يخرج منا نحن اليهود.

الموقف الرابع:

يجلس النبي ﷺ قبل دخول المدينة، فيطلب منه سيدنا عمار بن ياسر أن يبنوا مكانًا لهم قبل دخول المدينة، فبدأ سيدنا عمار بالبناء وساعده النبي ﷺ في البناء فبنوا المسجد.. وهو مسجد (قباء) الذي كان النبي ﷺ يذهب ليصلي فيه كل يوم سبت ويقول:

«**من تطَهَّرَ في بيتِهِ، ثمَّ أتى مسجدَ قباءٍ، فصلَّى فيهِ صلاةً، كانَ لَهُ كأجرِ عمرةٍ**»[113]

فيسمونها «عمرة المدينة»، وهذا المسجد هو الذي نزل فيه القرآن، قال تعالى:

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[التوبة: 108]

فهو أول مسجد بني في الإسلام على يد النبي ﷺ وسيدنا عمار بن ياسر.

ويمكث سيدنا محمد ﷺ بعض الأيام هناك ويفرح به الأنصار ويتجهز لدخول المدينة حتى نسمع (طلع البدر علينا...).

تجهَّز دائمًا لاستقبال علوم من رب العالمين

«حُيي بن أخطب» يقول لياسر: (أهو هو؟). فرد عليه بأن: (نعم.. هو هو). فصفاته مثل التي توجد في التوراة تمامًا.. فسأله عما سيفعل معه بعدما علم أنه على حق، فقال له بأنه سيعاديه، ومعرفته أن الحق معه وأنه على الصواب لم تثنه عن موقفه تجاهه .. فهو يتصرف بعقل منغلق.. فقد ذهب إلى النبي ليتأكد من المعلومه وبأنه رسول الله ولكن هذا لم يغير تفكيره الموجود في عقله مسبقًا .. فعندما سأله: (وماذا ستفعل معه؟). قال: (عداوته ما بقيت).

أساتذتنا كانوا يعلموننا أن نعيش في الدنيا بعقلية المبتدئ... ومعناها أنك حتى وإن كنت قد تعلمت كثيرًا في حياتك وعمرك عشرون أو ثلاثون أو حتى سبعون سنة، فبالتأكيد لديك رحلة في الحياة تعلمت فيها، ولكن عليك أن تعيش أيضًا بعقلية المبتدئ؛ أي تعلم أنك ما زال أمامك الكثير لتتعلمه والذي سيجعله الله في طريقك، وأنك ما دمت تعيش وتتنفس فلا بد أن تتعلم ..فعلوم الله مثل أموال وأرزاق الله لنا ..دائمة ما دمت حيًّا، فالله سبحانه وتعالى يمنحك دائمًا فضله، ويلقي في طريقك من علمه لتتعلمه وتنتفع به في رحلة حياتك .. قال تعالى:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾[البقرة:255]

فإذا شاء الله أن تتعلم شيئًا فستأتي إليك المعلومة، فلا تغفل قلبك وعينك عنها، ولذلك قال رب العالمين في القرآن:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: 37]

فقد منحك الله السمع لتستمع إلى علمه؛ لأنه مهما تعلمت فاعلم أنه

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: 85]

والكلام هنا لجميع البشر دون اختصاص أحد.

فعندما تعيش بعقلية المبتدئ (**beginner's mindset**)، فإن كثيرًا من الأخطاء التي وقعت فيها يمكن أن تتغير ببركة هذه العقلية، أما من يعيش دائمًا بعقلية من يفهم كل شيء، وإذا ناقشه أحد في حديثه وأشار إلى وجهة نظر مختلفة، يتهمه بأنه أخطأ في حقه؛ فهذا الشخص متصور أن هويته وأصله موجودان في معلوماته .. فلا بد أن تعرف أن شخصك شيء ومعلوماتك شيء آخر، فمن الممكن أن تكون مخطئًا.

فعندما يمن عليك رب العالمين ويكرمك بتغيير هذه المعلومات الخاطئة استمع وكن مثل من أثنى الله عليهم بقوله:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 18]

«يستمعون» أي يسمعون بتركيز وليس مجرد سمع عابر، أما من كان عقله مُغلقًا ولا يريد أن يسمع الحق حتى وإن كان النبي ﷺ أمامه فسيظل رافضًا؛ لأنه يعيش بالعقل المغلق .. فلا تعش بهذه العقلية مثل ياسر وحبي بن أخطب؛ لأن صاحب هذه العقلية هواه هو من يسوقه

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[البقرة: 88]

أما عقلية الصحابة فكانت عقلية متفتحة تطلب دائمًا من رسول الله ﷺ أن يعلمهم ليستقوا من أنواره وقلوبهم حاضرة بين يديه.

اللهم صلِّ على الذات المحمدية اللطيفة الأحادية، شمس سماء الأسرار ومظهر الأنوار ومركز مدار الجلال وقطب فلك الجمال، اللهم بسره لديك وسره إليك أمِّن خوفنا، وأقل عثراتنا، وأذهب عنا حزننا وحرصنا، وكن لنا، وخذنا إليك منا، وارزقنا الفناء عنا، ولا تجعلنا مفتونين بأنفسنا محجوبين بحسنا، واكشف لنا عن كل سر مكتوم يا حي يا قيوم.

---

(102) ورد في الأثر.

(103) رواه البخاري.

(104) رواه البخاري.
(105) رواه أبو نعيم.
(106) رواه أبو داود.
(107) متَّفقٌ عليه.
(108) رواه الترمذي.
(109) رواه البزار.
(110) ورد في الأثر.
(111) رواه البخاري.
(112) رواه أحمد.
(113) رواه ابن ماجه.

12

استقبال الأنصار للنبي ﷺ في المدينة

طلع البدر علينا

مستمرون في رحلة حياة سيدنا محمد ﷺ، ونستعرض معًا في هذا الفصل فترة ما بعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة، وبناءه مسجد قُباء هو وسيدنا عمار بن ياسر ومن معه من الأنصار، بعدها تحرك سيدنا محمد ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق لدخول المدينة المنورة والتي كان أهلها من الأنصار يخرجون كل يوم؛ الكبير والصغير، الشاب والفتاة، المرأة والرجل، وحتى اليهود كانوا يخرجون كل يوم ينتظرون قدوم النبي ﷺ حتى يشاهدوا قدومه ويقارنوا صفاته بما هو مكتوب عندهم في التوراة.

وفي أحد الأيام المباركة وبينما يسير النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر وهما آتيان من بعيد لدخول المدينة إذا بهما يسمعان .. **(الله أكبر جاء محمد.. الله أكبر جاء رسول الله)**، وإذا بجواري بني النجار يُنشدن الأناشيد في استقبال النبي ﷺ ويقلن: **(نحن جواري بني النجار.. يا حبذا محمد من جار)**.. أي يا سعادتنا بجوار

سيدنا النبي ﷺ، وكأنهن يردن أن يتسابقن ويخرجن أفكارًا إبداعية تدخل الفرحة على قلب رسول الله ﷺ فيأتي النشيد الأشهر.. **(طلع البدر علينا)**.. أي جاءنا البدر القمر المنير.

فـ«البدر» هو الذي كان يضيء الصحراء قديمًا، فلم تكن هناك الإنارة المعروفة في وقتنا هذا، أو أي وسيلة لإضاءة طرق الصحراء إلا القمر، فكانت الرؤية صعبة جدًّا في حال عدم اكتمال القمر بدرًا ،**(من ثنيات الوداع)**.. المقصود مدخل المدينة المنورة، **(وجب الشكر علينا، ما دعا لله داع)** .. أي وجب علينا أن نشكر الله تعالى أن أكرمنا بوجودك بيننا، **(أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المُطاع)**.. أي ما أتيت به مطاع لا نناقشك فيه، **(جئت شرفت المدينة مرحبًا يا خير داع)**.. أي أنك يا رسول الله جئت فشرفت كل شخص منا وشرفت قلوبنا، وكأنهم يعدون النبي بالدعم والسند لدعوته وطاعته فيما جاء به .

فتخيل فرحة النبي ﷺ باحتفاء وترحيب الناس به عند قدومه إلى المدينة، وأنه سيسير بأمان، فلن يؤذيه أحد بإلقاء التراب عليه، وعند صلاته لن يطأه أحد بقدمه مثلما فعل به المشركون من قبل، ولن يوجد في المدينة من يؤذي أصحابه ويسحلهم بالأحصنة وهم عُراة الظهور في الرمضاء «الصحراء» المُحرقة، وسينامون ويقومون في أمان، ويسمعون الأذان ويصلون في المسجد دون التعرض لأذى .

فما أجمل الاستقبال وجبر الخاطر من الله لحبيبه ﷺ!

ويصل النبي ﷺ إلى المدينة وتتسابق البيوت لاستضافته وهو راكب على ناقته فيقول لهم ﷺ:

> **«دعوها فإنها مأمورة»**[(114)]

وكلما مر على بيت قالوا له: **(تفضل عندنا يا رسول الله)**. فيردد: **«دعوها فإنها مأمورة»**.. الكل يتسابق لاستقباله بعدما كان الجميع في مكة منذ أيام قليلة جدًّا يريدون قتله، لكن «دوام الحال من المُحال»، فالأحوال الصعبة تنتهي مهما طالت، فلا يوجد شيء مستمر؛ لأنه لا باقي إلا وجه الله تعالى، فلا شخص ولا حدث يستمر للأبد.

وظل النبي ﷺ يسير على راحلته بين بيوت الأنصار إلى أن وصل إلى **«ديار بني النجار»** فبركت الناقة بوحي من رب العالين – سبحانه وتعالى – فقال النبي ﷺ:

> **«أيُّ بُيُوتِ أهْلِنا أقْرَبُ؟»**[(115)]

قالوا له: **(إنه بيت أبي أيوب الأنصاري)**.. ويسرع أبو أيوب ليحمل متاع رسول الله ﷺ ويدخل به إلى بيته وهو في أشد الفرح ليبدأ استقبال النبي ﷺ لمدة شهر حتى بناء المسجد النبوي.

وهنا يلتفت النبي ﷺ للناس ويقول:

> **«يا أيُّها النَّاسُ، أفشوا السَّلامَ، وأطعِموا الطَّعامَ، وصِلوا الأرحامَ، وصلُّوا باللَّيلِ والنَّاسُ نيامٌ، تدخلوا الجنَّةَ بسَلامٍ»**[(116)]

ويدخل النبي ﷺ بعدها إلى بيت أبي أيوب الأنصاري.

جبر الخاطر من الله لنبيه ﷺ بعد السنوات الصعاب

المسافة ما بين مكة والمدينة حوالي 480 كم تقريبًا، أي تستغرق من ثمانية إلى عشرة أيام، فتخيل أنه من حوالي ثمانية أيام فقط كان الكفار مجتمعين حول منزل النبي ﷺ بالسيوف ليضربه الرجال الأقوياء ضربة رجل واحد.. حاشاه ﷺ أن يحدث له ذلك لحفظ الله له، ولكن إذا حدث هذا الموقف مع أي شخص آخر كان سيُقطع جسده، ولكن بمجرد وصوله إلى المدينة انظر كم وجد من حفاوة الاستقبال! والجميع يقول: (طلع البدر علينا). أي وصل القمر الذي سينير حياتنا مثلما ينير القمر الصحراء والذي لولا وجوده لاستحالت الرؤية كما قال تعالى:

﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[النور: 40]

فأنا وأنت أيها القارئ في نعمة كبيرة جدًّا، ومن كرم الله علينا أن جعلنا من أتباع النبي ﷺ ومن أمته.

قال تعالى:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾[البقرة: 151]

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾[الحجرات: 7]

فهو ﷺ موجود في قلبك حتى وإن لم تعش معه في زمنه ولم تكن أحد صحابته الكرام، فهو يعيش في قلبك.

فكان هذا الاستقبال بمثابة جبر خاطر لسيدنا النبي ﷺ، فمن يرى النبي ﷺ يعرف أنه يحتاج إلى أن يشكر الله كثيرًا أن عرَّفه الله إلى النبي ﷺ وجعله من أمته؛ ولذلك فمن أولويات حياتك أن تبحث دائمًا عن النبي ﷺ في حياتك، فتبحث عن الأدب والجمال واللُّطف والرحمة والإتقان، وعن جميع الصفات الموجودة في قصة حياة سيدنا النبي ﷺ، فتأمل فيها بقلبك بنيَّة الاتباع والسير في أنواره ﷺ.

حُب أبي أيوب للنبي ﷺ

أبو أيوب الأنصاري اسمه (خالد بن زيد)، «أبو أيوب» كُنيته، عندما دخل النبي ﷺ بيته طلب منه أبو أيوب أن يسكن هو في الطابق العُلوي من المنزل؛ لأنه لا يستطيع أن يمشي على أرض تحتها رأس رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: **«لا يا أبا أيوب.. السُّفْل أرفق بنا، يغشانا أصحابنا»**.. أي سأكون أفضل في الدور الأسفل؛ لأن أصحابي سيأتونني دومًا، فلا يصح أن يمروا على البيت في كل مرة حتى يصعدوا إليَّ في الأعلى، وبالفعل ظل النبي ﷺ في الطابق الأول وأبو أيوب وزوجته وأولاده في الطابق الأعلى، ولكن ظل أبو أيوب يؤنب نفسه فيقول: **(أأسير على أرض تحتها رأس رسول الله؟)**. فيقول: **(اجتمعت أنا وزوجتي في ركن من البيت)**، أي ظلا مجتمعين في ركن واحد بعيد عن موضع رسول الله

ﷺ حتى لا يزعجاه، ويقول إنه: (**انكسر حُب لنا «زير»نشرب منه الماء فجففته بلحافي، ووالله لا أملك إلا هو أنا وزوجتي حتى لا تسقط قطرة ماء على رسول الله** ﷺ).. قصص حُب كبيرة، والسيرة مملوءة بمثل هذه القصص التي سنعرضها طوال رحلتنا.

ويقول أبو أيوب: (كنت أبعث للنبي ﷺ بالطعام في كل يوم، وعندما يصعد إلينا الطعام كنا نتلمس موضع يد رسول الله ﷺ فنتبرَّك به) .. أي كنا نبحث أنا وزوجتي من أين أكل النبي من الطبق أو الإناء فنأكل من هذا الجانب تبرُّكًا به وذات يوم بعثت إلى رسول الله ﷺ بأصناف من الطعام، فعندما صعد الطعام وجدت أنه قد أكل من جميع الأنواع إلا من «البصل»، فتعجبت من ذلك وسألت النبي ﷺ فقلت له: (**يا رسول الله، أراك لم تأكل من هذه الشجرة «البصل»**). فقال النبي ﷺ:

«كُلْ؛ فإنِّي أُنَاجِي مَن لا تُنَاجِي»[117] «فإنَّ الملائكةَ تتأذَّى مما يتأذَّى منه بنو آدمَ»[118]

أي أن النبي ﷺ لم يأكل من البصل النيء؛ لأنه يبعث رائحة وهو يتحدث مع الملائكة، ولكن أكله ليس بالحرام.. ففهم سيدنا أبو أيوب الأنصاري السبب، وظل النبي ﷺ شهرًا في بيت أبي أيوب الأنصاري.

إسلام عبد الله بن سَلَام اليهودي

ننتقل في قصتنا إلى أحد اليهود وكان يُسمى (عبد الله بن سلام) والذي كان يخرج في كل يوم مع الأنصار ليشاهد وينتظر قدوم النبي ﷺ ويقارن صفته وخلقته وزمنه الذي بُعث فيه بما هو مكتوب عنده في التوراة، فكان يقف فوق نخلة وكانت خالته تقف تحتها، فعندما رأى النبي ﷺ وهو قادم من بعيد هلل وقال: (**الله أكبر.. الله أكبر**). فخالته قالت له: (بئس ما قُلت). قال: (**يا خالة، والله لو رأيت موسى ما زدت عما قلت .. إنه أخو موسى يا خالة**). ويحكي سيدنا عبد الله بن سلام فيقول: (**فلما رأيته علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب.. ولكنه وجه صادق أمين**).. وذهب إلى النبي ﷺ وبايعه وأسلم معه وقال له: (**يا رسول الله، ألا أخبرك أن اليهود قوم بُهت** «يخفون الحقائق»؟). وطلب ابن سلَام أن يثبت للنبي ﷺ تلك الحقيقة، فذهب بالنبي ﷺ إلى أحد البيوت وتخفَّى وقال للنبي ﷺ: اسألهم عني. وبالفعل قال النبي ﷺ:

«أيُّ رَجُلٍ عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ فِيكُمْ؟»[119]

قالوا: (**هذا سيدنا وابن سيدنا وحَبرنا وابن حَبرنا**). أي أنه عالم كبير فينا، وهنا ظهر سيدنا عبدالله بن سلام من مكان مخبئه وقال لهم: (**أيها اليهود، إنكم قوم بُهت تعلمون أنه رسول الله كما هو عندنا في التوراة، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله**).

فقالوا: (**أنت شرُّنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا**). ووقعوا فيه بالشر، فقال: (**يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بُهت؟!**).

مواقف من نور

الموقف الأول:

رحمة ولُطف كبير من الله - سبحانه وتعالى- أن يقول لسيدنا محمد ﷺ ويوحي إليه بأن يترك ناقته تسير وأنه سبحانه هو من يختار المكان الذي ستبرك فيه إلى أن اختار له منزل أبي أيوب الأنصاري؛ وذلك حتى لا يشعر أحد بأنه تميز عن غيره في استقبال النبي ﷺ في منزله باختيار النبي، ولكن ما حدث كان اختيار الله، ولو أراد الله أن يختار النبيُّ لجعله يفعل ذلك، ولكنه اختياره هو سبحانه وتعالى حتى يكون درسًا عمليًّا للجميع وفي بداية عهد جديد بالمدينة، وأن يكون التعامل بالعدل والرحمة والتفويض لأقدار الله تعالى.

الموقف الثاني:

لا تتعجب مما فعله أبو أيوب الأنصاري من عدم مقدرته على أن يسير على أرض تحتها رأس رسول الله ﷺ فهذا هو الحُب، والحب ليس له قانون.. والمحبون لهم طريقتهم، فإذا عرفت أُناسًا أفاضل في حياتك اشتد حبك لهم؛ سواء حب الرجل لزوجته، أو الزوجة لزوجها، أو حب الأصحاب أو الأقارب، أو حبك لمعلميك ولأبيك وأمك .. المحب الصادق يفعل أفعالًا بدافع الحب، لا تستغرب أو تلُمْه على ما يفعل من أجله بدافع الحب، وهذا ما جعل أبا أيوب عندما انكسر الزير لا يفكر وأسرع إلى لحافه الوحيد وأخذه وجفف المياه حتى لا تسقط قطرة منها فتؤذي رسول الله ﷺ، فالتضحية بدافع الحب ليس لها قانون، بالذات لو كانت في سبيل الله ورسوله الكريم، وكانوا يتلمَّسون مواضع أصابع رسول الله في الطعام حتى يأكلوا من المكان نفسه.

وبالمناسبة فالحب معنى تذوقي، من يذقه يفعل أكثر من ذلك .

الموقف الثالث:

عبد الله بن سلام أول ما رأى النبي ﷺ قال: (**فعلمت أن وجهه ليس بوجه كذاب**). فأسلم، على عكس ما قاله حُيي بن أخطب وياسر عندما تأكدا أنه هو النبي، قال حُيي: (نويت عداوته ما بقيت). فهناك فارق كبير ما بين الصادق الباحث عن الحق، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾[يس: 11]

وبين المتبع هواه الرافض للحق إذا جاء على خلاف ما يريد، وكأن الله تعالى يخبرنا بأن الهداية تأتي للشخص الذي يبحث عنها، وليس للشخص الذي تكون (الأنا) لديه عالية، وكأنه يعرض أمر الله على هواه ثم ينظر هل تعجبه أفعال الله أم لا.

ولكن الشخص الذي يفتح قلبه فإنه يدعو الله دائمًا أن يفهمه الحكمة من أفعاله، ولديه يقين بأن أفعال الله كلها خير، فهناك فارق كبير بين عبد الله بن سلام المتبع

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[طه: 123]

وبين حُيي بن أخطب وياسر اللذين ذهبا لرؤية النبي وهما آخذان القرار ومقيمان السدود بينهما وبين اتباع الحق.

أول حدث بناء المسجد

من أوائل الأشياء التي قام بها النبي ﷺ أنه أول ما وصل إلى المدينة وبركت الناقة في المكان الذي أُمرت به ونزل عند أبي أيوب الأنصاري، سأل عن الأرض التي بركت عندها الناقة فأراد أن يبني المسجد النبوي بها، قالوا: هي ليتيمين اسمهما (سهل وسُهيل) وكان يربيهما سيدنا أسعد بن زرارة؛ أول من خطب الجمعة مع سيدنا مصعب بن عمير.

فأتى اليتيمان وقال لهما النبي ﷺ:

«يا بَنِي النَّجَّارِ، ثَامِنُونِي بحَائِطِكُمْ هذا»(120)

أي قولا لي كم تطلبان فيه من المال وسأشتريه منكما، قالا: **(لا يا رسول الله، خُذه هبة نطلب الثمن من الله)**. فرفض النبي ﷺ وكأنه يفكر في مصلحة اليتيمين أكثر مما يفكران هما، وحتى يُعلم الناس من حوله كيف يفكرون في مصلحة الأيتام، فاشتراه منهما بعشرة دنانير ذهبية دفعها لهما سيدنا أبو بكر الصديق الذي هاجر مع النبي ﷺ بجميع ماله .

فمن يصلي الآن في المسجد النبوي يتذكر أن من دفع مال بنائه هو الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

وبدأ النبي ﷺ يشترك مع الصحابة في بناء المسجد النبوي، وفي وسط البناء يأتي أحد الصحابة من اليمامة فيطلب منهم أن يحمل معهم الطوب ولكن النبي ﷺ يقول له:

«إنكم يا أهل اليمامة أحذق شيء بأخلاط الطين، فاخلط لنا الطين»(121)

أي أن بلدتكم مشهورة بالمهارة في صناعة الطوب تعرف المقادير المطلوبة حتى يصبح قويًّا ويتحمل، فأوكل له النبي ﷺ هذه المهمة، وكأنه ﷺ يوزع المهام حسب تخصص كل شخص.

وبدأ الصحابة في قطع النخل لاستخدام الجريد في عمل سقف المسجد، وسيدنا النبي ﷺ كان أول من عمل معهم حتى يشجعهم على البناء والإنجاز، حتى إن الأنصار عندما رأوا ذلك قالوا: **(لئن قعدنا والنبي يحمل فذاك فينا العمل المُضلل)**. أي أنه لا يصح أن نجلس والنبي ﷺ يعمل بنفسه، وبدأ الجميع ينزل ويتشارك في البناء، وبدأ الأنصار يقولون: **(اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة)**.. يرتجزون. و«الارتجاز» يشبه الإنشاد والغناء تسلية لنفوسهم في وسط العمل الشاق، وكان سيدنا النبي ﷺ يردد معهم ولكن يكسر في الشعر، فكان يقول:

«اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ، فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ والأنْصَارِ»(122)

وليس كما يقولون: (فارحم الأنصار والمهاجرة) .. لماذا؟

لأن الله تعالى يقول في القرآن:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾[يس: 69]

فكسْر وزن الشعر كان بوحي من الله ألا يقول ﷺ الشعر، ليس لأن الشعر حرام، ولكن لأن ما يقوله النبي ﷺ يكون إما القرآن وإما الحديث النبوي.

وفي وسط بناء المسجد كان كل صحابي يسير وهو يحمل حجرًا وسيدنا عمار بن ياسر يحمل حجرين على كتفه وكان وزنهما ثقيلًا جدًّا، فمر به النبي ﷺ وقال له: **«ويحك يا بن سُمية تقتلك الفئة الظالمة»**، أي أنك ستموت شهيدًا، ومن يقتلك سيكون في الفريق الظالم وأنت مظلوم معك الحق.. معلومة قالها سيدنا النبي ﷺ استفاد منها الصحابة بعد مرور سنوات طويلة بعد أن استشهد سيدنا عمار بن ياسر في معركة بين فئتين وقتلته الفئة الظالمة.

وينتهي بناء المسجد النبوي الذي كانت تبلغ مساحته حينها ما يقرب من ألف متر، وعندما تذهب إلى المسجد النبوي الآن تجد أن هناك أحد الأعمدة القريبة من الروضة الشريفة مكتوبًا عليه..**(حد مسجد رسول الله ﷺ)**، أحد الأعمدة التي يغلب عليها اللون البني تشير إلى حدود مساحة المسجد التي كانت موجودة أيام النبي ﷺ.

فالمسجد النبوي الصلاة فيه بألف صلاة كما قال النبي ﷺ:

«صلاةٌ في مسجِدِي هذا أفضلُ من ألْفِ صلاةٍ فِيما سِواهُ»(123)

فعندما تذهب إلى المسجد النبوي تشعر بروح الصحابة وتشعر ببركات وأنوار لا تشبه أي مكان في الكون، بالطبع ببركة أن سيدنا النبي ﷺ مدفون فيه، وببركة كل نقطة عرق نزلت من أشرف الأجيال جيل الصحابة والنبي النور معهم.

دور المسجد في بناء الأمة

أن يقوم النبي ﷺ ببناء المسجد كأول شيء يفعله بعد دخوله المدينة.. فهذا ينير لك جزءًا هامًّا في حياتك وتعرف منه أن المسجد هو مركز المدينة التي يعيشون فيها؛ ولذلك لا بد من أن يكون المسجد لك أيضًا هو مركز حياتك، فالمسجد هو الذي تكون فيه كل خطوة تخطوها إليه ترفعك درجة في الجنة وتحط عنك خطيئة، والصلاة فيه بسبع وعشرين ضعف صلاتك بمفردك، وإذا كان به مقرأة أو مجلس ذكر يقول ﷺ:

(خَيْرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ)(124)

ويقول ﷺ:

«وَما اجْتَمع قَوْمٌ في بَيْتٍ مِن بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتَابَ الله، وَيَتَدَارَسُونَهُ بيْنَهُمْ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عليهم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَن عِنْدَهُ»(125)

فمن المهم أن تكون علاقتك بالمسجد قوية مثلما فعل النبي ﷺ مع أصحابه ونور لهم طريقهم وحياتهم، فكانت خطته أن أول ما يُبنى عند بناء وتأسيس البلد هو «المسجد»، وأنت عند بنائك لنفسك اجعل من أهم أولوياتك هو «علاقتك ببيت رب العالمين».

المعنى الحقيقي للخشوع

هل لاحظت الحال المسيطر على الصحابة أثناء البناء، وهم يبنون بجدية ونشاط؟ وكان النبي ﷺ يقوم بأصعب مهمة وهي حمل التراب ووضع الطوب، ولم تكن هذه بالمهمة السهلة؛ فقد أدى ذلك العمل إلى تغيُّر لون جلد النبي ﷺ إلى لون التراب الذي يحمله، وكل الصحابة يعملون باجتهاد؛ منهم من يحمل لبنة، ومنهم من يستطيع أن يحمل أكثر فيحمل، وهم ينشدون الأناشيد ويتغنون بها بصوت عذب، فليس كل شيء في الحياة يتطلب «الشجن»، فالخشوع غالبًا ما يكون في صورة بكاء وجسم مقشعر، وأحيانًا أخرى يكون في صورة نشيد جميل نذكر فيه الله تعالى ونذكر فيه سيدنا النبي ﷺ ونذكر فيه فضل الله علينا وكرمه، وأحيانًا أخرى يكون الخشوع في هيئة طالب يذاكر إحدى المواد الصعبة عليه، ويكون وقتها في قمة الحضور مع الله؛ لأنه يريد أن ينجح ويكسب من جده واجتهاده رزقًا حلالًا ولا تمتد يده إلى الحرام، فإذا لاحظت حال الصحابة وهم ينشدون الأناشيد والأغاني أثناء البناء تعرف أن أبواب الخير والمعروف كثيرة، فما دام قلبك مع الله فأنت خاشع.

بداية الأذان

وهنا أتى موقف في غاية الأهمية وهو أنه بعد اكتمال بناء المسجد النبوي ظل النبي ﷺ يفكر مع أصحابه في الطريقة التي يدعون الناس بها إلى الصلاة؛ فبعضهم اقترح أن يدعو الناس إلى الصلاة بالبوق – مثل الصفارة الكبيرة – مثل بوق اليهود في المدينة، فلم يسترح النبي ﷺ لهذا الاقتراح، وأحدهم قال نضرب بجرس وقت الصلاة فيسمعه الناس ويأتون للصلاة، فلم يوافق النبي ﷺ على هذا الاقتراح أيضًا، وانصرف الناس ولم يكن قد نزل وقتها وحي بالطريقة التي يتم بها دعوة الناس للصلاة في المسجد، فنام الصحابة في هذه الليلة وإذا بـ(عبد الله بن زيد) يأتي للنبي ﷺ في صباح اليوم التالي ويقول له إنه عندما نام رأى رؤيا لشخص يقول: **(الله أكبر الله أكبر.. الله أكبر الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن محمدًا رسول الله .. أشهد أن محمدًا رسول الله ... إلى آخر الأذان)**، فقال له النبي ﷺ بأنه سيكون الأذان كذلك، وبينما هم جالسون إذا بسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأتي ويقص على النبي ﷺ رؤياه التي رآها والتي كانت مثل رؤيا صاحبه تمامًا بصيغة الأذان. وسيدنا النبي ﷺ يقول:

«الرؤيا الصالحةُ من الله»(126)

فأراد الله تعالى أن تكون معلومة الأذان عن طريق الصحابة، وقد أقرَّها النبي ﷺ. وهنا معلومة هامة جدًّا للجميع وهي أن السُّنَّة ثلاثة أنواع:

- سُنَّة **قولية** .. وهي أن يقول النبي ﷺ كلامًا معينًا مثل أن يقول:

> «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ»(127)

- سُنة **فعلية** .. وهي مثل أن من سُنة النبي ﷺ أنه كان يشرب وهو جالس؛ فنقتدي به.

- سُنة **تقريرية**.. وهي أن يقوم أحد الصحابة بعمل معين فيقره النبي ﷺ ويوافق عليه؛ لأنه على مراد الله مثلما حدث في موضوع الأذان.

ولكن عندما رأى سيدنا (عبد الله بن زيد) رؤيا الأذان قال له النبي ﷺ:

> «إِنَّ هذِه لرؤيا حقٍّ، فقم معَ بلالٍ فإِنَّهُ أندى وأمدُّ صوتًا منكَ»(128)

أي اجعل بلالًا هو من يؤذن؛ لأن صوته أعذب، وكان في المدينة اثنان من المؤذنين وهما: (سيدنا بلال بن رباح، وسيدنا عبد الله بن أم مكتوم وكان كفيفًا وكان يؤذن مع سيدنا بلال وقت الفجر، وكان بلال يؤذن الأذان الأول.

فعندما تذهب إلى مكة أو المدينة تسمع أذانًا قبل وقت الفجر وكأنه يحث الناس على الصلاة ويوقظهم، وأذانًا ثانيًا وقت الصلاة نفسها وهو الذي نمتنع فيه عن الطعام والشراب وقت الصيام، وهذا ما كان يؤذن به سيدنا عبد الله بن أم مكتوم.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

وبعد خطوة بناء المسجد قام النبي ﷺ بخطوة كبيرة مشهورة ألا وهي (المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار)، فماذا تعني المؤاخاة؟ معناها أن يكون كل اثنين منهم مسئولَين عن بعضهما ويأخذا بأيدي بعضهما في الدنيا وفي طريقهما لرب العالمين، فالأنصار مستقرون ولكن المهاجرين تقريبًا جميعهم تركوا كل شيء يملكونه في مكة وأتوا على فيض الكريم سبحانه وتعالى، فآخى النبي ﷺ بين كل مهاجري وأنصاري.

قصة كرم سعد بن الربيع

أشهر قصة مؤاخاة كانت بين (سيدنا عبد الرحمن بن عوف) المهاجري، وكان غنيًّا جدًّا ولكنه ترك جميع ما يملك في مكة ورحل مع سيدنا رسول الله ﷺ، وبين (سعد بن الربيع) والذي قال لعبد الرحمن: **(يا أخي، إني من أكثر الأنصار مالًا، فانظر إلى مالي أقسمه شطرين وأعطيك الشطر، وإلى داري أقسمها**

نصفين وأعطيك النصف، وانظر إلى إحدى زوجاتي فمن أعجبتك نزلت عنها فإذا حلَّت تزوجتها). وسأوضح لك هذه النقطة في السطور التالية، ولكن سيدنا عبد الرحمن بن عوف الذي رباه النبي ﷺ لم يعتد على هذا أو يقل في نفسه مثل المثل الشهير «أبو بلاش كتَّر منه»، ولكنه قال له: **(بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دلني على السوق)** .. فهو يريد أن يذهب إلى السوق ويعمل بيديه، فقال له: (سوق بني قينقاع). وكأنه هو السوق الذي يستطيع أن يبني نفسه فيه فهو سوق واعد، وبالفعل ذهب إليه سيدنا عبد الرحمن بن عوف وبدأ تجارته فيه ببيع السمن والطعام، وكان في كل صباح يغدو إلى السوق، وبعد عدة أيام رآه النبي ﷺ وعليه أثر صفرة ؛ أي زينة، كما ورد في الحديث أنَّ عبدَ الرَّحمنِ بنَ عَوفٍ جاء إلى رَسولِ الله ﷺ وبه أثَرُ صُفرةٍ، فسأله رَسولُ الله ﷺ، فأخبَرَه أنَّه تزوَّجَ امرأةً مِن الأنصارِ، قال: **«كم سُقتَ إليها؟»**، قال: زِنةَ نواةٍ مِن ذهَبٍ. قال رَسولُ الله ﷺ:

«أولِمْ ولو بشاةٍ»[(129)]

أي قم بعمل وليمة وادع الناس إليها، شكرًا لله على نعمة زواجك واستقرارك في البلد الجديد.

اجتهاد الصحابة ليس بالفرض

سيدنا سعد بن الربيع من فترة قريبة كان مشركًا والآن أصبح مؤمنًا وكان من الأنصار، فعندما أتاه أخوه من المهاجرين سيدنا عبد الرحمن بن عوف كان عنده استعداد لأن يتنازل عن نصف ثروته حتى يكون أخوه مستقرًّا، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9]

معناها أن الأنصار لم يكن لديهم أي مشكلة في مساعدة إخوانهم المهاجرين حتى وإن كانوا في احتياج، فنزل فيهم القرآن وفي سعد بن الربيع، وهذه ما تُسمى (جذبة الإيمان)، وهي أنه بمجرد دخول نور النبي ﷺ إلى قلبي أتغير، فالدنيا ترخص في سبيل المعاني الغالية التي أريد أن أعيشها.

فنصف الساعة الخاص بصلاة الفجر وبرغم شدة احتياجي إلى النوم من الإرهاق يرخص من أجل القيام لصلاة الفجر، والاستيقاظ مبكرًا حتى أكون أول شخص في مكتبي صعب ولكن يرخص حتى أكون منضبطًا وأحلل رزقي، ترخص أمامي نفسي والتي عندما كان أي شخص يقول لي كلمة أُضطر إلى الرد عليه، ولكني الآن أصبحت أكثر هدوءًا حتى أحافظ على علاقاتي، فكل هذه الأمثلة ما هي إلا (جذبة الإيمان).

ولكن الكثير لا يحب ذِكر هذه القصة وهي أنه عرض عليه أن يعطيه نصف ماله ونصف داره، ولكنه عرض عليه أن يطلق إحدى زوجاته ويعطيها له!

وهنا أحب أن أشير عليك كيف نفكر في هذه النقطة بطريقة صحيحة:

أولًا: هذا القول هو اجتهاد من سيدنا سعد بن الربيع وليس وصية من النبي ﷺ فليس فيه آية أو حديث.. فإذا كنت غير مستسيغ هذا التصرف فهو ليس من وصايا النبي ولا بكلام رب العالمين، ولكنه مجرد قول واجتهاد صدر من سيدنا سعد بن الربيع في بداية دخوله في الإسلام وهو في البداية ما زال يتعلم من سيرة النبي ﷺ.

ثانيًا: فِعل الصحابي الواحد عند العلماء ليس بالحُجَّة، ونحن لسنا مأمورين به، أي أنه من الممكن أن يختار الصحابي اختيارًا لا تستطيع أن تتبعه فيه، ولكن الحُجَّة هنا هي كلام رب العالمين وكلام سيدنا محمد ﷺ ثم إجماع الصحابة على أمر معين، ولكن إذا اجتهد صحابي في أمر واستشعرت أنك غير مستطيع أن تتقبله أو تقوم به ولم يأمر به النبي ﷺ، فلا ترهق نفسك ولا ترد النص فتقول وكيف يفعل هذا؟ أو تقول إن النص ضعيف وإن هذا لم يحدث.

وفي النهاية فالإنسان عندما يكون مُقبلًا على العطاء من الممكن أن يتصرف تصرفات لم يكن يخطر على باله أنه سيفعلها يومًا ما من كثرة التضحية فيها والرغبة في الإكرام.

ومن الجميل في القصة أن الصحابة لم يكونوا معتادين على فكرة «أبو بلاش كتر منه»، ولكنه قال له بعد كل هذا العرض: **(بارك الله لك في أهلك ومالك ودارك، ولكن دلني على السوق)**.. فمن السوق آتي برزقي وبداري وآكل طعامي من تعب يدي، (آكل من فاسي وفكري في راسي) مثلما قال الشيخ الشعراوي – رحمه الله– وذهب سيدنا عبد الرحمن بن عوف إلى السوق بهذه النفسية ووفقه الله – سبحانه وتعالى– وكانت هذه نفسية الصحابة الذين نورلهم النبي ﷺ قلوبهم وحياتهم.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد السابق للحق نوره، والرحمة للعالمين ظهوره، عدد ما مضى من خلقك وما بقي، ومن سعد منهم ومن شقي، صلاة لا غاية لها ولا انتهاء وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا مثل ذلك.

اللهم إنا نسألك أن تصرف عنا الهموم، وأن تشرح لنا الصدور، ونجنا يا مولانا من طوارق الشر بالليل والنهار، وارزقنا صحبة الأتقياء الأبرار، وباعد بيننا وبين المنافقين، واجعل صحبتنا مع عبادك الصالحين.

---

(114) رواه البخاري.
(115) رواه البخاري.
(116) رواه ابن ماجه.
(117) رواه البخاري.
(118) رواه البخاري.
(119) رواه البخاري.
(120) رواه البخاري.
(121) رواه الطبراني.
(122) رواه البخاري.
(123) رواه البخاري.
(124) رواه البخاري.

(125) رواه مسلم.

(126) رواه البخاري.

(127) رواه مسلم.

(128) رواه الترمذي.

(129) رواه البخاري.

13

تقبُّل النبي ﷺ للجميع وبداية ظهور المنافقين

مستمرون في كتاب «نور» رحلة في حياة النبي ﷺ، ومن المهم قراءة الفصول السابقة حتى يكون لديك التسلسل الزمني لقصة حياة سيدنا محمدﷺ، فهي أهم قصة يجب عليك أن تعرفها في حياتك؛ لأن طريقك إلى الله وطريقك في استقرارك في الحياة كلها. قدوتك فيه هو سيدنا محمد ﷺ، قال تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب: 21]

فمن يريد أن يصل إلى أي خير يحلم به.. فالنموذج الكامل في كل شيء في الدنيا والدين هو سيدنا النبي ﷺ.

صحيفة التعايش بين قبائل المدينة

نحن الآن في هذا الفصل نصل إلى ما بعد دخول النبي ﷺ إلى المدينة وترحيب أهلها به بـ(طلع البدر علينا)، وبناء المسجد النبوي، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم بعد ذلك أوحى الله – سبحانه وتعالى– للنبي ﷺ بأن يُعِدَّ صحيفة تحتوي على عهد سلام وتعايش بين طوائف الشعب الموجودين في المدينة، فالمدينة وقتها كان فيها المسلمون، والمشركون عُبَّاد الأوثان، وأهل الكتاب من اليهود، فكان لا بد من وجود مبادئ يسيرون عليها حتى يعرف الجميع طبيعة العلاقة، وحتى نتعلم نحن هل نستطيع رغم اختلافنا أن يقبل بعضنا بعضًا.

فليس الأمر هنا أننا نختلف على تشجيع نادٍ معين أو نختلف على حب أكلة معينة عن غيرها، ولكن هل إذا اختلفنا على عقيدتنا وعلى معنى الإله بالنسبة لي ولك أو على الدين الذي أعبده به أنا وأنت؛ فهل يجوز بعد هذا الاختلاف الجذري أن نكون أمة واحدة؟

فتفكَّر في كلام سيدنا النبي ﷺ عن ذلك في نص الصحيفة.

الصحيفة تحتوي على أكثر من خمسين بندًا بالتفصيل عقدها النبي ﷺ مع جميع طوائف المدينة سأسرد لك بنودًا قليلة منها حتى تتعرف عليها وتتذكرها؛ لأنها مرتبطة بأحداث الأعوام المقبلة في السيرة.

***أن المسلمين أمة واحدة**.. أي أننا كمسلمين نعبد الله ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ومتفقون على ذلك، فلا تجعلوا أي شيء يفرقنا، ولا تجعلوا أي أفكار أو آراء تفرق بيننا، فمهما نختلف في الآراء فلا بد أن يقبل بعضنا بعضًا ونكون أمة واحدة.

ثم قال:

«المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم»[(130)]

فسيساعد بعضنا بعضًا وسنقف بجانب بعض حتى نستقر في المعيشة، وعندما يوجد من يعاني بيننا ندعمه ونسانده إلى أن يقوى مرة أخرى.

قال: **(وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثمًا، أو عدوانًا، أو فسادًا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم)**. أي أنه إذا كان هناك مَن يوقع بيننا ويفسد في الأرض، يطبق عليه القانون حتى لو كان أي أحد منا.

قال: **(وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم)**. أي أن اليهود الموجودين معنا في الصحيفة شركاء وطن واحد، لهم النصرة إذا احتاجوا إلينا، فإذا تم الهجوم على المدينة فلا بد أن نكون نحن وهم – أصحاب الصحيفة التي سنوقِّع عليها – جيشًا واحدًا.

قال: **(وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ)**. أي أنه عندما نختلف ونتشاجر فمن يحكم هو الله عز وجل ورسوله، قال تعالى:

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[الشورى: 10]

انظر إلى هذا البند وتفكَّر فيه جيدًا وتعرَّف على طبيعة دينك وروح شريعتك ونور النبي ﷺ الذي يعلمه لنا.

قال: **(وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتغ إلا نفسه وأهل بيته)** ..فاليهود سيعيشون مع المؤمنين في سلام، كل على دينه الذي اختاره، ومن أساء يطبق عليه وحده القانون، وليس على كل عشيرته، وهذا نص الصحيفة.

(وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين) بنو عوف أيضا قبيلة من اليهود؛ أي أن الجميع سيعيشون في نفس البلد لهم نفس الحقوق والمساواة في الحقوق الأساسية.

(وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم). فكل منهم له العمل الخاص به.

(وأن بينهم النصر).. جميعنا نحمي المدينة من العدو الخارجي، وتذكر هذا البند؛ لأنه بعد عدة سنوات سنحتاج إليه في الحديث عن غزوة الخندق.

(وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة)، فيجب أن نكون جيشًا واحدًا، فإذا حدث هجوم على المدينة من أي مكان ناحية بيوت اليهود، فإن جيش المسلمين مع جيش اليهود يدافعان عن بيوت اليهود، وإذا حدث هجوم على المدينة من ناحية بيوت المسلمين، فإن جيش اليهود مع جيش المسلمين يدافعان عن بيوت المسلمين، فنكون كالجيش الواحد إذا تم الهجوم علينا من الخارج.

قال: **(وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم)**، فيكون جاري مثل نفسي أحميه مثلما أحمي نفسي.

قال: **(وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم)**.

النصح.. يعني الوضوح، فهو ليس فقط النصيحة، ولكن معناه عدم وجود التفاف في الكلام ومراوغة أو خيانة أو تغيير في الكلام.

وكأن النبي ﷺ في هذه الصحيفة يطمئن الجميع؛ المؤمن والمشرك حتى اليهودي، يطمئنهم أننا ما دمنا متعايشين في بلد واحد فهو بلدنا جميعًا، علينا أن نحمي بعضنا، وأن نحافظ على بعضنا، ونحب الخير لنا جميعًا، ونتبادل التجارة، ولا يؤذي بعضنا بعضًا، وأي شخص سيظلم أهل هذه الصحيفة سيكون هو الآثِم فقط.. **(فإنه لا يوتغ إلا نفسه)**.

أي لا يهلك إلا نفسه؛ فهذا الدين قائم على الحرية والمحبة والمساواة وحرية الاعتقاد، ويعطي الغير حق أن يعيش وهو آمن، كل ذلك بسبب نور النبي ﷺ.

الإنسانية .. أولًا

النبي ﷺ لا يتحرك ولا يتكلم إلا بوحي، قال تعالى:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: 3، 4]

فسعي النبي ﷺ لعمل صحيفة المدينة هو لتوحيد الصف وتوحيد النفوس والقلوب رغم اختلافنا في العقيدة، فالمدينة كان يوجد بها (المسلمون والمشركون واليهود).

فسيدنا النبي ﷺ حتى يصنع نموًّا للمدينة وانتشارًا للإسلام، فمن المهم أن يكون هناك استقرار حتى لو اختلفنا في العقيدة، فمن المهم أن يكون هناك معايشة، ومهم أن ينير لنا النبي ﷺ هذه النقطة في قلوبنا.. وهي أنك كيف تعيش مع إنسان مختلف معك في العقيدة وغير مؤمن بدينك، وبرغم ذلك تستطيع أن تُكِنَّ له أعلى درجات الاحترام؛ لأنه ﷺ هو الذي قال:

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(131)

فالإمام النووي وهو يشرح هذا الحديث قال: المقصود هنا (أخوة الإنسانية) أي (أخوه لآدم)، فأنا أحب له ما أحب لنفسي أيًّا كان اعتقاده؛ لأن هناك شيئًا يُسمى ***(المشترك الإنساني)***، وهو مجموعة الأخلاقيات الأساسية التي إذا لم يتعامل بها البشر يفتقدون إنسانيتهم.

كما أن النبي ﷺ يضيء لنا هنا طريقنا في المجتمع سواء كان صغيرًا كالأسرة أو مجتمع العمل أو الأصحاب، أو كبيرًا كمجتمع الدولة الكاملة .. فإذا غاب الاستقرار تُهدَم هذه المجتمعات، وجزء كبير جدًّا من الاختلافات يكون في العقيدة والفِكر، فكون أننا نستطيع أن نتعايش بسلام وندافع كلنا عن وطننا كجسد واحد فهذا مهم جدًّا في بناء الأوطان.

وإذا تمعنت في نص الصحيفة تجد أن هناك احترامًا للغني والفقير، والكبير والصغير، فكأن سيدنا النبي ﷺ يقول إن رقم واحد هو الإنسان ونفسيته وحقوقه، وهذا هو التدين الذي حثنا عليه النبي ﷺ وأحب أن نقابل به رب العالمين سبحانه وتعالى.

موقف عبد الله بن صيف وقصة شاس بن قيس

يبدو مع مرور الأيام أن يهود المدينة لم يكونوا واعين بطبيعة علاقة السماء بالأرض؛ علاقة الوحي بسيدنا النبي ﷺ، وأن القرآن ينزل في مواقف يشير للنبي ﷺ بإرادة رب العالمين، ويخبره بما يجب عليه أن يفعله وما يُعلمه للمؤمنين، وكيف لهم أن يتصرفوا، ويبدأ اليهود بالقيام بعدة تصرفات مزعجة لسيدنا النبي ﷺ؛ لأنهم في ضيق بسبب عدم خروجه من قبائلهم ومن دينهم، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: 146]

فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فكما أنه لا يوجد من يخطئ في معرفة ولده، فهم كذلك يعلمون أنه رسول الله ولكنهم لم يكونوا يقبلونه؛ لأنه لم يخرج من بني إسرائيل ولم يكن من اليهود.

فجاء ثلاثة منهم وهم: **(عبد الله بن صيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف)** فقرروا أن يقوموا بفكرة يشتتون بها المسلمين، فقالوا: ***(ما رأيكم أن نؤمن بمحمد في الصباح ونكفر به في الليل، ثم نعود لنؤمن به في الصباح ونكفر ليلاً)***. وذلك حتى يلتبس على المسلمين الأمر ويظهر أمامهم أن هناك أناسًا يسلمون ثم ينفرون من الدين فيكفرون، فيحدث تردد بين المسلمين وبين من يريد أن يتبع الإسلام .

وهنا ينزل القرآن، قال تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[آل عمران:71، 72]

ويفاجأ اليهود بأن النبي ﷺ ينزل عليه الوحي من الله ليفضحهم ويفضح نواياهم الخبيثة وأفكارهم التي يقولونها فيما بينهم.

ثم بعد ذلك يأتي شخص آخر من اليهود أراد أن يوقع بين الأوس والخزرج القبيلتين الكبيرتين اللتين كانت بينهما حرب استمرت لفترة طويلة من الزمن وسميت **(يوم بُعاث)**، وظلت هذه الحرب مستمرة لفترة طويلة، وقُتل منهم أعداد كبيرة جدًّا، لدرجة أنه عندما جاء النبي ﷺ كان أول شيء فعله أنه أسكت الثأر الحادث بينهم.

فجاء (شاس بن قيس) وجلس في مجموعة من الأوس والخزرج وجلس يذكرهم بـ(يوم بُعاث) ومن قُتل فيها ومن أُصيب، وظل هكذا حتى ثار الحيَّان (أي أنهم قاموا على بعضهم) فقال أحد منهم: **(لو شئتم رددناها عليكم جزعًا)**. أي أننا على استعداد أن نعيد الحرب مرة أخرى لدرجة أن الفريقين قام كل واحد منهما وذهب إلى داره وقال: **(السلاح.. السلاح)**. وبدءوا يلبسون السلاح، فجاء وقتها رسول الله ﷺ وقال لهم:

«ما بالُ دَعْوى الجاهليَّةِ؟». فقالوا: يا رسولَ الله، رجُلٌ مِن المُهاجِرينَ كسَع رجُلًا مِن الأنصارِ. فقال: «دَعُوها فإنَّها مُنتنةٌ»(132)

وينزل القرآن .. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[آل عمران:100-103]

ليسمع مرة أخرى يهود المدينة القرآن وهو ينزل فيما يفعلونه.

وينزل القرآن بوحي من رب العالمين ليوجه المسلمين حتى وإن كانوا حديثي عهد بالإسلام، فهم في عناية الله ورعايته بوجود النور الذي ينقذهم من ظلمات الجاهلية وهو النبي ﷺ.

كفى بالله تعالى مدافعًا ورادًا عنك

عبد الله بن صيف اليهودي يقترح فكرة أن يؤمنوا بالنهار ويكفروا بالليل حتى يشتت الناس ويعتقدوا أن الدين غير منطقي وهناك من يدخله ثم يتركه، فيحدث تشويش على دعوة النبي ﷺ، وشاس بن قيس ذهب ليوقع العداوة مرة أخرى بين الأوس والخزرج ويذكرهم بحرب بُعاث؛ لأنه عندما وجد أمامه أناسًا يحب بعضهم بعضًا ورأى الدين ينتشر، أراد أن يكره الناس بعضهم بعضًا ويتنافروا ويتناحروا، فيذهب الدين وتنتهي الدعوة، فسيدنا محمد ﷺ قال:

«لا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتَّى تَحابُّوا، أوَلا أدُلُّكُمْ علَى شيءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحابَبْتُمْ؟ أفْشُوا السَّلامَ بيْنَكُمْ»(133)

وعبد الله بن صيف كان يقوم بما يفعله بسبب أنهم متأكدون من أن النبي ﷺ مرسل من الله ولكنهم لا يريدون أن يؤمنوا به ولا يريدون اتباع الحق الذي معه، فأراد التشويش على دعوته حتى لا يؤمن به الناس وحتى يتأكدوا أنه على خطأ .. وهذا ما يسمى (**الحسد**).

وينزل القرآن بقوله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: 109]

وهنا يأتي الأمر من الله تعالى بأن ركِّز كل أعمالك في البناء الذي تفعله؛ لأنك إذا أعرت انتباهك لكل شخص مزعج يحب المشاكل والمشاحنات، فإنه هو الذي يدفعك ويشدك إلى حياته التي تفتقر إلى وجود المعنى، فأنت مشغول بأنك تبني نفسك وتبني قيمك وأخلاقك وحياتك، وهو منزعج من نجاحك ومنزعج من تركيزك في حياتك والسعي الذي تقوم به، فإذا دخلت معه في ساحته الفارغة التي تفتقر إلى أي معنى فأنت بذلك ستضيع طاقتك فيما لا يفيد، فالنبي ﷺ معنِيٌّ بدعوة الناس، والله تعالى يقول له: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، أي أكمل في طريقك حتى يأتي الله بأمره.

وهذا أمر لكل واحد منا يهدر طاقته في الرد على كل منتقد والرد على كل شخص يسخر ويهزأ على السوشيال ميديا أو يتكلم عليك في ظهرك.. فكفى بالله – سبحانه وتعالى – مدافعًا ورادًّا عنك .

قال تعالى:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[الزمر :36]

فركِّز في طريقك الذي تبني فيه نفسك وأخلاقك وقيمك، وانظر كيف يدافع عنك رب العالمين.

ظهور رأس المنافقين في المدينة

وتمر الأيام في المدينة ونحن مازلنا في العام الأول من الهجرة، وهناك أبطال؛ بعضهم أخيار، وبعضهم أشرار سيظهرون في قصة حياة النبي ﷺ، ومنهم رأس المنافقين (عبد الله بن أبيّ ابن سلول)..وهو من أكثر الأشخاص الذين تسببوا في أذى النبي ﷺ.

والنفاق نوعان: (**نفاق اعتقادي – نفاق أخلاقي**)، فالمنافقون الموجودون في المدينة كان نفاقهم اعتقاديًّا، وكلمة (منافق) تعني أن أظهر شيئًا غير ما بداخلي، ويأتي منها كلمة (النفق)؛ أي أنك تسير في الطريق من فوق وفجأة تدخل نفقًا مختلفًا عما في الأعلى، فهناك أعلى وأسفل، ظاهر وباطن، والنفاق الموجود في المدينة وقتها هو النفاق الاعتقادي وليس الاعتقاد الأخلاقي الذي حذر منه النبي ﷺ وقال:

«**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ**»(134)

وهنا يمكن أن يكون الشخص مؤمنًا موحدًا ولكن تصرفاته خاطئة، فالكذاب داخله عكس خارجه، والخائن غير الأمين داخله عكس خارجه، ومُخلف الوعد يعدك بشيء ونيته عكس ذلك.. فجميع هذه الصفات من الكبائر ولكن ما زال الشخص الذي يفعلها مؤمنًا موحدًا بالله.

ولكن منافقي المدينة لم يكونوا كذلك، فقد كانوا كفارًا من داخلهم لا يؤمنون بالنبي ﷺ، وكانوا يتجسسون لصالح اليهود ويأتونهم بأخبار النبي ﷺ، كما أنهم كانوا يساعدون المشركين على غزو

المدينة مثلما سنسرد هذه الأحداث لاحقًا ولكنهم يظهرون إيمانهم ويقولون: (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

وكان المنافقون في المدينة، وقد قال عنهم رب العالمين:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النساء: 145]

لأنهم أكثر إيذاءً من المشركين الواضح شركهم.. وكان زعيمهم ورأسهم هو **(عبد الله بن أبيّ ابن سلول)**.

وتحكي السيرة أنه ذات مرة كان النبي ﷺ يستقل دابته (حماره) وكان اسمه (يعفور) من العفرة التي كان يتسبب فيها أثناء تحركه في أرض المدينة؛ لأنها من التراب، وكان (عبد الله بن أبيّ ابن سلول) يجلس مع مجموعة من اليهود والمشركين ومعهم مجموعة من المسلمين الموحدين.. فالإسلام جديد في المدينة والأمور تسير بسهولة ويسر وسلام بسبب الصحيفة التي كتبها النبي ﷺ، ويشعر الجميع بالأمان تجاه بعضهم، فبرغم اختلاف اعتقاداتهم فهم جميعًا يجلسون في نفس المجلس، فبمجرد أن رأى عبد الله بن أبيّ ابن سلول النبي ﷺ قادمًا إليهم وضع ملابسه على أنفه وقال: **(لا تُغبِّر علينا)**. وعندما نزل النبي ﷺ من على حماره ليتحدث مع الناس ويدعوهم إلى الله ويذكرهم بالآخرة قال له عبد الله بن أبيّ ابن سلول: **(ما أحسن هذا الكلام يا محمد! ولكن لا تأتنا في مجلسنا، فإن أحب أحد أن يسمعك أتى إلى دارك)**.. وكان في المجلس الصحابي **(عبد الله بن رواحة)** فقال: **(بل تأتينا في مجلسنا يا رسول الله)**. فانقسم الناس في المجلس إلى من يرحب بقدوم النبي ومن لا يرحب كالمنافقين والمشركين، فتلاحى القوم؛ أي حدثت بينهم مشاجرة، وظل النبي يسكتهم ثم انصرف.

وبينما كان النبي ﷺ يسير مع (سعد بن عبادة) قال له: «**أَيْ سَعْدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إلى ما قالَ أَبُو حُبَابٍ؟**». «أبو حباب» كانت كُنية عبد الله بن أبيّ ابن سلول، والكنية تذكر للتعظيم والاحترام.. فتخيل أن النبي ﷺ يحترمه بعدما فعله معه، فبدأ سيدنا سعد يسرد للنبي ﷺ قصته فقال له:

> **(اعْفُ عنْه يا رَسولَ الله، وَاصْفَحْ، فَوَاللَّهِ، لقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ الذي أَعْطَاكَ، وَلَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هذِه البُحَيْرَةِ أَنْ يُتَوِّجُوهُ فيُعَصِّبُوهُ بالعِصَابَةِ، فَلَمَّا رَدَّ اللَّهُ ذلكَ بالحَقِّ الذي أَعْطَاكَهُ شَرِقَ بذلكَ، فَذلكَ فَعَلَ به ما رَأَيْتَ. فَعَفَا عنْه النبيُّ ﷺ)**[135]

أي أن أهل المدينة كانوا سيجعلونه زعيمًا ورئيسًا عليهم، ولكن عندما جاء النبي ﷺ وعظمه الناس واتبعوه لم يتحمل أن يرى غيره معظمًا، ولذلك صدرت عنه هذه الأفعال.

قصة زواج النبي ﷺ بالسيدة عائشة

وتمر الأيام ويتزوج النبي ﷺ السيدة عائشة.. وقد كان هناك قصة لهذا الزواج، ونحن نعلم أن رؤيا الأنبياء وحي من رب العالمين، مثل رؤيا سيدنا إبراهيم الذي قال:

﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[الصافات :102]

فهذه من سنن الله مع الأنبياء جميعهم، فكما ذُكر في صحيح البخاري وفي سنن الترمذي أن النبي ﷺ عندما كان ينام كان يرى سيدنا جبريل عليه السلام يحمل صورة لوجه السيدة عائشة في خرقة من الحرير ويقول له: «هذه زوجتك في الدنيا والآخرة». فسيدنا محمد ﷺ كان يقول حينها:

«إِنْ يَكُنْ هذا مِن عِندِ اللهِ يُمْضِهِ»(136)

وكان ﷺ يمر فيجد أم رومان زوجة سيدنا أبي بكر وأم السيدة عائشة، فكان يقول لها:

«استوصي بعائشة خيرًا واحفظيني فيها»(137)

أي حافظي عليها. ويحدث الزواج في بداية سنوات المدينة وعمرها حينئذٍ تسع سنوات بأمر من الله تعالى، وسأوضح لك هذا الأمر في السطور التالية وكيف أن النبي ﷺ الآن عمره أربعة وخمسون أو خمسة وخمسون عامًا يتزوج السيدة عائشة وعمرها تسعة أعوام.

اطمئن فرسول الله ﷺ لا يتحرك إلا بوحي من الله.

لفتات هامة في زواج النبي ﷺ بالسيدة عائشة

بالنسبة لزواج سيدنا محمد ﷺ بالسيدة عائشة وعمرها تسع سنوات.. سأوضح لك هذا الأمر وكيف علينا أن نفكر في هذا الحدث.

النقطة الأولى: أنك أخذت قصة الزواج من السُّنة ومن السيرة، فأنت إذن مؤمن بالسيرة، والدليل أنك أخذت القصة منها، وبالتالي ننظر في السيرة لباقي جوانب القصة، ثم تعال معي إلى النقطة الثانية.

النقطة الثانية: وهنا أحب أن أذكرك بشيء وهو أنه إذا كنت مؤمنًا حقًّا برسول الله ﷺ فلتعلم أنه لا يتحرك إلا بوحي، فأفعال النبي ﷺ جميعها هي الحاكمة لعقولنا وليست عقولنا هي التي تحاكم النبي ﷺ وتصدر الأحكام فيما يفعله.

النقطة الثالثة: من المستحيل على أي رجل عاقل فضلًا عن أن يكون هو النبي ﷺ، أن يقوم في بداية مجيئه إلى المدينة بتصرف يضر بسمعته وبمصداقيته وهو الذي ظل طوال ثلاث عشرة سنة الرجلَ الأولَ من حيث السمعة والمصداقية في جزيرة العرب كلها، فكيف له بعد أن يصل إلى المدينة البلد الجديد عليه أن يتزوج فتاة صغيرة عمرها تسع سنوات فيصدم أتباعه وأعداءه بتصرف غريب، حاشاه ﷺ.

فالشيء العجيب أنه عندما تتأمل في السيرة تجد أنه لا أحد سواء كان عدوًّا أو حبيبًا إلا وهو يُكن للنبي ﷺ أعظم صور الاحترام حتى بعد مشهد الزواج هذا، وهذا الكلام ظل الى ما قبل مائة عام فقط، فحتى المستشرقون الذين يطعنون في الإسلام لم يجدوا أحدًا منهم تكلم في مثل هذا الموضوع قط.. لماذا؟ لأن الزواج عبادة تخضع للأعراف المجتمعية المقبولة، ونحن طوال التاريخ نعلم أن سن الزواج تكون خاضعة للطبيعة والزمن مادام لا يوجد فيه أضرار جسدية أو استغلال للطفولة، وحتى سن الطفولة اختلفت عبر الزمان، والآن سن الطفولة مختلفة بسبب طبيعة الطعام وطبيعة المناخ وطبيعة تحمل المسئولية.. فاكتمال جسد المرأة وعقلها واكتمال جسد الرجل وعقله اختلف بشكل كبير عن ذي قبل، ولذلك لا تتعجب أنه منذ مائة عام أو أقل كان من الطبيعي جدًّا أن تتزوج المرأة في سن اثني عشر عامًا مثل جدتك أو أم جدتك، والرجل كان من الممكن أن يتزوج في سن ثلاثة عشر أو أربعة عشر عامًا فقط، وكان هذا هو الطبيعي بسبب اختلاف الطبيعة البدنية والطبيعة الاجتماعية.

وهنا يأتي السؤال: هل نفعل مثلما فعل النبي ﷺ في هذا الأمر؟

السُّنة بعضها نأخذه بالألفاظ والمباني؛ أي أن تأخذ لفظ النبي وتعمل به، أو مبنى الكلمة فتعمل بالضبط مثلما عمل النبي، وبعض السنة يؤخذ بالمقاصد والمعاني؛ أي أنه من سُنة النبي ﷺ في الزواج أن تتزوج زواجًا اجتماعيًّا طبيعيًّا مقبولًا، كما فعل هو ﷺ في عصره.. وهنا جاء العلماء في هذا الزمن وقالوا إنه لكي تتزوج الفتاة لا بد أن تكون مكتملة الجسد ومكتملة العقل، فاتفق القضاة والعلماء على أن هذا الاكتمال يبدأ من سن ثماني عشرة سنة فيما فوق وليس أقل من ذلك.. فإذا تزوجتَ بنتًا أقل من ثماني عشرة سنة فأنت بذلك مخالف لسنة النبي ﷺ؛ لأنها مخالفة للأعراف المجتمعية، وبالتالي لا توجد لدي أي غضاضة في زواج النبي؛ لأنه لا يوجد أي شخص سواء في جيل النبي أو في الأجيال التي بعده علَّق على هذا الموضوع، كما أني أذكرك ثانية أن فعل النبي ﷺ كان بوحي من السماء، وأن أفعاله ﷺ هي الحاكم لعقولنا وليست عقولنا هي التي تضع أفعاله تحت المحاكمة وترى هل الفعل صواب أم خطأ .. فهذه عقيدة المؤمنين.

حُمى المدينة وماذا علَّمنا النبي ﷺ أن نقول فيها

نصل الآن في رحلة حياة النبي ﷺ إلى سنة اثنتين هجرية، وعمر النبي ﷺ الآن يصل إلى خمسة وخمسين عامًا، فقد بُعث وعمره أربعون عامًا، ظل بعدها ثلاث عشرة سنة في مكة ثم هاجر إلى المدينة، ففي هذا العام كانت المدينة مستقرة تمامًا بالصحيفة التي كتبها النبي ﷺ وبداية بناء مجتمع المدينة ببناء المسجد وبالتجارة وبالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وبالتعايش مع المشركين واليهود أيضًا، ولكن حدثت حُمى شديدة في المدينة وقتها أصابت الكثير من الصحابة، وذات يوم دخل النبي ﷺ على السيدة عائشة وهي تتأوه وتسب الحُمى.. مثلما قد نسُبُّ نحن مرضًا يصيبنا، فقال لها النبي ﷺ:

> «لا تَسُبِّي الحُمَّى؛ فإنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كما يُذْهِبُ الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ»[38]

وأمر سيدنا عليًّا وهو على فراشه بسبب الحمى أن يدعو بهذا الدعاء:

«اللهم ارحم عظمي الدقيق وجلدي الرقيق، وأعوذ بك من فورة الحريق»[(139)]

وقال النبي ﷺ أيضًا:

«تداوَوا عبادَ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ لم يضع داءً إلَّا وضعَ معَهُ شفاءً»[(140)]

فعلمهم النبي ﷺ ثقافة التعامل مع المرض.

قصة تغيير القبلة

وهنا مع الحدث الذي تمناه النبي ﷺ أن يحدث لسنوات طويلة، فمنذ أن فُرضت الصلاة في يوم المعراج والناس تصلي في اتجاه بيت المقدس، فكانت هذه هي القبلة وليست الكعبة، و كان هذا لحِكم كثيرة من رب العالمين - سبحانه وتعالى- منها أن الناس كانت حديثة عهد بالجاهلية، والناس في الجاهلية كانوا يطوفون حول الأصنام الموجودة عند الكعبة، فصرف الله قبلة الناس لبيت المقدس بعيدًا عن الكعبة، فكان النبي ﷺ يتمنى أن تعود مرة أخرى إلى الكعبة، لدرجة أن النبي ﷺ عندما كان يصلي في مكة كان يصلي في اتجاه بيت المقدس ولكن يجعل الكعبة أمامه في نفس الاتجاه ولكنه كان ينظر إلى السماء ويتمنى أن يجعل الله القبلة إلى الكعبة، فينزل القرآن:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[البقرة: 144]

وهنا بدأ اليهود يسخرون من المسلمين ويقولون: لماذا أنتم مُشتتون في قبلتكم؟ فينزل القرآن:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾[البقرة: 142، 143]

فقد جعلنا الله أمة وسطًا - يعني أرقى الأمم - لنكون شهداء على الناس، والله تعالى يعلم أن حادث تغيير القبلة هو حدث فيه امتثال لأمره سبحانه بأن يقول المؤمنون: «**سمعنا وأطعنا**» في جميع أوامر الله.

وهنا بدأ اليهود يتساءلون: ومن مات ولم يصلِّ إلى القبلة الجديدة للبيت الحرام، ما حكمه؟ فالقبلة تحولت بعد مجيء النبي ﷺ إلى المدينة بسبعة عشر شهرًا، فكانت في شهر رجب، فنزل القرآن:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:143]

أي أن الله لن يضيع صلاة من مات ولم يصل إلى القبلة الجديدة، فهو الرءوف الرحيم.

يحكي لنا سيدنا (البراء بن عازب): **(والنبي ﷺ يصلي الظهر أو العصر رآه الصحابة متجهًا إلى الكعبة، ثم أخبرهم بما نزل من القرآن لتحويل القبلة، فبدأ الصحابة يذهبون إلى المساجد الموجودة القريبة ومنها مسجد قباء، فوصل إليهم أحد الصحابة وهم في صلاتهم وكانوا في الركوع، فأول ما دخل قال: أشهد أن النبي ﷺ قد نزل عليه القرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة وهم داخل الصلاة)**. وهنا يأخذ العلماء من هذا الموقف أنه إذا كان أحدنا يصلي في اتجاه خاطئ للقبلة يمكن أن أوجهه إلى الجهة الصحيحة وهو يصلي دون أن تبطل صلاته .. فأخذوا هذا الحكم من فعل الصحابة.

وظلت التشريعات تتوالى وتتنزل من الله تعالى على الأمة لتتصل بربها، وبدأ الطريق ينير بنور النبي ﷺ، وبدأ الصحابة يشاهدون الطريق أوضح، وعم السكن والاستقرار في المدينة بعد حُكم النبي ﷺ.

احذر من أسباب الحسد

عندنا مثل شعبي يقول: **(الفاضي يعمل قاضي)**.

جعل الله - سبحانه وتعالى - المسلمين يصلون تجاه بيت المقدس، ثم بعد ذلك أمرهم بالصلاة تجاه الكعبة، فقال:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾[البقرة: 144]

فالله تعالى أعلم بشئون عباده وأعلم بما يُشرِّعه، فهو الإله الكامل، ولكن يهود المدينة متربصون، ويريدون إحداث أي شيء من الإزعاج؛ لأنهم يعلمون أن النبي ﷺ صادق فيما يقول، فأحبوا أن يُحدِثوا تشويشًا بأن يسخروا من انتقال قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، فجاءهم الرد من الله تعالى:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة :142]

ففي كثير من الأوقات يجب أن يكون الإنسان واعيًا لنفسه عندما يجد نفسه وهو ينظر إلى شخص ينجز وناجح في حياته فيكثر من انتقاده والتعليق على تصرفاته، فقد تكون هذه التعليقات السلبية علامة على الحسد ودليلًا على أنه غير مستريح لنجاحه؛ لأنه يذكِّره بنوع من الإخفاق الموجود في حياته أو بعدم نجاحه مثله... فمن السُّنة إذا رأيته ناجحًا أن تدعو له بالبركة وتقول: ***(ما شاء الله تبارك الله)***.

وهذا عكس يهود المدينة الذين تركهم النبي ﷺ يعيشون في سلام وترك لهم حرية الاعتقاد، فعقد معهم معاهدة صلح ومحبة وسلام ودفاع مشترك ولكنهم أبَوْا أن يدَعوا المسلمين وشأنهم.

اللهم صلِّ على منبع الأسرار والأنوار، ومُطهِّر النفوس من الرذائل والأكدار، أعلم الخلق وناصح الأمة ومرشدها إلى الحق، أقرب الأنبياء والمرسلين إلى حضرتك يا رب العالمين، وسلِّم عليه قدْرَ مقداره العظيم.

يا رب افتح أمامنا أبواب الخير، وهب لنا التوفيق والسداد في كل أمر، وارزقنا التوفيق والسداد فوق ما نتمنى، واصرف بعلمك فينا كل الشرور عنا.

---

(130) رواه ابن إسحاق.
(131) رواه البخاري.
(132) رواه ابن حبان.
(133) رواه مسلم.
(134) رواه البخاري.
(135) رواه مسلم.
(136) رواه البخاري.
(137) رواه ابن سعد.
(138) رواه مسلم.
(139) رواه البيهقي.
(140) رواه ابن ماجه.

14

فرض الصيام والزكاة وبداية الحرب مع مكة

فرض الصيام والزكاة وموقعة بدر

وصلنا في «نور» رحلة في حياة النبي ﷺ إلى عام اثنين هجريًّا، حيث كان عمر النبي ﷺ خمسًا وخمسين سنة، واستقرت الأوضاع في المدينة وبدأ التشريع ينزل بفرض الصيام والزكاة والعيد على المسلمين وذلك بعد حوالي خمس عشرة سنة من بداية بعثة النبي ﷺ، وذلك لحكمة من رب العالمين – سبحانه وتعالى – في تأخير التشريع حتى يستقبله المؤمنون بـ«سمعنا وأطعنا».. فُرضت الزكاة، ثم فُرض الصيام، ثم شُرع العيد، ويأتي وقت الذبح للأضحية فيقوم النبي ﷺ بذبح كبشين فيقول:

«اللَّهُمَّ هذا عَنِّي وعمَّن لم يُضَحِّ من أُمَّتي»(141)

لانشغاله ﷺ بحال الأمة، فكل غني ذبح، وكل فقير يعلم أن سيدنا النبي ﷺ ذبح نيابةً عنه.

ثم ينزل القرآن بحُكم جديد تمامًا سيغير من شكل العلاقة مع المشركين المعتدين، فنحن الآن بقينا خمس عشرة سنة وجميع قدراتنا المسموح بها في الدفاع عن النفس هي فقط «الدعوة بالقرآن»؛ حيث قال تعالى:

﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[الفرقان: 52]

أي جاهدهم بالقرآن، وينزل القرآن بالإذن بالدفاع عن النفس، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج :38-40]

فهذه الآيات كانت هي الإذن بالدفاع عن النفس، وتنزل بعدها آية ثانية حتى توضح معنى الدفاع عن النفس، قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة:190]

ومن هنا يأتي الإذن من الله تعالى للمؤمنين بأحقية الدفاع عن النفس، وتمر الأيام، وأذكرك أن جميع أموال الصحابة الذين هاجروا وتركوها في مكة اغتصبتها قريش واستولت عليها، ومنها أموال عبد الرحمن بن عوف، وأموال سيدنا صُهيب الرومي الذي قال له النبي ﷺ:

«يا أبا يحيى، ربح البيع»(142)

كل هذه الأموال جمعتها قريش في قافلة قادها أبو سفيان إلى الشام.

وهنا يأتي الوحي من رب العالمين لسيدنا محمد ﷺ بأحقيتهم في هذه الأموال، فكان الأمر بأن يخرجوا بمجموعة صغيرة ليأخذوا أموالهم المنهوبة؛ لأن هذا حقهم، ويعطي النبي ﷺ الإذن لاثنين من عساكر المسلمين أن يعرفوا خط سير القافلة التي تنقل أموال المسلمين بقيادة أبي سفيان، وبالفعل خرجا وجلسا في مكان ما قريب من منطقة (آبار بدر) وهي منطقة خارج المدينة ولكنها قريبة جدًّا منها، ولكن أبا سفيان الذي كان قائدًا مُحنَّكًا كان يعرف أنه سيمر بالقافلة بالقرب من المدينة، فكان خائفًا، فعندما مر هناك ترك القافلة وقابل أحد رعاة الأغنام في المنطقة فسأله عما إذا كان قد رأى أحدًا يمر في هذا المكان، فأجابه الراعي بأنه لا توجد جيوش أو غيرها مرت من هذا المكان وطمأنه بأن يسير في سلام وأمان، ولكنه أخبره بأنه كان هناك رجلان يجلسان بالقرب من هذا المكان، وبالفعل ذهب أبو سفيان إلى المكان الذي أخبره الرجل به فوجد روث الخيول (فضلاتها) وكانت جافة، وكعادة العرب قديمًا أمسك أبو سفيان الروث «أعزكم الله» وفركه بيده فوجد قطعًا من نواة تمر المدينة فعلم أن اللذين كانا يراقبانه من المدينة، وهنا أخذ قرارين:

القرار الأول: أنه مشى بعيدًا في اتجاه ساحل البحر وليس اتجاه بدر ليبتعد عن المدينة.

القرار الثاني: أنه قام بإرسال رجل اسمه (ضمضم) مسرعًا إلى مكة ليخبرهم أنهم هوجموا من جيوش المسلمين، فيلحقوا بهم بالجيش من قريش.. فكان هذا هو المشهد خارج المدينة.

أما المشهد داخل المدينة .. فقد جهَّز النبي ﷺ حوالي ثلاثمائة وأربعة عشر رجلًا، منهم مائتان وواحد وثلاثون رجلًا من الأنصار، وثلاثة وثمانون من المهاجرين بأسلحة بسيطة جدًّا حتى يستردوا حقوقهم وأموالهم المنهوبة؛ لأنهم ظلوا ما يقرب من خمس عشرة سنة يتم إيذاؤهم بالرغم من أنهم لا يريدون شيئًا إلا أن يعبدوا الله تعالى، وكانوا لا يملكون إلا أسلحة بسيطة جدًّا تُسمى (سلاح الراكب) .. وبالفعل تحرك النبي ﷺ وأصحابه ولم يكن في تخطيطهم شن أي حرب عليهم، ولكن في الناحية الثانية انطلق ضمضم الذي أرسله أبو سفيان.. انطلق كالسهم مسرعًا إلى مكة وقد أصاب جمله بجرح في وجهه وخلع ملابسه وكأنه أتى من حرب شرسة، وظل يستغيث بأهل مكة ليأتي منهم بجيش لحرب النبي ﷺ.

الحكمة من تأخر فرض الصيام والزكاة

لابد أن تقف وتتأمل في فرض الصيام والزكاة سنة اثنتين هجرية؛ أي بعد خمس عشرة سنة من استقرار نور النبي ﷺ في قلوب الناس.. فلا بد أن تتأمل رحمة رب العالمين في أنه جعل سيدنا محمدًا ﷺ أولًا يُعرِّف الناس إلى رب العالمين، وجعلهم يرون في حياتهم كيفية إكرام الله لهم وهدايتهم ولطفه فيما جرت به المقادير، وكيف أنه يسامحنا على أخطائنا ويستجيب لنا وينجينا ويرزقنا .. فإذا عرفت ربك حقًّا واطمأننت له، فأطع أوامره التي فيها الصلاح والخير لك ولا تعود عليه بشيء إنما هي لك.

فمثلًا الصيام له حِكم كثيرة عند رب العالمين؛ منها أن الإنسان يستطيع أن يتحكم في نفسه ويتعلم أن يقول «لا» للغرائز والشهوات والاحتياجات الأساسية، وبالتالي يستطيع أن يقول «لا» لاحتياجات

أخرى.

ومثلًا في الزكاة أُخرج من قوتي وأموالي التي تعبت في جمعها جزءًا منها لشخص محتاج يمكن ألا أكون أعرفه أصلًا، فأشارك غيري وأكفله؛ لأن الله وسَّع علي في الرزق بينما هو في ضائقة، فأتعلم أن أحب لأخي ما أحب لنفسي.. فكل هذا تربية وتهذيب إذا تأملت في هذه الأوامر.

فظل النبي يُعرِّف الناس إلى ربهم حتى عرفوه فأحبوه، ثم بدأت التشريعات تتنزل في المدينة، بينما في مكة كانت الآيات تنزل عن معرفة الله وتوحيده وعن الدار الآخرة.

وهذا ما يجب علينا أن نفعله مع أبنائنا بألا نطلب منهم أولًا أن يؤدوا عبادات بدون أن نُعرِّفهم إلى رب العالمين وندلهم على كرم الله في كل شيء في حياتنا .. وهذا الترتيب في الدعوة والهداية من نور النبي ﷺ وسُنته.

جبر رسول الله ﷺ خاطر جميع فقراء أمته

تأمل في أنوار سيدنا النبي ﷺ على الفقراء بأنه يذبح شاتين في الأضحية يقول في الأولى: هذه عن محمد وآله. ويقول في الثانية: وهذه عن أمة محمد.. فكل شخص فقير لا يستطيع أن يضحي في العيد نقول له: أبشر؛ فمن ضحَّى عنك هو سيد الأولين والآخرين سيدنا النبي ﷺ.. فاطمئِن.

فالله سبحانه وتعالى هو من أراد أن يكون النبي ﷺ متذكرًا للفقراء الموجودين في عهده وحتى الموجودين إلى يوم القيامة من أمته، وكأنه ﷺ يعلمنا بأنواره أن من يحب، ينشغل بحبيبه ويحمل عنه أشياء لم يكن في استطاعته أن يحملها مثلما فعل النبي ﷺ وحمل عن الأمة جميعها.

رؤيا عاتكة وخوف زعماء المشركين

بدا المشهد في المدينة أن النبي ﷺ بدأ يجهز مجموعة صغيرة لاسترداد أموالهم المنهوبة ..بينما أبو سفيان غير اتجاه القافلة المحملة بأموال المسلمين وذهب بها إلى اتجاه البحر، وأما المشهد في مكة فجاءهم ضمضم يستغيث بهم ويقول إن هناك جيشًا سيهجم على القافلة التي يقودها أبو سفيان.

ولكن قبل هذا الحدث بيومين أو ثلاثة، السيدة (عاتكة بنت عبد المطلب) عمة النبي ﷺ نامت فجاءتها رؤيا بأن هناك شخصًا يأتي يصرخ على جبل من جبال مكة يقول: **(يا أهل غُدَر** –أي: يا غدارين **– قوموا إلى مصارعكم بعد ثلاث** – أي تعالوا وانتبهوا؛ لأن مصرعكم وموتكم سيكون بعد ثلاثة أيام – **وبعد ذلك أخذ صخرة ورماها فظلت تتدحرج، فما وجدت بيتًا من بيوت مكة ولا دارًا من دورها إلا دخلتها منها فلقَة).**

فاستيقظت وهي مذهولة من هذه الرؤيا وأخبرت أخاها العباس بن عبد المطلب – عم النبي– بما رأت في منامها، فقال لها: **(هذه رؤيا حق، ولعلنا نرى ما يحدث)**. قالت له: **(اكتم عني)**. فذهب العباس يطوف بالبيت فلقي صاحبه (الوليد بن عتبة بن ربيعة) فقال له العباس: **(اكتم عني هذه الرؤيا)**. وحكى له ما رأته أخته عاتكة، فذهب بعدها الوليد بن عتبة بن ربيعة وحكى لأبي جهل ما سمعه من

العباس وقال له: **(اكتمها عني)**. وما هي إلا ساعات قليلة إلا ومكة جميعها تلوك الخبر؛ أي أصبح الخبر مثل «العِلْكَة» في فم الجميع.

وبينما كان العباس يطوف حول الكعبة إذا بأبي جهل يأتي إليه ويقول له: **(يا أبا الفضل، افرغ من طوافك ثم ائتني)**. وبالفعل ما إن انتهى من طوافه حتى جاءه فقال **(يا أبا الفضل، منذ متى وفيكم نساء تُنبأ؟ قلتم إن فيكم رجلًا نبيًّا فتركناكم، والآن تقولون منا نبية! والله يا عباس كما تقول الرؤيا لو لم يظهر لها نهار بعد ثلاثة أيام لنكتب كتابًا ننشره بين العرب ونقول فيه: إن بني عبد المطلب أكذب أهل الأرض)**. فنظر إليه العباس ولم يرد عليه، وعاد سيدنا العباس لديار بني عبد المطلب وهم يعاتبونه أنه كيف لم يرد عليه ما قاله في حقهم وتركه يخوض في سيرة نسائهم، فقال العباس: **(حتى امتلأت بالغيظ ونمت، وعندما استيقظت في اليوم التالي كنت أبحث عن أبي جهل حتى أرد عليه فيما قال، فعندما اقتربت منه وجدته يجري مسرعًا فقلت في نفسي: أهذا خوفًا مني؟)**. ولكنه سمع ما لم أسمع فحدث أنه وقبل أن يأتي اليوم الثالث للرؤيا جاء «ضمضم» وهو يقول: **(الغوث الغوث.. اللطيمة اللطيمة.. محمد قد أغار على القافلة)**. «اللطيمة» أي الجِمال المحملة بالأمتعة. فإذا بقريش تتجهز بألف مقاتل حتى يذهبوا إلى سيدنا النبي ﷺ الذي لا يزال يتجهز حتى يأخذ فقط أمواله المنهوبة منهم وبدءوا يتحركون، ولكن كان هناك عدد من رجال قريش يخافون أن يخرجوا معهم، منهم (أمية بن خلف) الذي كان يعذب سيدنا بلالًا، كان يخاف أن يخرج معهم؛ لأنه يعلم جيدًا ما فعله في المسلمين ومقدار الأذى الذي تسبب فيه لهم، فكان يجلس فأتاه صاحبه **(عقبة بن أبي معيط)** الذي كان يؤذي النبي ويلقي على ظهره سلا الجزور – أمعاء الجمل الميت – وكان يخنقه بالعباءة وهو يصلي حتى سقط، وغيرها الكثير من الأعمال المؤذية، جاء لصاحبه أمية بن خلف وأتى إليه ببخور ووضعه بجانبه وقال: **(تبخر، فإنما أنت من النساء)**. أي سخريةً منه بأنه يجلس مثل النساء لا يخرج لحرب محمد وأصحابه، فاغتاظ منه وقال: **(والله لأخرجن)**. فهو من استفزه حتى يخرج، وسأخبرك في السطور القادمة ما حدث بعد ذلك.

ومن الذين خافوا أيضًا أن يخرجوا **(أبو لهب)**، فأتى برجل كان عنده دَيْن له وقال له: اخرج بدلًا مني وسأدفع عنك دَيْنك.

فالمشهد الآن .. أن قريشًا تتجهز بجيش من ألف رجل، بينما النبي ﷺ معه ثلاثمائة وأربعة عشر رجلًا، ويبدو أن هناك شيئًا من أمر الله سيحدث.

ضرورة اختيار الصديق الحق

هناك مجموعة من التفاصيل في قصة «عقبة بن أبي معيط» عندما أتى بالبخور ووضعه أمام «أمية بن خلف» وقال له: **(تبخَّر، فإنما أنت من النساء)**. وظل يستفزه، فإن هذا الموقف نفسه حدث في السابق معه من أبي بن خلف، فعقبة بن أبي معيط كان سيؤمن مع النبي ﷺ وانجذب جدًّا للنبي ولكلامه، وكان **«أُبي بن خلف»** أخو «أُمية» صاحب القصة، فأخوه «أُبي» هو صاحب قصة خواتيم سورة يس، هو من أمسك قديمًا بالعظمة وفتتها حتى أصبحت كالتراب ثم قال للنبي ﷺ: **يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعدما رمَّ؟ فقال: «نعم، ويبعثك ويدخلك النار». فأنزل الله تعالى هذه الآيات:**

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ...﴾[يس: 78]

وأمية بن خلف أخوه ...هو من كان يعذب سيدنا بلال بن رباح بالصخرة الكبيرة، فعاد «أبي بن خلف» ذات يوم من سفر فوجد «عقبة» صديقه وقد ظهر عليه أثر الانجذاب للنبي ﷺ والخشوع، فقال له: **يا عقبة، لماذا دعوت محمدًا عندك في البيت؟)**. فأجابه عقبة بأنهما أكلا مع بعضهما فقط، فقال له: **(والله وجهي عن وجهك حرام إن لم تذهب إليه فتطأ عنقه)**.. أي تدوس على رقبته الشريفة، وما زال به حتى تغير قلب عقبة على النبي، وذهب عقبة وفعل هذا ومن وقتها انقلب وأصبح من أكثر من يعادي النبي ﷺ.

وتمر الأيام ويأتي «أمية» أخو «أُبيّ» لا يريد أن يخرج للحرب فيأتي «عُقبة» يقول له: **(تبخر، فإنما أنت من النساء)**. فيستفزه فيعزم أن يخرج مع المشركين لمحاربة النبي ﷺ، وينزل القرآن في أمثلة هؤلاء.. قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِيۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾[الفرقان :29-27]

فالشيطان هو الذي يقرب الناس الأشرار من بعضهم، فعندما يجد أحدهم انجذب إلى طريق الخير يأتي به مرة أخرى إلى منطقة الشر والإيذاء.. وهذا يجعلك تأخذ حذرك من قلبك وتعرف من يحبك حقًّا وينصحك ويقربك من كل خير، ومن لا يحبك وعندما يُخطئ يشركك معه، فمن يحبك عندما يعصي فإنه يعصي بمفرده بسبب ضعفه ولكن إذا أشركك معه في الخطأ فاحذر منه؛ لأنه يوم القيامة ستكون المشاحنة كبيرة بين كل من أضل الناس وبين من اتبع كلامه وفعل فعله.

أحداث مهمة قبل بداية الحرب

يأتي الخبر لسيدنا رسول الله ﷺ في المدينة، ويبدو أن النبي ﷺ كان لديه عيون تشبه «أجهزة الاستطلاع»، فعلم أن أبا سفيان نجا بالقافلة وأن هناك جيشًا يتجهز للخروج من مكة، فبدأ النبي ﷺ يغير من خطته تمامًا وأصبحت حربًا، فأول ما فعل أنه جهز نفسه بالمتاح والمستطاع، فكان كل ثلاثة رجال يتعاقبون على جمل واحد؛ أي أن كل رجل يمشي 2/3 المسافة ويركب 1/3 المسافة، وكان يشترك مع النبي ﷺ في جمله (***سيدنا أبو لبابة***) و(***سيدنا علي بن أبي طالب***) فقالا له: يا رسول الله، سندخل على حرب فاركب أنت وسنمشي؛ لأننا أصغر منك سنًّا. فقال ﷺ:

«ما أنتما بأقْوَى منِّي، ولا أنا بأغْنَى عن الأَجرِ منكما»[(143)]

ويرى النبي ﷺ سيدنا (عبد الله بن عمر) وكان طفلًا وقتها وأراد أن يخرج معهم، فرده ولم يعطه الإذن؛ لأننا لا نستغل الأطفال في الحروب.. يقول سيدنا عبد الله بن عمر عن هذا الموقف: **(فبِتُّ بِشَرِّ ليلة)**. فقد أراد أن يخرج معهم ويدافع عنهم .

وكان جميع ما يملكه جيش المسلمين وقتها فرسين: **(حصان مع مرثد بن أبي مرثد، وحصان مع الزبير بن العوام)**، وجميع من في الجيش كانوا يمشون على أقدامهم، وكأنها حرب لا يوجد بها إلا سيارتان فقط.

من الذي لم يخرج إلى هذه الغزوة من المسلمين؟

لم يخرج فيها سيدنا « **عثمان بن عفان**» زوج السيدة «رقية» بنت النبي ﷺ؛ وذلك لأن السيدة رقية رضي الله عنها كانت مريضة مرضًا شديدًا، فأذن له النبي ﷺ ألا يخرج وأن يبقى بجانبها؛ لأن هذا هو وقت السند والدعم والعون، وبالفعل لم يخرج سيدنا عثمان بن عفان للحرب وترك الجهاد في سبيل الله من أجل الجهاد الأول الذي وصاه به النور ﷺ بأن يبقى مع زوجته ليطببها.

وأيضًا لم يخرج سيدنا «**سعد بن عبادة**»، وقد كان سيدًا من سادات الأنصار؛ بسبب أن حيَّة لدغته، فبقي حتى يُطبب ويُعالج من أثر اللدغة.

ولم يخرج «**حذيفة بن اليمان وأبوه**»؛ بسبب وعد قديم وعداه لمكة؛ لأنهما عندما خرجا للهجرة إلى المدينة أمسك بهما أهل مكة فوعداهم أنهما إذا تركوهما يذهبان للمدينة فلن يحارباهم أبدًا، فقالا: **(والله لا ننصره عليكم)**. أي أننا لن نقف في حرب ضدكم.. وبالفعل ذهبا للنبي ﷺ وقصا عليه ما حدث بينهما وبين قريش عند الهجرة وعن وعدهما لهم، فقال لهما النبي ﷺ:

> «انْصَرِفَا، نَفِي لهمْ بعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَّ عليهم»(144)

فتأمل قِيَم النبي ﷺ وهو يعلمنا ألا نتنازل أبدًا عن القيم من أجل أي منفعة.. فإذا أخذنا العهد مع أحد فلا يجوز أن ننقضه، والله سيعيننا عليهم بإذن الله.

وقد استخلف النبي ﷺ **(عبد الله بن أم مكتوم)** الكفيف حتى يكون مكانه في المدينة يؤذن للناس ويصلي بهم.. ثم يجلس النبي ﷺ مع أصحابه قبل أن يتحرك ويقول:

> «أَشِيرُوا أَيُّها النَّاسُ عَلَيَّ»(145)

فأجابه سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر بأننا معك يا رسول الله، وقام سيدنا (المقداد بن عمرو) – وكان من المهاجرين – فقال: (يا رسول الله، والله لا نقول لك مثلما قالت بنو إسرائيل لموسى:

> ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[المائدة:24]

ولكن نقول: **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والله لو خضت بنا برك الغمام لخضناه معك ما تخلف منا أحد)**. «برك الغمام» هي منطقة خطيرة بها قبائل معادية.

وكأنه يقول إننا مستعدون أن نذهب معك في أي مكان، فقال النبي ﷺ:

«**أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ**».. فقام سيدنا سعد بن معاذ-سيد الأنصار- وقال: **(لكأنك تريدنا يا رسول الله؟)**. قال: «**أجل**»[146]

الأنصار عددهم مائتان وواحد وثلاثون رجلًا، والمهاجرون ثلاثة وثمانون رجلًا، فالجيش أكثره من الأنصار.

فقال: **(يا رسول الله، لقد جئتنا بالحق فآمنا بك وصدقناك وأعطيناك العهود والمواثيق أن نحميك مما نحمي منه أنفسنا ونساءنا وأولادنا...والله يا رسول الله لو خضت بنا البحر - لو دخلت بنا المياه الغريقة - لخضناه معك ما تخلف منا أحد .. والله يا رسول الله لتجِدَنَّنا صُبرًا عند الحرب صُدُقًا عند اللقاء)**.. فلا يوجد أحد ما يعطي ظهره أبدًا.

فاستبشر النبي ﷺ بكلام المهاجرين، واستبشر بكلام الأنصار وقال:

«**سيروا وأبشروا؛ فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم**»[147]

الوفاء بالعهد من أهم أخلاق المسلم

بالنسبة إلى موقف (حذيفة بن اليمان ووالده) وأنهما لم يخرجا في غزوة بدر؛ لأن النبي ﷺ أمرهما بهذا.. كان هذا الموقف من أغرب المواقف لدي في السيرة ومن أحبها إلى قلبي وأكثرها نورًا.. فبالرغم من أنهم مشركون كفار يحاربوننا وعددهم ثلاثة أضعاف عدد المسلمين ونحن نحتاج إلى كل رجل، لكن قيمنا أكبر من كل ذلك، فنحن لا نتنازل عن قيمنا من أجل مصالحنا ومنافعنا .. فعندما أخبر سيدنا حذيفة بن اليمان النبي ﷺ بما حدث معهما أثناء خروجهما للهجرة من مكة وبأنهم أمسكوا بهما على أبواب مكة ولم يتركوهما حتى قالا لهم بأنهما لن يحاربا مع النبي ﷺ ضدهم، تركوهما حينها بالرغم من أن مشركي مكة هم المعتدون؛ لأن الصحيح والمفترض أنهم ليس لهم شأن بهم وليس لهم أن يمنعوهما من الخروج، ولكن النبي ﷺ أخبرهما أنهما ما داما أعطيا وعدًا، فيجب أن ينفذاه، فعندما وعداهم بأنهما لن يحاربا مع النبي ﷺ ضدهم، كبَّر النبي ﷺ هذه الكلمة؛ لأن الإنسان يحترم نفسه إذا احترم كلمته.. فمثلًا إذا وعدتُ وعدًا وأخلفتُه أنظر إلى نفسي وكأني صغير ليس لي كلمة، وتكون صورتي أمام نفسي أني كنت أضعف وأجبن من أن ألتزم بكلامي.

وبالمناسبة فيمكن للإنسان أن تكون سمعته سيئة على غير وعي منه بسبب أنه «فنجري بُق»، أي دائمًا ما يقول كلامًا ووعودًا ولا يلتزم بها، فيعرفه الناس بذلك ولا يصدقونه فيما يقول بسبب تاريخه معهم في عدم الالتزام بالكلام .. ولكن الموضوع هنا مختلف؛ فقد قال لهما النبي ﷺ: «**نَفِي لهمْ بعَهْدِهِمْ،**

وَنَسْتَعِينُ **الهَ عليهم**». وهنا الكثير من الأنوار في حياتك .. فعليك أن تعرف معنى وجود إنسان يُعاشَر وتتمنى قربه، فمن ليس له كلمة يلتزم بها يفقد قيمته بين الناس.

نقطة أخيرة هنا..

أهمية الشورى وتأثيرها على النفس

تأمل كلام النبي ﷺ وهو سيد الأولين والآخرين لأصحابه أثناء خروجهم في غزوة بدر عندما قال لهم: «**أشيروا أيها الناس عليَّ**». فهو ﷺ لم يأمرهم أو يفرض عليهم رأيه ولكنه استشارهم، وهو يريد بذلك أن يربيهم ويأخذ برأيهم، فهو يربي الرجال وينير لنا بيوتنا ويعلمنا طريقة تعاملنا مع بعضنا سواء كنا (مديرين في شركة مع موظفين، أو أصحابًا مع بعضنا، أو أبًا وأمًّا يربيان أولادهما).

فاستشر ابنك وخُذ برأيه مثلًا في ترتيب المنزل، واستشر بنتك مثلًا في اختيار ألوان ملابسك وتنسيقها؛ فبالرغم من أنك تملك الخبرة سنوات كثيرة عنها وأضعافًا كثيرة، ولكن الأخذ برأيها يُعظِّم من نظرتها لنفسها وأن رأيها مهم ويؤخذ به .. فأخْذ رأي أولادك وإشراكهم معك في بعض الأمور يربي لديهم شيئًا من الثقة لا يتكون إلا عن طريقك .. فتأمل أنوار النبي ﷺ في كل خطوة من خطوات حياتك.

تردد بعض المسلمين واستغاثة النبي ﷺ بربه

بدأ جيش المسلمين بعدده الصغير يتحرك في اتجاه بدر.. في اتجاه منطقة تُسمى «العدوة الدنيا»، بينما جيش المشركين وصل إلى منطقة «العدوة القصوى» .. فالله - سبحانه وتعالى- ذكر ذلك في سورة الأنفال كما سنوضح ذلك.. فجيش المسلمين عددهم قليل؛ لأنهم لم يُعِدُّوا العدة للحرب، وإنما كان قصدهم فقط هو استرداد أموالهم المنهوبة عندما علموا بموضوع القافلة التي أتت بالقرب من المدينة .. فكان الكثير من الناس غير موجود، منهم من كان في التجارة، ومنهم من كان خارج المدينة، فبعض المسلمين خافوا ولم يريدوا أن يخرجوا لمواجهة جيش العدو؛ لأنهم غير جاهزين وبدءوا يجادلون النبي ﷺ في هذا الأمر ويقولون له: (**يا رسول الله، ما نحن بأقدر على قتال قريش**).. وهنا ينزل القرآن بقوله تعالى:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[الأنفال :5-7]

أي أن الله وعدكم بإحدى الطائفتين؛ إما الانتصار عليهم، وإما استرداد أموالكم المنهوبة، ولكن بعضكم لا يريد تحمل مشقة المواجهة .. ويثبت الصحابة بكلام رب العالمين ويعلمون أن المدد من الله .. فبالفعل تحركوا ووصل جيش المسلمين إلى «العدوة الدنيا» ووصل جيش المشركين إلى منطقة «العدوة القصوى» وبدأ يخرج رأي من معسكر المشركين يقولون لأبي جهل: فلنرجع ولا داعي للحرب فقد نجت

القافلة وغيرت طريقها وهم أعدادهم قليلة فلن يخافوا على أنفسهم وسيقاتلون حتى آخر لحظة، فحتى إذا قتلناهم جميعًا فسيقتلون منا أيضًا، فلمَ هذا؟ فلا داعي له .. فقال أبو جهل: **(أبدًا، والله لنمكثن هنا فنوقد النيران وتعزف القينات - أي ترقص الراقصات وتعزف الموسيقى - فتنظر إلينا العرب فلا يزالون يهابوننا)**.

وهنا ينزل أيضًا القرآن، قال تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[الأنفال :47]

فهم خرجوا للكِبر والتباهي وليس لنصرة الحق.

ويدعو النبي ﷺ لأصحابه فيقول: **«اللهم إنهم حُفاة فاحملهم، عُراة فاكسهم، جِياع فأشبعهم»**. وتأتي الأحداث مليئة بعون من رب العالمين ومدد للنبي ﷺ وأصحابه.

وذهب الصحابة للراحة والنوم .. فالنوم أمان ويغير من حال الإنسان وحالته وأفكاره، لكن عندما نام بعضهم استيقظ وهو مُحتلم فجاءت في بالهم أفكار بأنهم كيف سيحاربون وهم محتلمون والماء معهم لا يكفي للاغتسال إنما يكفي فقط للشرب.. فماذا سنفعل؟

وهنا يقول تعالى في القرآن:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[الأنفال :11]

فإذا بالأمطار تنزل، فالمكان الذي نزل فيه النبي ﷺ عندما نزلت فيه الأمطار ثبتت الأقدام؛ لأنه كان من الرمال التي جفت فيما بعد، أما المكان الذي نزل به المشركون - العدوة القصوى - فعندما نزلت فيه الأمطار أصبح طميًا وبدءوا ينزلقون منه وحدث بينهم شيء من الارتباك.

فكرة سيدنا الحُبَاب بن المنذر.. سبب من أسباب النصر

وجاء سيدنا (الحباب بن المنذر) إلى النبي ﷺ يستفسر منه هل هذا المكان الذي يقفون فيه هو خطة من عند النبي وأنها حرب ومكيدة أم أنه أمر من رب العالمين ووحي، فقال له: **(يا رسول الله، أهذا منزل أنزلكه الله أم هي الحرب والرأي والمكيدة؟)** فلو كان منزلًا أنزلكه الله ما تكلمت، لكن إذا كانت غير ذلك فأريد أن أوضح أمرًا. فقال النبي ﷺ:

«هو الرَّأيُ والحَربُ والمكيدَةُ»(148)

قال: **(إذن يا رسول الله هذا ليس بالمنزل، نحتاج إلى أن نتحرك، فننزل بالقرب من آبار بدر فنردم الآبار إلا بئرًا واحدة، فنشرب ولا يشربون)**. فقال النبي ﷺ:

> **«يا حباب، أشرت بالرأي»**[(149)]

ويحفظ لنا التاريخ وكتب السير أن الحباب هو صاحب الفكرة بسبب أن النبي ﷺ قال: أصبت يا حباب. فإن التغيير في هذه اللحظة كان أحد أسباب النصر، فبسبب سيدنا الحباب بن المنذر الذي لم يعرفه أغلب المسلمين ولكن الله تعالى يعرفه والنبي ﷺ أعجب بفكرته وحفظها له؛ تحقق النصر للمسلمين.

ويقف الجيشان أمام بعضهما، ولا يزال هناك معجزات سنسردها في السطور القادمة، وتأييد من الله تعالى الذي يقول في القرآن:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[آل عمران :123]

الخوف شعور فطري ولكن كيف نتعامل معه؟

قصة جدال الصحابة لسيدنا محمد ﷺ قبل الخروج لبدر وعدم رغبة بعضهم في الحرب قصة مليئة بالأنوار.. لماذا؟ لأن الشجاعة هي فن التعامل مع الخوف، فالخوف شعور فطري خلقه الله بداخلنا، والعجيب أن الله تعالى تكلم في أكثر من موضع عن خوف سيدنا موسى (خوف سيدنا موسى من الحية) وأنه كان خوفًا طبيعيًّا جدًّا من مخلوق يسبب الموت، ثم عن (خوف سيدنا موسى من جموع السحرة وما ألقَوا من الحبال)، وهذا أيضًا خوف طبيعي من الكثرة، ثم (خوف سيدنا موسى من إنسان يبطش مثل فرعون)، قال تعالى حاكيًا عن سيدنا موسى في هذا الموقف:

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾[طه :45]

أي نخاف أن يستخدم القوة الشديدة علينا ونحن اثنان فقط في مواجهته،

﴿قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه :46]

فتأمل حتى الكبار يخافون؟ نعم، ولكن عندما يخاف الكبار يتعاملون مع الخوف فيأخذون بالأسباب، وكأن الخوف خلقه الله حتى تأخذ التدابير التي تؤمِّنك.

أهمية الدعاء باليقين في الله

خطوة أخرى فعلها النبي ﷺ، وهي أنه رفع يديه وبدأ يدعو الله ويقول:

> **«اللَّهمَّ إنَّكَ إنْ تُهلِكْ هذهِ العِصابةَ مِن أهلِ الإسلامِ، فلا تُعْبَدُ في الأرضِ أبدًا»**[(150)]

وهنا نورلنا.

فراجع نفسك، هل أنت تدعو الله إذا شغلك موضوع كبير في حياتك أم لا؟ فكما أنه عليك أن تأخذ بالأسباب وتبذل ما في وسعك حتى تحل مشاكلك، فمن بين الأسباب الكبيرة جدًّا أن تقول: (يا رب). فمثلما تطرق جميع أبواب الرزق وتلجأ لأقاربك ومعارفك (قل يا رب)، فالله تعالى قادر على حل جميع مشاكلك، فإذا كنت مُقصِّرًا في الدعاء فراجع نفسك وجدد نيتك برغبتك في تحقيق الذي تتمناه من أهدافك أو جديتك في تحمُّل مسئولية مشاكلك؛ لأن الذي لا يدعو الله قد ترك بابًا كبيرًا جدًّا .. فمثلًا إذا كنت تعرف مسئولًا كبيرًا في البلد سيحل لك مشاكلك، فهل يوجد مسئول أكبر من رب العالمين سبحانه وتعالى؟

﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن :29]

فهو الذي يعطي هذا ويمنع هذا، ويفرح هذا ويبتلي هذا، ولا يشغله هذا عن هذا، سبحانه وتعالى .. فادعُ الله دائمًا مثلما فعل النبي ﷺ، فبينما وجد الصحابة مترددين رفع يديه بالدعاء وقال:

«اللَّهمَّ إنَّهم حُفاةٌ فاحملْهم، اللَّهمَّ إنَّهم عُراةٌ فاكسُهم، اللَّهمَّ إنَّهم جياعٌ فأشبعهم»[151]

لأن من أهم الأبواب التي تطرقها وأنت تأخذ بالأسباب لسد مخاوفك أن تقول: يا رب. فهو سبحانه مَن بيده كل شيء.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد الدال عليك والمُوصِّل إليك صلاةً ينفرج بها كل ضيق وتعسير، وننال بها كل خير وتيسير، وتشفينا من الأوجاع والأسقام، وتخلصنا بها من المخاوف والأوهام.

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، وثبِّت على عبادتك وحُب نبيك وخدمة عبادك أقدامنا، وانصرنا يا مولانا على أنفسنا.

---

(141) رواه الدارقطني.
(142) رواه الحاكم.
(143) رواه أحمد.
(144) رواه مسلم.
(145) رواه البخاري.
(146) رواه ابن هشام.
(147) رواه ابن هشام.
(148) رواه ابن إسحاق.
(149) رواه الحاكم.
(150) رواه مسلم.
(151) رواه أبو داود.

15

معركة بدر

قبل معركة بدر ونزول الملائكة

سنستكمل أحداث العام الثاني من الهجرة، الذي ستبدأ فيه أحداث معركة بدر العظيمة، التي وقعت في اليوم السابع عشر من رمضان، ودعنى أُذَكِّرك عزيزي القارئ بسبب الغزوة؛ فقد أتى الأمر من الله سبحانه وتعالى أن يخرج النبي ﷺ مع مجموعة من المسلمين بأسلحة بسيطة جدًّا حتى يستردوا أموالهم المنهوبة من أهل مكة، والتى أخذوها وخرجوا بها في قافلة بقيادة أبي سُفيان، ولكن عندما علم أبو سفيان بالأمر غيَّر خط سير القافلة وأرسل شخصًا إلى مكة يخبرهم بأنه يريدهم أن يخرجوا بجيش لمحاربة محمد وأصحابه؛ لأنهم يريدون أن يستولوا على القافلة، وبالفعل تجهزت قريش بجيش كبير وكان عددهم ألف مقاتل وصلوا إلى منطقة تسمى (العدوة القصوى)، وعندما علم رسول الله ﷺ بالأمر عرف أنها الحرب وليست مجرد مواجهة لاسترداد الأموال المنهوبة، فاستشار أصحابه فأجابوه بأنهم معه لا يتركونه أبدًا وسيحاربون معه حتى النصر، ووقف النبي ﷺ يدافع عن المدينة في مجيء الجيش الذي أراد محاربته ﷺ وهو وأصحابه قرب المدينة، واختلف المشركون؛ فمنهم من رأى أن يعودوا من حيث أتوا بعدما علموا أن أبا سفيان نجا بالقافلة وبدَّل طريقه، ولكن أبا جهل رفض وأصَرَّ على الحرب وقال إنهم سيظلون جالسين؛ ترقص النساء وتعزف المعازف، ويوقدون النار العظيمة حتى يهابهم العرب.

فاضطر النبي ﷺ إلى أن يخوض المعركة، وتردد بعض المسلمين في دخول الحرب، ولكن نزل القرآن يثبتهم بقوله تعالى:

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[الأنفال:6، 7]

فقد وعدهم الله ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾.. إما الانتصار، وإما استرداد أموالهم المنهوبة.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾.. أي أن بعضهم لم تكن رغبته في القتال.

وبدأ نهار يوم مختلف جدًّا في تاريخ دعوة النبي ﷺ وفي تاريخ أعدائه؛ ولذلك سُميت الغزوة بـ«يوم الفُرقان»، وصل الجيش إلى مكان المعركة، فاقترح سيدنا أبو بكر الصديق وسيدنا سعد بن معاذ على سيدنا رسول الله ﷺ أن يبنوا له عريشًا - خيمة - وقالوا له: يا رسول الله، وتوضع الركائب حولك، فإذا انتصرنا فبها ونعمت جئت لنا، وإذا انهزمنا ركبت على ركائبك ونجائبك - الخيول والجمال - فلحقت بالمدينة. قالوا له هذا الأمر؛ لأن أغلب المسلمين كانوا يقيمون في المدينة وبعضهم كان في رحلات التجارة، ولم يخرجوا مع سيدنا محمد ﷺ، بينما مجموعة قليلة منهم فقط مَن قررت الخروج بصحبة النبي لاسترداد الأموال، ولم يكن في حسبانهم أنها ستكون حربًا، فوافق النبي ﷺ على هذا الاقتراح الذي كان بوحي من رب العالمين سبحانه وتعالى.

ثم بدأ النبي ﷺ بترتيب الجيش، وبعدما صفَّ الجيش جلس وخلفه أبو بكر وبدأ يدعو الله تعالى بلجوء واستغاثة، وقد ذكرالله تعالى هذه الحالة في القرآن فقال:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ..﴾[الأنفال: 9]

وكان يدعو فيقول:

«اللَّهمَّ إنَّكَ إنْ تُهلِكْ هذهِ العِصابةَ مِن أهلِ الإسلامِ، فلا تُعْبَدُ في الأرضِ أبدًا»[152]

«العصابة»: أي المجموعة من الناس.

وأكمل الدعاء فقال: **«اللهم نصرك الذي وعدت...»**. وظل النبي ﷺ يدعو حتى ظهر بياض إبطيه من كثرة رفع يده، وسيدنا أبو بكر الصديق يقول له: **(يا نبي الله، بعضَ مناشدتك ربك؛ فإن الله مُنجزلك ما وعدك)**؛ أي مهلًا يا رسول الله فإن الله سينصرك، وما إن انتهى رسول الله ﷺ من دعائه وإذا به يلتفت إلى سيدنا أبي بكر ويقول له:

«أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه الغبار»[153]

أي أنه رأى سيدنا جبريل متجهزًا للقتال وجسده عليه التراب من شدة تحمسه في المعركة.

قال تعالى:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال: 9]

أي ينزلون متتابعين بسرعة، ويقف النبي ﷺ، ويقف الجيش، والنبي ﷺ مطمئن يشجعهم، وإذا بشيء يحدث حتى قبل بدء المعركة؛ لأن النبي وأصحابه قرروا عدم البدء بالقتال وإنما فقط الدفاع عن أنفسهم، وإذا بسهم طائش يستقر في قلب «سيدنا حارثة»، وقد كان أول شهيد في هذه المعركة لدرجة أن الحرب لم تكن قد بدأت، فأتت أم سيدنا حارثة مسرعة إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: **(يا رسول الله، هل حارثة شهيد فأفرح أم هو غيرذلك فأجتهد عليه في البكاء؟)**. فقال النبي ﷺ:

«هَبِلْتِ! أجَنَّةٌ واحِدَةٌ هي؟ إنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وإنَّه في الفِرْدَوْسِ الأعْلَى»[154]

ويبدو أن قريشًا ستكمل استفزازها للمسلمين لبدء المعركة من طرفهم.

أهمية الدعاء في حياتنا

إذا تنبهت فستلاحظ أن سيدنا النبي ﷺ ظل يدعو:

«اللَّهمَّ إنَّهم حُفاةٌ فاحمِلْهم، اللَّهمَّ إنَّهم عُراةٌ فاكسُهم، اللَّهمَّ إنَّهم جياعٌ فأشبعهم»[155]

وهنا رفع يديه بالدعوة الشهيرة: «**اللهمَّ إنّكَ إنْ تَهلِكْ هذهِ العِصابةَ مِن أهلِ الإسلامِ، فلا تُعْبَدُ في الأرضِ أبدًا**». وكأن الدعاء عبادة مصاحبة للنبي ﷺ في جميع تفاصيل وخطوات حياته، وهذا نورهام جدًّا لنا، ومن الممكن أن يكون هذا من معاني: (**إن الله يحب العبد اللحوح**)؛ أي الذي يدعو الله في كل شيء، فادعُ الله في أبسط الأشياء، مثلًا: أن يكون مذاق الأكل شهيًّا ومناسبًا لذوقك، أن أجد مكانًا لركن السيارة، أن يقتنع ابني برأيي، أنه عندما يؤذن الأذان يقوم كل من في البيت للصلاة .. يا رب .. يا رب.

فالدعاء هو عبادة مصاحبة لكل فقير، ونحن جميعًا فقراء إلى الله، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[فاطر: 15]

حميد: أي يرزق رزقًا يُحمد عليه سبحانه وتعالى.

نقطة أخرى.. أنت تحتاج دائمًا لرب العالمين حتى إذا كان كل شيء لديك وتملكه، فأنت تحتاج إلى أن تدوم النعم التي تملكها، وهذا ما يُسمى (العافية)؛ أي بقاء النعمة.

فإذا فكرت في أنك لا تريد شيئًا معينًا اليوم لتدعو به فلتتذكر أن الصحة نعمة تحتاج إلى أن تدوم عليك، والمال نعمة، وهي سبب في استقرار حياتك، تريد أن تدوم.

فمن لا يدعو الله دائمًا مُقصِّر في حق نفسه.

نزول الأمان على قلوب الصحابة ومشاركة الملائكة في القتال

قبل بدء المعركة اصطف الجيشان وخرج سهم طائش من صفوف المشركين فقتل سيدنا حارثة وأصبح شهيدًا، وبعدها حدثت معجزة من رب العالمين - سبحانه وتعالى- فقد حدث استهتار من المشركين بسبب أنهم رأوا المسلمين قليلي العدد عنهم، فالمشركون وقتها وصل عددهم إلى الألف، بينما المسلمون ثلاثمائة وأربعة عشر، وعلى الرغم من ذلك نزلت الطمأنينة والسكينة في قلوب المسلمين بسبب أنهم رأوا أن عدد المشركين أقل من حقيقتهم.. فالذي أخبرنا بهذا المشهد هو رب العالمين - سبحانه وتعالى- في سورة الأنفال والتي كان معظمها يسرد أحداث غزوة بدر، قال تعالى:

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[**الأنفال**: 44]

فسبحان الذي جعل عند المشركين «استهتارًا» وعند المسلمين « سكينة »!

فكيف بدأت المعركة؟

كما سردت سابقًا نحن لم نُرِد الحرب والقتال ولكننا أردنا الدفاع عن أنفسنا، وهنا خرج ثلاثة من المشركين «العتاولة» الكبار وقالوا: (هل من مُبارز؟). فخرج ثلاثة من الأنصار فسألهم المشركون، قالوا: (من أنتم؟). قالوا: (**نحن فلان وفلان وفلان**). وذكروا أسماءهم، فقالوا لهم: (**لا حاجة لنا في**

قتالكم، يا محمد، أخرِجْ لنا من أكفائنا). أي أنهم أرادوا أن يفرقوا بين المهاجرين والأنصار فطلبوا من النبي ﷺ أن يُخرج لهم رجالًا من المهاجرين من قومهم في مكة، فقال النبي ﷺ:

«**قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي**»[(156)]

فـ«علي» ابن عم النبي ﷺ، و«عُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب» ابن عمه ﷺ أيضًا، و«حمزة» هو عم النبي ﷺ، أما الثلاثة من المشركين فهم: (عتبة بن ربيعة).. كبير في السن ولكنه ماهر جدًّا في القتال، و(الوليد بن عتبة بن ربيعة) ابنه، و(شيبة بن ربيعة) أخو عتبة.. وبدأ القتال.

سيدنا حمزة قتل (عُتبة)، وسيدنا علي قتل (الوليد)، وسيدنا عبيدة بن الحارث هو وشيبة كل منهما ضرب الآخر فأثخنا بعضهما في الجراح فوقعا على الأرض، فسيدنا علي وسيدنا حمزة قتلا شيبة بن ربيعة، وأخذا سيدنا عبيدة بن الحارث لسيدنا رسول الله ﷺ فعندما رآه دعا الله تعالى فقال:

«**اللَّهمَّ إنِّي أمسيتُ عنه راضيًا فارْضَ عنه**»[(157)]

واستشهد سيدنا (**عبيدة بن الحارث**)، ومن هنا بدأت الحرب كشأن الجيوش قديمًا، كان أحدهم يبدأ بالاستفزاز بالمبارزة، ثم تبدأ بعد ذلك الحرب.

ولكن في بداية الحرب حكى أحد الصحابة أنه في أثناء تجهيزه للمعركة وراء تل صغير جاءت سحابة وسمع صوتًا فيها يقول: (أقدِم حيزوم.. أقدِم حيزوم، فعرفت أنه الملك فارتجف فؤادي لكني تماسكت).. فسمع الصحابة صوت الملائكة وهم يشجعون بعضهم على النزول لقتال المشركين، فالمسلمون مؤمنون بالملائكة، وهذا أحد أركان الإيمان الستة: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره)، فنحن مؤمنون بهم وبدورهم في حياتنا من بداية صعود ملك الحسنات والسيئات، وملك الموت، والملك الذي يدعو ويستغفر لنا ونحن نصلي، وملائكة كثيرون جدًّا يسيرون وسطنا.. وهنا الخدمة التي أمرهم الله بها في المعركة هي (القتال مع المؤمنين).

سيدنا (عبد الرحمن بن عوف) يقول: (بينما أنا في وسط المعركة وإذا بـ«السائب بن أبي السائب»، كنا نعرفه بأنه قوي جدًّا، وإذا به يجلس على الأرض مُقيَّدًا، فقمت وأخذته فقلت له: من الذي أوثقك هكذا؟ فأجابني بأنه لم يعرف، فذهبت به إلى رسول الله ﷺ فسأله: «من الذي أوثقك يا سائب يا بن أبي السائب؟». قال: «والله لا أدري يا محمد، ولكن جاء فارس على فرس أبيض أوثقني وقام برمي على الأرض») .. وأخذوه أسيرًا، وسأوضح لك في السطور القادمة رحمة النبي ﷺ بالأسرى.

ولكن تأمل الذي حدث في المعركة لصاحب الحق، الطرف الذي لم يُرِد القتال وإنما أراد فقط استرداد أمواله المنهوبة، فهم يدعون الناس فقط إلى الله، وإذا أراد أحد الدخول في الدين فليؤمن، ومن لم يُرد فـ..

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[الكافرون :6]

فالصحابة قد تركوا أرضهم «مكة» وهاجروا إلى المدينة ليعبدوا الله تعالى بحرية وأمان وسلام، ولم يرغبوا في القتال ولا الحرب، ولكن أبا جهل بتكبُّره رفض السلام وأصَرَّ على القتال.

فما حدث في وسط الحرب هو أن النبي ﷺ قام وأخذ حفنة من التراب ورماها في اتجاه المشركين فـ«شاهت الوجوه». فراوي القصة يقول: (فما من أحد من المشركين كان يقف في الحرب إلا وهو يضع يده على عينه). فحفنة التراب التي ألقاها النبي ﷺ أصابتهم جميعًا بقدرة الله تعالى، قال تعالى:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال :17]

أي أن الله تعالى هو من ألقى التراب في أعينهم.

دور الملائكة في حياتنا الآن

نور في مشهد نزول الملائكة للحرب مع النبي ﷺ، فالحقيقة أن الملائكة ما زالت تحارب معنا ولا بد أن تؤمن بذلك، فالملائكة موجودون في كل مكان يحاربون معنا في ميادين الحياة المختلفة، فالله تعالى يقول:

﴿حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[غافر: 7، 8]

فيدعون لك أن يغفر الله لك ويدخلك الجنة أنت وأهلك جميعًا،

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾[غافر :9]

ويدعون الله لك أن يحميك من شر نفسك.

ليس هذا فقط، وإنما قال النبي ﷺ:

> **«في القلب لَمَّتان: لمة من الملك؛ إيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله، ولمة من العدو؛ إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم»**[158]

فالشيطان مثلًا يثبطك عندما تريد أن تستيقظ مبكرًا لتبحث عن عمل فيقول لك إنه لا يوجد عمل وإن المجال كله بالواسطة، وحتى إن وجدت العمل فالدنيا فانية لا تستحق أن تتعب فيها، ويظل يوسوس لك بكلام يكسر عزيمتك وإرادتك.

فمثلًا يوسوس لك الشيطان بعدم أهمية صلاتك؛ لأن الكثير من الناس يصلون وحياتهم ليست الأفضل، على عكس المَلَك الذي يعدك دائمًا بالخير، ويذكرك بقوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾[الطلاق: 2]

فينصرك الملك في حربك مع شيطانك، فبينما يدعوك الشيطان للكسل وعدم العمل، يعدك الملك ويذكرك بوعد الله بأنه سيخلف عليك ويوفقك، وبأنك مثلًا إذا تصدقت يخلف الله عليك بعشرة أضعاف حتى سبعمائة ضعف، ويذكرك بالآية من القرآن التي نسيتَها، فالنبي ﷺ هو من أخبرنا بذلك بما أسماه العلماء (الوارد الملائكي).. وهو شيء يُشبه الوحي، فهي فكرة تأتيك من المَلَك الذي يعيش معك، فعندما تدخل للنوم، قال النبي ﷺ:

«مَنْ بَاتَ طَاهِرًا بَاتَ فِي شِعَارِهِ مَلَكٌ فَلَمْ يَسْتَيْقِظْ إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِكَ فُلَانٍ، فَإِنَّهُ بَاتَ طَاهِرًا»(159)

فيبيت بين ملابسك يدعو لك، فالإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة، فراجع هذه المسألة وراجع علاقتك وإحساسك بهذه المخلوقات التي تحبنا.

نهي النبي ﷺ عن قتل بعض المشركين

مستمرون في أحداث حرب بدر المليئة بالأنوار:

الحدث الأول: أن سيدنا النبي ﷺ قال:

«ومن لقي العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ فلا يقتله»(160)

فقريش قررت أن تُخرِج عائلة النبي ﷺ الذين ما زالوا يعيشون في مكة؛ منهم من لم يُسلِم، ومنهم من أخفى إسلامه مثل العباس .. أخرجوهم للقتال في الحرب حتى يُقتلوا فيفجعوا النبي ﷺ ويحزنوه عليهم، وكان منهم العباس بن عبد المطلب الذي خرج مُكرهًا.

وقال النبي ﷺ:

«ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله»(161)

أبو البختري هو الرجل الذي قديمًا وقت الحصار في شِعب أبي طالب لم يعجبه الظلم الواقع على النبي ﷺ وعائلته وعلى المسلمين في حصارهم بلا طعام ولا ماء ولا تجارة، فبرغم أنه مُشرِك، لكنه لم يرض أن يموت المسلمون من الجوع، فذهب وكان سببًا في نقض الصحيفة التي عُلِّقت على الكعبة؛ ولذلك أمر النبي ﷺ بعدم قتله وفاء لموقفه القديم مع المسلمين .

فأحد الصحابة خرج فقال: **(أنقتل آباءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك عم رسول الله ﷺ؟! والله لو وجدته في الحرب لألجمنَّه السيف؛ أي أقتله شر قتلة)**. فعندما وصل هذا الكلام إلى سيدنا عمر والنبي

ﷺ، نظر النبي ﷺ لسيدنا عمر وقال له: «**أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف ؟**».. فقال عمر: (**يا رسول الله، دعني أضرب عنقه**). يقصد الصحابيَّ الذي أقسم على قتل العباس إذا وجده في الحرب وكان اسمه (**أبو حذيفة**) ليس (حذيفة بن اليمان)، فأشار النبي ﷺ بأن: لا يا عمر، وكأنه يدافع عنه بأن ما قاله من حماسة القتال، وأوصى سيدنا عمر بألا يقتله.

ويحكي سيدنا العباس فيقول إنه جاءه أحد الصحابة ويُسمى (أبو اليَسَر)، وكان ضعيف الجسد والعباس كان ضخمًا، فيقول الصحابي: (**رأيت العباس يقف أمامي لا يحارب وينظر من بعيد على القتال فأمسكت به وهو ساكن**). وعندما ذهب به إلى النبي ﷺ وكأن النبي ﷺ سأله كيف أمسك به برغم اختلاف قوتهما! فالعباس قال: (**والله وكأني موثوق**). فقال النبي ﷺ:

«**لقد أعانك عليه ملك كريم**»[(162)]

فكان هناك مَلَك هو من أوثق سيدنا العباس؛ لأن الله أراده ألا يُقتل وإنما تم أسره.

أما أبو البختري بن هشام فرأوه في الحرب يحارب مع أصحابه، فعندما التقوا به قالوا له إن النبي ﷺ أوصاهم بعدم قتله، قال لهم: وزميلي؟ قالوا له: لو هجم علينا فسندافع عن أنفسنا. فبدأ زميله يهجم، وأبو البختري عندما رأى ذلك دافع عن زميله، فاضطر الصحابة إلى أن يدافعوا عن أنفسهم فقتلوا زميله وقتلوا أبا البختري ابن هشام؛ لأنه هو من هاجم أولًا ولم يستمع إلى كلامهم ولم يراع وصية رسول الله ﷺ به، ورفض أن يتنازل عن زميله وقال: (**لا أرجع إلى مكة فتعيرني النساء أني تركت صاحبي**).

مقتل أبي جهل

ومن المشاهد الرهيبة في الغزوة أن سيدنا عبد الرحمن بن عوف كان يقف في مكان وكأنه يتجهز، قال: (**فنظرت عن يميني وعن شمالي فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما كنت أحب أن أكون بين أضلع منهما، فجذباني وقالا: يا عم، أين أبو جهل؟ فقلت لهما: وما بكما بأبي جهل؟ قال أحدهما: لقد أُخبِرت أنه يسب رسول الله ويؤذيه، فوالله لئن لقيته في الحرب لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا**).

فأشار إليه وكان يركب على جمل ضخم .. يقول: فابتدراه فعاجلاه في وسط الحرب فقتلاه.

والروايات لا تقص ما حدث بينهم ولكن النتيجة أنهما قتلاه، فسيدنا النبي بعث بسيدنا عبد الله بن مسعود في إحدى الروايات بعدما انتهت الحرب يطمئن هل بالفعل مات أبو جهل.. هل بالفعل قتله الغلامان؟ هل مات من كان يعذب الناس ويقتل المسلمين وكان هو سِر الحرب كلها وسِر الكِبر؟ فوصل إليه سيدنا عبد الله بن مسعود إلى أن وجده نائمًا على ظهره وكان في الرمق الأخير، فحين رأى أبو جهل سيدنا عبد الله بن مسعود قال متكبرًا: (**لمن الغلبة اليوم يا رويعي الغنم؟**). أي يسب سيدنا عبد الله بن مسعود ويحقر من شأنه (رويعي) تصغير راعٍ.. فحتى الكِبر يملؤه وهو يموت، فأجابه: (**لله ورسوله**). ومات أبو جهل في هذا المشهد، وكان يوم الفرقان مثلما وصفه رب العالمين – سبحانه وتعالى –:

﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[الأنفال: 41].

وفاء النبي ﷺ في المعركة رغم الظروف القاسية

تأمل وفاء النبي ﷺ داخل الحرب التي كان جيش المشركين فيها ثلاثة أضعاف المسلمين ويريدون أن يبيدوا المسلمين ويدخلوا المدينة بعد ذلك.. وفي وسط كل هذا أوصى النبي ﷺ بعدم قتل (أبي البختري بن هشام)؛ لأنه كان سببًا في نقض الصحيفة الظالمة التي تم تعليقها على الكعبة والتي تسببت في حصار (بني هاشم وبني عبد مناف) عائلة النبي ﷺ والمسلمين في شِعب أبي طالب والتضييق عليهم اقتصاديًّا.. فأوصى النبي ﷺ بعدم قتله وفاءً لموقفه السابق، فبالرغم من أنه مشرك وخرج في الحرب إلا أن النبي ﷺ لم ينس موقفه السابق.

وهنا نستنتج:

أولًا: المؤمن لا بد أن يرى دائمًا الخير الموجود في الناس.

ثانيًا: المؤمن ليس متكبرًا، فعندما يقدم له أحد معروفًا يُقدِّر هذا المعروف، وذلك على عكس من كانت نفسه متضخمة، فعندما يتفاني مَن أمامه في خدمته يرد ردًّا باردًا وكأن خدمة الآخرين له حق مكتسب ولا داعي لشكر من حوله، ولكن الإنسان الطيب المتواضع عندما يقدم له أحد معروفًا لا ينساه ويراه جميلًا كبيرًا ويصير لديه امتنان للشخص الذي قدم له يد المساعده في يوم من الأيام.. ولذلك قال النبي ﷺ: «**ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله**».

تأمل في مشهد قتل أبي جهل

هلا تأملت كيف تم قتل أبي جهل أعتى عُتاة الكفر؟! من قتلاه غلامان صغيران هما مُعاذ ومعوِّذ ابنا عفراء، وقد أراحا البشرية من إيذائه.

وبالمناسبة فهناك الكثير من الناس لا نعرفهم ولكن الله يعرفهم بأعمالهم الصالحة، فمن الممكن ألا تعرف أسماء الجنود الذين كانوا يمسكون بمضخات المياه ودمروا خط بارليف وساووه بالأرض وكانوا سببًا من أسباب النصر، لم نكن نعلم أسماءهم كلهم ولكن الله يعلمهم، ويمكن أن يكون بسببهم نحن الآن نعيش بفضل الله في أمان في بلادنا.

أنت لا تعرف أسماء العساكر والضباط الموجودين على كمائن كثيرة على حدود بلادنا يتصدون للمجرمين حتى لا يصلوا إلى منازلنا .. نحن لا نعرفهم ولكن على أيديهم كانت نهاية عتاة المجرمين الذين كانوا من الممكن أن يؤذونا ويؤذوا أولادنا.. ولكن الله تعالى يعرفهم.

ولذلك قد تكون غير مشهور عند أهل الأرض ولكن الله يعرفك بعملك الصالح.

فمن قتل أبا جهل ليس سيدنا عمر بن الخطاب أو أبا بكر الصديق، ولكن قتله غلامان صغيران كان يقول سيدنا عبد الرحمن بن عوف: (**كنت أتمنى أن أكون بين أضلع منهما**).

فهناك عظماء سنُفاجأ بوقوفهم مع النبي ﷺ لا نعرفهم ولكن الله يعرفهم .

مواقف مهمة في معركة بدر

تبقى عدة مواقف في موقعة بدر أريد أن أسردها عليك:

قبل فرار المشركين وباقي الجيش قُتِل منهم سبعون من كبارهم، ومنهم (أبو جهل)، و(أمية بن خلف) الذي قتله سيدنا بلال، فأمية هذا هو من كان يعذبه ويضع الصخرة الكبيرة على بطنه حتى يرجع عن دينه، وكان يتركه في الصحراء الحارقة وسيدنا بلال يقول: (أحدٌ أحدٌ). فعندما رآه سيدنا بلال في المعركة هجم عليه وقال: (أمية عدو الله، لا نجوتُ إن نجا). وقام بقتله.

ولكن من ضمن المشاهد العجيبة أن سيدنا علي بن أبي طالب يقول: (**ولما احتدت المعركة رأينا رسول الله ﷺ أقربنا للمشركين، فكنا نلوذ برسول الله ﷺ ونحتمي به**). فلم يجلس النبي ﷺ في العريش الخاص به ولكنه عندما رأى أن المعركة قد اشتدت ووجد المشركين الظالمين اعتدوا على المسلمين خرج للقتال مع المؤمنين وكان في الصف الأول، فقد خرج عندما أخذ حفنة التراب وقال: «**شاهت الوجوه**». وألقاها على وجوه الكفار، وكان أشد الناس في القتال.

موقف سيدنا قتادة بن النعمان مع النبي ﷺ

موقف آخر لطيف جدًّا وهو أن سيدنا (قتادة بن النعمان) وهو يحارب جاءه سهم طائش في عينه ففُقئت وسالت على وجهه، فذهب إلى النبي ﷺ بعد المعركة وقال له: (**يا رسول الله، سالت عيني وإن لي امرأة أحبها وهي جميلة، فإني أخشى إن ذهبت إليها هكذا أن تقذرني - تتأفف مني وتتركني - فهلّا رددت علي عيني؟**). فتفل النبي ﷺ ومسح على عينه فعادت كما كانت.

فالله - سبحانه وتعالى - هو القادر.. فمن قدَّر الطبيب على أن يعالج المريض هو من قدَّر النبي ﷺ على علاج عين الصحابي بقدرته تعالى.. ولكن كان موقفًا لطيفًا أن يذهب ويخبر النبي ﷺ أنه يحب زوجته ويخاف أن تتأفف من شكله بعد إصابة عينه، فقد كانوا أشداء ولكن في الوقت نفسه كانوا بُسطاء جدًّا مع النبي ﷺ وكان ﷺ يعطيهم هذه المساحة.

نهاية أبي لهب المُخزية

ومن بين المشاهد التي لا تُنسى عندما عاد أبو سفيان إلى مكة وقابل أبا لهب الذي لم يخرج وأخرج بدلًا منه شخصًا كان مدينًا له بدَيْن فسدَّ عنه دَيْنه مقابل أن يخرج بدلًا منه، قال له أبو لهب: (**ماذا فعلتم؟**). قال أبو سفيان: (**والله لا نعلم، ما إن رأينا القوم حتى منحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا**). فقال له أبو لهب: (**أخزاك الله**). فأبو سفيان كان هناك رجل يقف بجانبه اسمه (**أبو رافع**)، وكان خادم سيدنا العباس، وأم الفضل زوجة العباس، فأبو لهب وجدهم فقال: (**ماذا حدث؟**)، فقال له: (**لقد لقينا فرسانًا لا قِبل لنا بهم**). فأبو رافع قال: (**والله إنهم الملائكة**). فقام أبو لهب فأمسك برافع وأوقعه على الأرض، فقامت أم الفضل زوجة سيدنا العباس وأتت بشيء يشبه العصا فضربت أبا لهب على رأسه

وقالت: (**أغاب عنه سيده؟**). فقام أبو لهب وهو متكبر وجرحه ينزف، فأصابته (**العَدَسَة**)، وهو مرض يشبه الطاعون، وكان جرحه قد تلوث تلوثًا شديدًا وحدثت له «غرغرينة» فيه، ولم تمضِ إلا أيام قليلة حتى مات، ولكن هذا المرض الذي أصابه كان مُعديًا جدًّا فخاف أولاده أن يدفنوه وتركوه حتى انتفخ، وبدأ القوم يسخرون منهم لعدم دفنهم أباهم، فبدءوا يلقون عليه الحجارة والتراب ودفنوه في المكان الذي مات فيه، وكانت هذه نهاية أبي لهب وشكل موتته .. قال تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[المسد: 1، 2]

عودة النبي ﷺ إلى المدينة وموت ابنته رُقية

ويعود النبي ﷺ إلى المدينة ويأتي سيدنا زيد بن حارثة يبشر أهل المدينة بانتصار النبي ﷺ. وعلى الرغم من هذا النصر الذي تحقق للنبي ﷺ والمسلمين، فقد ابتلى الله النبي ﷺ بفقد ابنته (رقية)، وهكذا القائد يكون نصيبه من الأعباء والابتلاءات أكثر من الأفراد العاديين. عندما وصل النبي ﷺ وجد سيدنا عثمان بن عفان يقف على قبر السيدة (رُقية) التي توفيت في مرضها، فبكى النبي ﷺ؛ فلم يلحق دفنها ولكنه وقف على قبرها ودعا لها.

عاد الصحابة وعاد المشركون.

عاد الصحابة المسلمون بالنصر، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[آل عمران: 123]

أي عددكم قليل، ورغم خوف بعضكم فقد نصركم الله وأيدكم بالنصر على أعدائكم.

أما المشركون فعادوا بغيظ شديد جدًّا؛ لأن كبار زعمائهم قد قُتِلوا أو أُسِروا في هذه المعركة.

مشاهد من نور

قصة سيدنا (قتادة بن النعمان) المقاتل الباسل المغوار الذي من شدة قوته في القتال سقطت عينه على وجهه ولكنه كان يحب زوجته، وهو من تكلم ببساطة في هذا الأمر مع النبي ﷺ.

وهذا الموقف مليء بالنور الشديد الذي علينا أن ننتبه له في حياتنا. فهل يتحدث معك الناس ببساطة أم أنك كثيرُ العتاب والملامة لمن حولك؟

ستلاحظ أنه بعد حرب شديدة لم يقل: كيف أتحدث مع النبي ﷺ في هذا الأمر؟ ولكنه يعلم أن النبي ﷺ سيشعر بما يقوله؛ سيشعر بحبه لزوجته وبمدى خوفه من خسارتها ورفضها إياه بسبب شكله بعد ما حدث له .. فسيدنا قتادة الذي كان ظهره وكتفه مع النبي ﷺ في القتال أثناء الحرب، واحد من أعظم الناس، فقد قال النبي ﷺ:

«لَعَلَّ اللهَ عزَّ وجلَّ اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[63]

وأيضًا هلَّا لاحظت أن النبي ﷺ طلب من سيدنا عثمان بن عفان أن يجلس بجانب زوجته (رقية) بنت النبي ﷺ أثناء مرضها، وألا يخرج معه في الحرب بالرغم من قلة عدد المسلمين في المعركة وفي الوقت الذي هم في أشد الحاجة إلى كل صحابي؟ وكأنه يقول له إن زوجته تحتاج إليه بجانبها، ونصيبه من الثواب محفوظ.

أكتب هذا الكلام لكل من جعل اللهُ في طريقه مريضًا أكرمه الله بخدمته، فأعرف أكثر من شخص جعل منزله كالمستشفى؛ لأن الشخص المريض – سواء والدته أو والده أو زوجته أو زوجها – لا يريد أن يكمل حياته في المستشفى ويريد أن يُمرَّض في بيته، فيقوم هذا الشخص المتطوع بتوفير الأكسجين والأجهزة الخاصة به ويحاول أن يوازن بين عمله وبين تمريض الشخص القريب منه في مرضه.. فأخبرك بأنك بذلك أصبحت في معية الله أربعًا وعشرين ساعة معية كاملة؛ لأن الله تعالى يكون عند المريض، فقد قال رب العالمين في الحديث القدسي:

> «مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قالَ: يا رَبِّ، كيفَ أعُودُكَ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ؟!»[(164)] أي كيف أزورك يا رب وأنت رب العالمين؟ قال: «أَمَا عَلِمْتَ أنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أمَا عَلِمْتَ أنَّكَ لو عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟»

أي لوجدتني بالرحمة والكرم.

فسيدنا عثمان بن عفان ظل بجانب زوجته المريضة إلى أن أسلمها إلى الله تعالى، وقد جبر خاطرها حتى آخر لحظة في حياتها.

وبالمناسبة فهذا هو التدين والقرب من الله الذي أضاء النبي ﷺ قلوبنا به.

اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد مصدر كل جمال وكمال، صلاةً تحفظنا بها في اليقظة والمنام، وتنجينا بها من نوائب الدهر ومتاعب الأيام، وعلى آله هُداة الإسلام، وأصحابه السادة الأعلام، وأزواجه الطاهرات الكريمات، واجمعنا معه يا ربنا في أعلى مقام، وارزقنا يا مولانا في جواره حُسن الختام، ووسِّع علينا في أرزاقنا حتى لا نمد أيدينا إلا إليك ولا نتوكل بقلوبنا إلا عليك

---

(152) رواه مسلم.
(153) رواه ابن إسحاق.
(154) رواه البخاري.
(155) رواه أبو داود.
(156) رواه البيهقي.
(157) رواه الهيثمي.
(158) رواه الترمذي.
(159) رواه ابن حبان.
(160) رواه الحاكم.
(161) رواه الحاكم.

(162) رواه أحمد.
(163) رواه البخاري.
(164) رواه مسلم.

16

زواج النبي ﷺ من حفصة وزواج علي من فاطمة

نكمل في هذا الفصل أحداث السنة الثانية من الهجرة بعد انتهاء غزوة بدر وقد أصبح عمر النبي ﷺ الآن خمسًا وخمسين سنة، فقد بُعث وعمره أربعون سنة، وظل ثلاث عشرة سنة في مكة ثم هاجر إلى المدينة وقضى فيها سنتين.

انتهت معركة بدر بمقتل سبعين من زُعماء الشرك في قريش، واستشهاد أربعة عشر صحابيًّا من أصل ثلاثمائة وأربعة عشر صحابيًّا خرجوا مع النبي ﷺ في هذه المعركة، وبمجرد أن عاد النبي ﷺ إلى المدينة إذا به يجد أن ابنته رُقية قد توفيت بمرض الحصبة، وكان سيدنا عُثمان بن عفان زوجها معها في مرضها وقد دفنها.

ثم وقعت العديد من الأحداث المهمة بعد غزوة بدر والتي من المهم أن تطَّلع عليها حتى تفهم النفسية الإيمانية وتفهم كيف كان النبي ﷺ يربي أصحابه وينير لهم طريقهم، فآخر مشهد حدث في معركة بدر أن النبي ﷺ عاد بعد أن دفن المشركين في قليب يُسمى (قليب بدر) وهو يشبه الحُفرة الكبيرة، وعندما دفنهم قال: **«يا فُلان ويا فُلان»**.. وظل يُعدد أسماء كثيرة من المشركين الذين قُتلوا في هذه المعركة، ومنهم (أبو جهل، أمية بن خلف، عُتبة بن ربيعة، شيبة بن ربيعة) وقال: **«هَلْ وَجَدتُّم مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟»**.. فعندما نزلوا قبورهم تبدأ أحداث الآخرة فيرون الأشياء والأحداث التي كان يُحدِّثهم عنها النبي ﷺ وكانوا ينكرونها ويصفونها بأنها مستحيلة الحدوث، فكانوا يقولون:

﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[النازعات:11، 12]

أي أنهم كانوا يصدقون أنهم إذا نزلوا القبر وماتوا تكون قد انتهت الحياة ولا يوجد شيء يُسمى الآخرة أو الحساب بعد الموت، ولكنهم عندما نزلوا القبر تبدأ أحداث الآخرة ويرون الملكين اللذين يسألانهم، فالنبي ﷺ بدأ يقول لهم: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا». فسيدنا عمر قال له: (يا رسول الله، أتُكلِّم الموتى؟!). فقال ﷺ:

«إِنَّهُمُ الآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ الذي كُنْتُ أَقُولُ لهمْ هو الحَقُّ»(165)

ففهم منها العلماء أننا عندما نكلم الميت عند قبره فإنه يسمعنا.

ثم يعود النبي ﷺ إلى المدينة فيجد سبعين أسيرًا من المشركين قد وقعوا في أيدي المسلمين، وهذه كانت المرة الأولى التي يأسر فيها المسلمون هذا العدد الضخم من المشركين، فقد اعتاد المسلمون قبل الهجرة أن يُضطهدوا ويُعذَّبوا على أيدي زعماء المشركين الذين كانت لهم القوة وليس العكس، فلم يكونوا يعلمون ماذا يفعلون بالأسرى.. وإذا برسول الله ﷺ ينير لهم ويرشدهم ماذا يفعلون فقال:

«استوصوا بالأُسارَى خيرًا»(166)

لدرجة أن (أبا عزيز بن عُمير) أخا سيدنا مُصعب بن عمير -وكان في جيش المشركين- قال: (فلما أوصى بنا محمد فإذا بالصحابة المسلمين يتركون ما في أيديهم من الخبز وينفحوننا إياه، فإذا جاء الطعام أكلوا التمر وأعطونا الخبز).. فالخُبز كان أعلى قدرًا عند العرب من التمر، فالتمر كان به وفرة، أما الخبز فلا، فكان أثمن عندهم، فمن شدة استجابتهم لوصية النبي ﷺ كان الصحابة يتركون الأثمن والأغلى في يد الأسير ويأكلون هم التمر الأقل ثمنًا؛ تنفيذًا لوصية النبي ﷺ.

وبينما كان النبي ﷺ يمر إذا به يجد العباس - وكان ضخم الهيئة - وقد تمزقت ثيابه ولا يرتدي إلا الإزار من الأسفل بينما ثيابه الفوقية قد تمزقت ولا يرتدي شيئًا، فنظر النبي ﷺ فلم يجد أمامه إلا (عبد الله بن أبيّ ابن سلول) رأس المنافقين، فقد كان يدَّعي الإسلام ولكنه منافق، ولكنه عندما رأى هذا المشهد خلع رداءه وألبسه العباس؛ إكرامًا لسيدنا النبي ﷺ.. تذكَّر أيها القارئ الكريم هذا المشهد جيدًا؛ لأننا سنذكره في الفصول القادمة مرة أخرى.

وجاء الليل ولم يستطع النبي ﷺ النوم، فسأله أحد الصحابة: (لماذا لم تنم يا رسول الله؟). قال ﷺ: «**أسهر لأنين العباس**». أي أنه يسمع أنين العباس يتأوه من شده الرباط عليه، فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه[(167)] فلما فعلوا ذلك وفكوا عنه الوثاق، قال النبي ﷺ: «**فافعل ذلك بالأسرى كلهم**».

وظل النبي ﷺ في المدينة في مجلسه وبدأت الوفود تأتي إليه من مكة بالمال ليَفْدوا أسراهم، فكان كل أسير يتم فداؤه بأربعمائة درهم، وبعضهم كان بأكثر من ذلك عندما يكون من العائلات الكبيرة ذات النسب، ومن لم يكن معه المال كان النبي ﷺ يَمُن عليه ويتركه يعود إلى أهله، ومن كان منهم مُتعلمًا القراءة والكتابة كان ثمن حريته وفك أسره أن يُعلِّم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، فالأصل أن أمة العرب كانت أُميَّة، قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[الجمعة: 2]

فالأغلب كان لا يقرأ ولا يكتب، فإذا حَذِقوا؛ أي أصبحوا ماهرين بالقراءة والكتابة، يتم إطلاق سراح الأسير إلى بلده.

وكان هناك أحد الأسرى يُسمى (سُهيل بن عمرو).. وسيكمل معنا قصتنا فيما بعد.. كان هذا الرجل دائمًا ما يهجو النبي ﷺ ويسبه في خُطَبِه التي يلقيها في مكة ويسب فيها الجناب النبوي، فعندما أُخِذ أسيرًا طلب أحد الصحابة من النبي ﷺ أن يقتلع أسنانه حتى لا يقف خطيبًا في أي موقف بعد ذلك، فقال النبي ﷺ:

«**لَا أُمَثِّلُ بِهِ فَيُمَثِّلَ اللهُ بِي، وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًّا**»[(168)]

تأمل كيف يعلم النبي ﷺ أصحابه.

وبينما كان النبي ﷺ يجلس إذا به يأتي إليه كيس، وعندما فتحه وجد به ذكريات جميلة، فقد كان بداخله قلادة السيدة خديجة - رضي الله عنها وأرضاها- «عِقد كان للسيدة خديجة» قد أرسلته السيدة

زينب بنت رسول الله ﷺ لتفدي به زوجها «أبا العاص بن الربيع» الذي أُخِذ أسيرًا في جيش المشركين، وكانت لا تزال تعيش معه في مكة؛ لأنه لم يكن قد نزل بعدُ الحُكم بالتفريق بين المسلمة والمُشرِك، فأرسلت هذه القلادة حتى تفدي زوجها الذي كانت تجمعها به قصة حب كبيرة جدًّا، فلنتذكر في بداية بعثة النبي ﷺ أن ابني أبي لهب طلقا ابنتي النبي ﷺ (رُقية وأم كلثوم)، بينما رفض أبو العاص ابن الربيع تطليق زينب وقال: (لا أرضى أبدًا بديلًا بزينب)، وظل متمسكًا بها، فعندما نظر النبي ﷺ إلى القلادة رقَّ لها، فقد أهدتها السيدة خديجة إلى ابنتها زينب عند زواجها، فإذا أخذها فستبقى في بيت المال في مقابل إطلاق الأسير، ويفرقونها، فقال:

«إن رأيتُمْ أن تُطلقوا لَهَا أسيرَها، وتردُّوا علَيها الَّذي لَهَا»(169)

فقالوا: (سمعًا وطاعة يا رسول الله).. وتم فك أسر أبي العاص بن الربيع، ولكن النبي ﷺ طلب منه أن يعيد له ابنته زينب عندما يصل إلى مكة؛ لأن الإسلام قد فرَّق بينهما.

الدروس والأنوار العظيمة في تعامل النبي ﷺ مع الأسرى

تعامل سيدنا النبي ﷺ والصحابة مع الأسرى كان فيه الكثير من الأنوار العجيبة جدًّا:

أولًا: كيف يكون الأسير من جيش العدو الذي كان يحاربنا ويتمنى قتلنا، كيف له أن يأكل أفضل نوع من أنواع الطعام حتى أفضل من طعام أفراد الجيش نفسه؟!

وهذا كان في رواية (أبي عزيز بن عمير) أخي سيدنا مصعب بن عمير الذي لم يُسلم وكان يقاتل في جيش المشركين وأُخِذ أسيرًا، فكان يقول بعد وصية النبي ﷺ بهم: كان الصحابة يعطوننا الخبز ويأكلون هم التمر، وكان وقتها الخبز أثمن وأرقى من التمر... تعرف لماذا؟

لأننا عباد لله والعبد لا يتحرك إلا بأمر الله تعالى، فالأصل أني لا أحارب إلا من يحاربني دفاعًا عن نفسي؛ فقد قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة: 190]

فبالأمس كنتَ تعتدي عليَّ فدافعت عن نفسي، والآن وقد مكنني الله منك فسأرحمك طاعة لله ورسوله -فهذا هو النور الذي علمنا إياه رسول الله ﷺ -ولا أحمل غلًّا تجاهك؛ لأنك أردت قتلي بالأمس القريب، ولكن مع ذلك إذا عفوت عنك وحدثت المعركة مرة أخرى فسأحارب ثانية وأدافع عن نفسي؛ لأن ذلك أمر الله، وهذا يفهمنا أن من شُكْر الله رحمتُك عندما يُمكنك أن ترحم، فـ(الكريم إذا قدر عفا)، وهذا يوضح لك نور النبي ﷺ في كلامه:

«أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن الصدقات أيها أفضل؟ قال: على ذي الرحم الكاشح»(170)

الكاشح: أي الحقود.

فعندما يوجد أحد من أقربائك لا يسأل عنك أو لا يساعدك، ولكن بمجرد احتياجه لك تجده يبدي لك مودته ومشاعره.. فكن كريمًا معه بالرغم من معرفتك حقيقته.

ثانيًا: أن النبي ﷺ جعل الفداء الخاص ببعض الأسرى أن يُعلِّم كل منهم عشرة من المسلمين؛ لأن العلم أهم من المال، فالمسلمون عندما يتعلمون العلم يستطيعون أن يجلبوا به المال، فالخبرة أهم من المال.

ولذلك لا تبخل على نفسك أن تذهب وتتعلم وتنفق المال في سبيل أن يكون عقلك ممتلئًا بالعلم والخبرات، فالكتب التي تقرؤها والعلم الذي تتعلمه في الكورسات والدروس، كأنك بهذا تأخذ من عقول أناس لديهم خبرات عشرات السنين وقرءوا مئات الكتب.. فلا تدخر جهدًا في هذا الموضوع، ويقينًا سيعوضك الله هذا المال الذي أنفقته سواء في الكتب أو في العلم؛ لأن هذا الإنفاق يعتبر من أعلى أوجه الإنفاق في سبيل الله؛ لدرجة أن الدعوة التي أوصى الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعو بها هي:

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: 114]

إسلام عُمير بن وهب

بينما كان النبي ﷺ في المدينة وإذ قد دخل عليه رجل يُسمى (عُمير بن وهب) جاء من مكة يطلب فكاك أسيره له.. فما قصة عُمير بن وهب؟

هذا هو أحد أشد عُتاة المشركين، كان يجلس في مكة هو و(صفوان بن أُمية بن خلف)، وقد كان صفوان أحد شباب المشركين ومن ألد الأعداء، وكان أبوه (أمية بن خلف) الذي كان يُعذِّب سيدنا بلالًا، وقد تم قتله في غزوة بدر.

فـ«عُمير بن وهب» كان يقول: (أود أن أذهب فأقتل محمدًا ولكن لولا عيالٌ لي أخشى عليهم الضيعة ودَينٌ ليس عندي قضاؤه لذهبت فقتلته). فقام صفوان وقال: (عليَّ قضاء دَيْنك، وعيالك عيالي.. اذهب فاقتله). فاتفقا على ذلك، وبالفعل أخذ عُمير السيف وشحذه؛ أي سَنَّه وملأه بالسم وقال لصفوان: (عندي سبب أستطيع أن أذهب به إلى المدينة، وهو أن لي عندهم أسيرًا).

وبالفعل ركب وذهب إلى المدينة، وبينما دخل على مشارف المدينة كان سيدنا عُمر ابن الخطاب يجلس مع مجموعة من الصحابة يتحدث معهم عن فضل الله عليهم في بدر وما رأوه من آيات الكرامة والمدد من رب العالمين، وفجأة وجد عُمير بن وهب، فقال سيدنا عمر: (عدو الله، والله ما جاء إلا في الشر).

فبعث سيدنا عمر لسيدنا النبي ﷺ وطلب من الأنصار أن يظلوا حول النبي ﷺ، وذهب إلى عُمير وقال له: (ما الذي أتى بك إلى هنا؟). قال: (لأفك أسيري). فذهب معه سيدنا عمر إلى النبي ﷺ، وبمجرد أن وصلا إلى النبي ﷺ أخذ سيدنا عمر السيف من عُمير ابن وهب وربطه في رقبته وكأنه أوثقه بالسيف، فقال النبي ﷺ:

«فما جاء بك يا عمير ؟»(171)

قال: (جئت في فِكاك أسيري). قال: (**فما بال السيف في عنقك ؟**)، أي إذا كنت قد جئت لفكاك أسيرك فلماذا تحمل هذا السيف؟ قال: (بئست هذه السيوف! والله ما أغنت عنا شيئًا في يوم بدر).

قال: «**بل قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر (حجر سيدنا إسماعيل)، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلتَ: لولا دَيْنٌ علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا**).. وقص عليه النبي ﷺ جميع التفاصيل التي حدثت بينهما في اللقاء بوحي من رب العالمين، قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾[البروج:20]

وقال:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:4]

فهو العليم بكل شيء -سبحانه وتعالى- فقال عُمير: (أشهد أنك رسول الله .. والله ما كان معي في الحِجر إلا صفوان بن أمية)، ثم قال: (يا رسول الله، إني كنت لشديد الأذى للمسلمين، فأنا أريد أن أرجع إلى مكة فأدعوهم إلى الله). قال النبي ﷺ: «**فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره**». ففعلوا، وفي هذه الأثناء كان صفوان في مكة يقول للناس: (أبشروا بخبر يأتيكم ينسيكم ما حدث في بدر). يقصد خبر مقتل النبي ﷺ، ولكن ما حدث هو أن عُمير بن وهب قد عاد ودخل عليه وأخبره أنه أسلم وقال له: (أشهد أن لا إله إلا الله, وأن محمدًا رسول الله).

قدوم ذي الجوشن

من المشاهد التي حدثت أنه كان هناك رجل دخل على سيدنا محمد ﷺ بعد انتصار بدر اسمه (ذو الجوشن الكلابي).. هذا الرجل كان النبي ﷺ قد عرض عليه وهو في مكة أن يُسلم، فقال له إنه مقتنع بالإسلام ولكنه ليس مطمئنًا لتوفيق الله للنبي وللمسلمين، فإذا تم النصر فسيلحق بالنبي، وإذا لم يحدث يظل بين أهله في أمان، فقال: (يا محمد، أنظر في أمرك؛ إن أظهرك الله لحقت بك، وإن هزمك أهل مكة كنت في قومي في الأمان). قال النبي ﷺ:

«يا ذا الجوشن، ألا تسلم فتكون من أول أهل هذا الأمر؟»(172)

أي: كُن من أوائل المسلمين أفضل، قال: (لا). ومرت الأيام، وعندما انتصر النبي ﷺ ذهب إليه ذو الجوشن يبايعه على الإسلام وهو يعض على يديه من الندم أنه خسر أن يكون من أوائل المسلمين.

لكل قيمة في حياتك ثمن فكُن مستعدًا لدفعه

قصة (ذي الجوشن) قصة تعلم كلًّا منا أنك لن تستطيع أن تأخذ كل الخير على الجاهز دون أن تدفع الثمن؛ لأن كل شيء في الدنيا له قيمة لا بد لك من أن تدفع ثمنه، وبالمناسبة فهذه من سُنة الله في الدنيا أنها ليست كالجنة..

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق: 35]

أما الدنيا إذا أردت فيها أي شيء فلا بد أن تدفع الثمن أولًا سواء كان مالًا أو مجهودًا أو وقتًا أو تفكيرًا.

ذو الجوشن.. أراده النبي ﷺ أن يكون من المسلمين الأوائل ولكنه رفض وفضَّل أن يمسك بالعصا من الوسط، فبالرغم من أنه مؤمن بالنبي ﷺ وبالإسلام فإنه لا يريد أن يتعب أو يبذل الجهد، ففضل أن يتمسك بفكرته أنه إذا انتصر النبي ﷺ يلحق به، وإذا لم ينتصر يظل في مكانه في أمان.

وبسبب هذه الفكرة ضيَّع على نفسه أجمل أيام نُصرة النبي ﷺ ونُصرة الإسلام وأثقل الموازين، فقد قال تعالى:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[الحديد: 10]

فالجميع بخير ولكنْ هناك فارق كبير بين الأوائل الذين تحملوا الكثير من الصعاب وبين من جاءوا متأخرين بعد الاستقرار.

ولذلك كل شيء تريد أن تحققه في حياتك لا تبخل فيه بالثمن.

أحيانًا تجد أن الشيخ يطلب منا أن نأتي الدرس بعد صلاة الفجر، وأحيانًا كنا نسمع أن العلماء يختبرون الطلبة بمثل هذه الأشياء .. فلو أن الطالب لا يستطيع أن يقتطع من نومه ولا يريد أن يستيقظ مبكرًا للعلم فلن ينفعه هذا العلم .. وكأن هذا اختبار من العالم يُصفِّي به طلابه ليعرف الأصدق منهم.

ففي أوقات كثيرة تنهار بيوت في أول سنة أو سنتين من الزواج؛ لأن الولد والبنت تزوجا ولكنهما ليس لديهما مسئولية أن يدفعا ثمن الاستقرار من نفسيتهما وأخلاقهما، وليسا مستعدين أن يأخذ كل منهما خطوة للوراء في أشياء يريدها ومعتاد عليها لكنه غير مستعد أن يتنازل عنها من أجل شريك الحياة، فقد تزوجا وعمرهما أربع وعشرون أو خمس وعشرون سنة، فيوجد الكثير من العادات التي يجب أن يتأقلما عليها بشيء من التسامح حتى تستقر الأسرة، وبالأخص في حالة وجود الأولاد الذين يحتاجون إلى الوقت والمجهود حتى تتم تربيتهم تربية سليمة.

وبالتالي ذو الجوشن هنا في قصته نور، وهو (أن كل قيمة في الدنيا وأي شيء له قدر لا تبخل أن تدفع ثمنه وبنفس طيبة).

قدوم السيدة زينب

عاد (أبو العاص بن الربيع) زوج السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ والذي كان أسيرًا في موقعة بدر.. عاد إلى زوجته في مكة ومعه القلادة التي فدته بها، ولكنه أخبرها بما قاله له النبي ﷺ بأنها يجب أن تعود إليه في المدينة؛ لأن الإسلام قد فرَّق بينهما بسبب شِركه، وأرسل معها أخاه (كنانة بن الربيع)؛ حتى يوصلها إلى أبيها ﷺ، وبالفعل أعدوا الراحلة وركبت عليها، وارتدى كنانة ملابسه، وكان من عادة العرب أن يأخذوا معهم القوس والسهم حتى يحموا به أنفسهم في الطريق، وفي أثناء خروجهما سمعت مكة بالخبر وبأن زينب بنت رسول الله خرجت لتلحق بأبيها ﷺ في المدينة، فبعثوا مجموعة من الرجال ومن السفهاء بينهم واحد اسمه (هبَّار ابن الأسود)، وما إن رآهما حتى هجم عليهما، وظل يطعن الناقة التي ركبتها السيدة زينب فسقطت من عليها وكانت حاملًا فسقط الحمل، وظلت تنزف رضي الله عنها.

وفي هذه الأثناء أطلق (كنانة بن الربيع) السهم، وقال: (من يقترب منا فسألقمه). أي سأقتله، وهنا جاءه أبو سفيان فقال: (أنت أخطأت أنك خرجت في واضحة النهار، فتقول الناس بعدما أصابنا من ذُل بدر إنك خرجت أمام أعيننا).

فعاتبه أنه خرج في النهار وأنه كان عليه أن يستتر عن أعين الناس ويخرج بالليل حتى لا يتهموه بالجرأة بعدما أصاب قريشًا في بدر، فلم يهمه ما أصاب السيدة زينب وما لحق بحملها وما فعله هبَّار بن الأسود، ولكن كل ما أهمه هو الكِبر والمظاهر وقول الناس فيهم.

وبعد هذا الموقف عادت السيدة زينب إلى بيتها ثانية حتى تُطبَّب لعدة أيام، وبعد أن استقرت حالتها، وتوقف النزيف ركبت الراحلة مرة أخرى وذهبت إلى أبيها ﷺ، وقد خرجا ليلًا في هذه المرة.

زواج سيدنا علي من السيدة فاطمة

في المدينة في نفس التوقيت ذهب سيدنا (علي بن أبي طالب) إلى سيدنا (عُمر بن الخطاب) حتى يخبره بشيء بداخله، ولكنه يخجل أن يحدِّث فيه رسول الله ﷺ.. وكان هذا الأمر (أنه يريد الزواج من فاطمة) ابنة رسول الله ﷺ، فقال له سيدنا عمر: (وما يمنعك من الزواج من فاطمة؟). قال: (ليس عندي شيء). فقال عمر: (إذًا فمن يُزوِّج إن لم يزوجك فاطمة؟!)، وكأنه يقول له إنه لا يجد من هو أفضل منك ليتزوج ابنته .. فشجعه على التقدم للنبي ﷺ لطلب يد ابنته فاطمة، وبالفعل ذهب سيدنا علي إلى النبي ﷺ فقال: (فلما رأيت رسول الله ﷺ أفحمت). أي لم أعرف ما أقول فسكتُّ، وإذا بالنبي ﷺ يقول له:

> **«ما جاء بك، ألك حاجة؟». فسكتُّ، فقال ﷺ: «لعلك جئت تخطب فاطمة!». قال: (نعم)**[(173)].

تأمل.. بمثل هذه البساطة كما في الرواية.

فقال: (ولكني ليس لدي إلا الدرع الحُطمي).. والدرع هنا ليس المقصود ما نمسك به لندافع عن أنفسنا، ولكنه يشبه الصديري الحديد، وكان يرتديه الناس في الحروب للدفاع عن الصدر من السيوف، فلم يكن لديه إلا هذا الدرع، فطلب منه النبي ﷺ أن يبيعه ثم يأتيه ثانية.

وبالفعل ذهب فباعه بأربعمائة درهم، قدمها للنبي ﷺ فقسمها إلى ثلاث قبضات وأعطاها لـ(أم أيمن) وطلب منها أن تشتري عطرًا لفاطمة، وأن تحضر بباقي النقود متاعًا يخدم فاطمة.. أي ما تحتاج إليه من ملابس وغيرها.

فالمهر كله دفعه النبي ﷺ لشراء الملابس والعطور لابنته.. وكلها أشياء تسعدها هي وزوجها.

لتبدأ حياة في بيت من أجمل بيوت الدنيا .. قصة حب وقُرب وترابط من أجمل القصص التي تكمل معنا النور في قصة حياة النبي ﷺ.

أسوأ صفة اتصف بها هبَّار بن الأسود

مزعجة جدًّا قصة (هبَّار بن الأسود) الذي استغل قوته كرجل في أن يستقوي على السيدة زينب رضي الله عنها بنت النبي ﷺ، والتي كانت حاملًا وقتها، فالله تعالى خلق الرجل أقوى جسمانيًّا من المرأة؛ ولذلك من الدناءة جدًّا أن يستخدم الرجل هذه القوة ضد المرأة، فالله تعالى قال عن بعض الناس:

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الفرقان: 44]

لأن الإنسان إذا ذهبت إنسانيته يستوي بالأنعام - الحيوانات - في التصرفات التي يكون فيها البقاء للأقوى، ويكون فيها الاستقواء على الضعيف.

فمن بين الناس التي أتمنى رؤيتها في الجنة بإذن الله هي السيدة زينب رضي الله عنها؛ فنحن نعرف الكثير عن السيدة فاطمة، ولكن السيدة زينب كانت قامة كبيرة أيضًا.

بساطة النبي ﷺ في تزويج ابنته فاطمة

المشهد الثاني الذي نريد أن نتأمل فيه .. هو كيف كان النبي ﷺ بسيطًا جدًّا في تزويج سيدنا علي بن أبي طالب -ابن عمه، والذي كان في منزلة ابنه - من ابنته السيدة فاطمة.

سأله عما يملك، فأجابه سيدنا علي بأنه لا يملك شيئًا إلا الدرع الذي يستخدمه في الحرب، فطلب منه النبي ﷺ أن يبيعه. وكأن الزواج يستأهل أن أبيع أهم شيء لدي؛ الشيء الذي يحمي حياتي، فطلب منه النبي ﷺ أن يبيعه، فهذا ليس وقت حرب ويستطيع أن يشتري واحدًا غيره مرة أخرى، وكأن الزواج مهم وأن تكون تحت سقف واحد مع بنت تحبها وتحبك وتعيشان معًا قصة سند ودعم وتنجحان وتكبران مع بعضكما.. فهذا شيء مهم.. ضعه في اعتبارك؛ لأن الكثير من الشباب والبنات الآن لديهم شيء من العزوف عن فكرة الزواج، بالطبع بسبب ثقل تكاليف الزواج، ولكن اجتهد وقُل: يا رب، فكما قال النبي ﷺ:

«ثلاثةٌ حقٌّ على اللهِ عونهم: المجاهدُ في سبيلِ الله، والمُكَاتَبُ الذي يريدُ الأداءَ، والناكحُ الذي يُرِيدُ العفافَ»(174).

المكاتب: هو الشخص المديون الذي يدخر لكي يسد دينه في ميعاده، والناكح: أي الشخص الذي يريد الزواج.

فتأمل في بساطة وجمال سيدنا النبي ﷺ في تزويجه لسيدنا علي ذي الحالة البسيطة المتواضعة لسيدة نساء العالمين ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها.

غدر يهود بني قينقاع

يتبقى أكثر من مشهد في خواتيم السنة الثانية من الهجرة أود أن أتطرق إليها قبل أن ننتقل إلى أحداث السنة الثالثة من الهجرة في حياة النبي ﷺ:

المشهد الأول:

اليهود في المدينة كانوا ثلاث قبائل: (بنو قريظة- بنو النضير- بنو قينقاع).

بنو قينقاع .. كانوا تُجارًا، وكان لديهم سوق من الأسواق الواعدة، وكان المسلمون يتاجرون معهم بموجب الصحيفة التي أنشأها بينهم النبي ﷺ والتي تُشبه (صحيفة المواطنة) والتي تنص على التعامل بالأمان والمحبة والقُرب.. فنحن شعب واحد في بلد واحد.

فذات يوم ذهبت إحدى المسلمات إلى السوق، وكانت الأسواق حينها تشبه المكان أو الساحة المفتوحة، فذهبت إلى محل ذهب حتى تبيع وتشتري من التاجر، فطلب منها أن يرى وجهها فرفضت؛ لأنه ليس هناك داعٍ لذلك، وظلت تشاهد البضاعة ولكنهم ظلوا يضحكون عليها.. وكانت حينها تجلس على الأرض، فتخيل معي وهي جالسة تلبس جلبابًا ساترًا لجسدها بأكمله وكان مفروشًا على الأرض، وإذا بشخص منهم قد ربط طرف الجلباب في رأسها، فعندما قامت انكشفت عورتها، بينما هم ظلوا يضحكون، وإذا بأحد المسلمين يرى هذا الموقف فقام وقتل من فعل هذا بالمرأة المسلمة، وتكاثرت عليه اليهود فقتلوه، ثم جاءت عائلة الرجل المسلم وكادت تحدث حرب بين المسلمين واليهود بسبب هذه الفعلة الخسيسة من التاجر اليهودي.

فتخيل أقذر طرق التحرش بامرأة تستأمنهم وهي وحدها وسط الرجال وملابسها ساترة من أعلاها إلى أسفلها، ولكنهم أزالوا السِّتر وقتلوا المسلم، فحاصرهم النبي ﷺ بالجيش وأجلاهم وطردهم خارج المدينة؛ لأن مثلهم لا نستطيع أن نستأمنهم على أولادنا ولا نسائنا.. وسنوضح فيما بعد ما حدث مع يهود بني النضير وبني قريظة، فالله تعالى يقول عنهم:

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[المائدة: 13]

لماذا لُقِّب سيدنا عثمان بن عفَّان بـ«ذي النورين»؟

المشهد الثاني:

هو مشهد زواج السيدة أم كلثوم ابنة النبي ﷺ.

فقد دخل النبي ﷺ ذات مرة على سيدنا عثمان بن عفان الذي توفيت زوجته رقية منذ أشهر قليلة فوجده حزينًا، فقال له النبي ﷺ: **«ما لي أراك مهمومًا؟»**. قال: (يا رسول الله، وهل أصاب الناسَ مثلُ الذي أصابني؟ ماتت عندي بنت رسول الله، وانقطعت المصاهرة بيني وبينك). أي كانت هناك قرابة بيني وبينك فانقطعت بوفاة زوجتي رقية، فقال النبي ﷺ:

«أتاني جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تزوج عثمانَ أمَّ كلثوم»[(175)]

فنزل الوحي على سيدنا محمد ﷺ، كعادة كل تحركاته لا تكون إلا بوحي من رب العالمين:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: 3، 4]

وطلب النبي ﷺ من السيدة أم أيمن أن تزفَّ السيدة أم كلثوم إلى سيدنا عثمان بن عفان وتضرب بالدُّف في احتفال بسيط لهما، ويفرح سيدنا عثمان بذلك، ويُسمى (ذا النورين)؛ لأنه كان قد تزوج أولًا من السيدة رقية بنت النبي ﷺ، وعندما توفيت تزوج من أختها أم كلثوم، فيكون بذلك قد تزوج بنتين من بنات النبي ﷺ.

زواج النبي ﷺ من السيدة حفصة

في بداية السنة الثالثة من الهجرة جاء الوحي من رب العالمين للنبي ﷺ أن يتزوج السيدة حفصة بنت سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكانت متزوجة من شخص يُدعى (خُنيس بن حذافة السهمي) وقد توفي، فذهب سيدنا عمر بن الخطاب بعد وفاة زوجها وانتهاء عدتها إلى سيدنا عثمان بن عفان وقال له: (هل لك في الزواج من حفصة؟). فطلب منه سيدنا عثمان أن يتركه ليفكر في الأمر، ثم قال له: (قد بدا لي ألا أتزوج). أي أنه لن يتزوج مرة أخرى، فذهب سيدنا عمر إلى أبي بكر وقال له أيضًا: (هل لك في الزواج من حفصة؟). فقال له: اتركني لأفكر في الأمر. ولكنه لم يعد إليه بالرد، فبعد يومين أو ثلاثة ذهب النبي ﷺ إلى سيدنا عمر بن الخطاب وطلب منه الزواج من حفصة ابنته.

فسيدنا عمر تضايق من رد فعل سيدنا أبي بكر وأنه لم يرد عليه في طلبه، بينما سيدنا عثمان رجع إليه بالرد معتذرًا عن عدم الزواج، أما أبو بكر فلم يَعُد إليه بشيء. وعندما طلبها النبي ﷺ ذهب سيدنا أبو بكر لصاحبه عمر وقال له: (يا عمر، لا تجدْ عليَّ؛ لم أرد عليك لأني لم أكن أريد أن أفشي سِر رسول الله ﷺ، فقد سمعته يقول: ماذا فعلت حفصة؟). أي كنا نجلس في مجلس أنا وهو فسأل عن حفصة، فلا ينبغي لي أن أُخرج كلامًا كان بيني وبين رسول الله ﷺ دون إذنه.

وفرح سيدنا عمر بن الخطاب بهذا النسب الشريف، وتفهَّم لماذا لم يَعُد إليه سيدنا أبو بكر الصديق في الرد؛ لأنه حماية لسِر رسول الله ﷺ.

راقب نفسك إذا وجدت فيك هذه الصفة

بنو قينقاع كان لديهم غِل شديد جدًّا تجاه سيدنا محمد ﷺ وتجاه كل من اتبعه، فكانوا يبدعون في إيذاء المسلمين، ففكرة أن يتحرش اليهودي بالمرأة المسلمة في السوق، فهذا يدلُّ على تراكم الغل والنفسية السوداء التي خرجت في شكل الاستقواء على هذه المرأة المسلمة العفيفة، والأكثر من ذلك ضحكهم عليها.

فمن المفروض أن الرجل الطبيعي والإنسان السوي عندما يرى امرأة تعاني أن يساعدها، فمثلًا يقف لها في المواصلات لتجلس هي، ويحمل عنها المتاع الثقيل كلما أمكن .. ولكن الشخص المملوء قلبه بالغِل تصدر منه تصرفات هو نفسه لم يكن يتوقع أن يخرج منه الأذى بهذه الصورة الدنيئة؛ ولذلك عندما تجد بداخلك مشاعر سلبية تجاه أي شخص.. راقب نفسك.

فهناك الكثير من الحكايات الخاصة بالحوادث تقول مثلًا إنه بسبب أن شخصًا سابقك بسيارته فسابقته وكسرت عليه، فتسبب ذلك في أن صدم ثلاثة وماتوا بسببك ... فتخيل هذا الشخص الذي يعود إلى بيته وهو يحمل على أكتافه ذنب مقتل ثلاثة أشخاص ليس لهم ذنب بسبب الغل والكِبر.. فراقب نفسك عند شدة الغضب، فقد أمرنا النبي ﷺ عند الغضب؛ إذا كنت واقفًا فاجلس، وإذا كنت جالسًا فنَم حتى تتحكم في الغيظ الموجود بداخلك فلا يؤذيك أو يؤذي غيرك.

سيدنا أبو بكر الصديق وأمانة المجلس

في قصة زواج النبي ﷺ من السيدة حفصة.. هلَّا تأملت في موقف سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأنه عندما سمع النبي ﷺ يقول: «**ماذا فعلت حفصة؟**». فبالتأكيد رد عليه بأن زوجها قد توفي، ولكنه أبدًا لا يخرج هذا الكلام ويخبر به أحدًا آخر، فعندما جاءه سيدنا عمر يعرض عليه الزواج من ابنته حفصة لم يستطع أن يقص عليه ما حدث بينه وبين النبي ﷺ بأن يقول مثلًا: انتظر وستسمع أخبارًا تسعدك الأيام المقبلة، ولكنه فضل الصمت وقال:

> «ما كنتُ لأُفْشيَ سرَّ رسولِ اللهِ ﷺ»(176).

أُوضح هذا الكلام لكل شخص من السهل عليه جدًّا أن يأخذ «سكرين شوت» من محادثة على الواتساب مثلًا وينقلها بين الناس دون إذن صاحب المحادثة، والأسوأ من ذلك من يقومون بتسجيل المكالمات الهاتفية عن طريق بعض البرامج دون إذن صاحب المكالمة ويُفاجأ بأن كلامه قد انتقل بين الناس دون علمه، أو مثلًا تتحدث في مجلس معين مع أناس من أقاربك فتفاجأ بأن هناك من يعلم هذا الكلام دون علمك، فالمجالس بالأمانة (إذا حدثك أخوك حديثًا ثم التفت فهي أمانة).

فهذه الأخلاق هي النور الذي يضيء حياتنا، وبدونها تصبح العلاقات مُظلمة.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد الحبيب إذا عدم الحبيب، والطبيب إذا عزَّ الطبيب.. راحة القلوب إذا اشتدت الكروب، سر الدواء للقلوب والشفاء، وصلِّ يا رب على آله الأوفياء وأصحابه الرحماء.

اللهم قوِّ في رضاك ضعفنا، وأذهب عنا ما أهمَّنا وغمنا، ونجنا يا مولانا من كل شر بحفظك وعنايتك يا صاحب الأمر.

---

(165) رواه البخاري.
(166) رواه الهيثمي.
(167) رواه ابن سعد.
(168) رواه ابن إسحاق.
(169) رواه أبو داود.
(170) رواه أحمد.
(171) رواه ابن هشام.
(172) رواه أحمد.
(173) رواه البيهقي.
(174) رواه الترمذي.
(175) رواه ابن عساكر.
(176) رواه مسلم.

17

شهامة المسلمين في معركة أُحد

تحرك المشركين لغزو المدينة وبداية معركة أُحد

وصلنا تقريبًا في رحلتنا في حياة الرسول ﷺ إلى النصف الثاني من السنة الثالثة من بعد هجرة النبي ﷺ، وعُمر النبي ﷺ ستة وخمسون عامًا، فقد أتاه وحي من الله تعالى أن هناك تجهيزات في مكة لإخراج عدد كبير جدًّا من المشركين للانتقام مما حدث قبل عام في موقعة بدر، ولكن التجهيزات في هذه المرة مختلفة، وقد رأى ﷺ رؤيا قبل ذلك الوحي بيوم، ورؤيا الأنبياء حق؛ أي (وحي) أيضًا.

رأى أنه يرتدي درعًا حصينة، (الدرع): تشبه الصديري الحديد الكبير الذي يحمي المقاتل من السيوف، ففسرها الرسول ﷺ أن معناها هنا المدينة وأنه يريد أن يحميها.

- كما رأى أن سيفه به جزء مكسور، ففسرها أن هذا معناه أن أحد أقاربه سيموت شهيدًا في هذه المعركة.

- كما رأى أن هناك بقرًا يُقتل أو يُذبَّ.. وكان تفسير ذلك أنه سيكون هناك شهداء في صفوف الصحابة.

فاستيقظ النبي ﷺ وأخبر الناس بما رآه وبأن هناك هجومًا سيحدث على المدينة وقد أخبرنا الله في القرآن، فقال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة:190]

فلنتجهز، ثم فقال:

«أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ»(177)

ونحن الآن في شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة، وكان كثير من الصحابة الذين يجلسون مع النبي ﷺ لم يخرجوا في السابق في حرب بدر؛ لأن بدرًا في الأصل لم يخرجوا فيها للقتال، ولكن كان الهدف هو استرداد أموالهم المنهوبة، ولكن فوجئوا وقتها بالألف مقاتل الذين جاءوا لمحاربتهم، وكان وقتها الكثير من الصحابة في تجارة خارج المدينة، أو يعملون في الزراعات الخاصة بهم.

فعندما طلب النبي ﷺ رأيهم ومشورتهم فيما رآه من وحي ورؤيا كان رأي أغلبهم أن يخرجوا للقتال، فنبههم النبي ﷺ بما رآه في رؤياه أنه سيكون هناك شهداء منهم، فقالوا له: (يا رسول الله، لا تمنعنا الجنة، فإنما هي إحدى الحُسنيين؛ إما النصر، وإما الشهادة).

وقام سيدنا حمزة بن عبد المطلب -عم النبي ﷺ- فقال: (والله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى يفصل الله بيننا وبين عدونا).

وكان عدد المسلمين الذين مع الرأي بأن (نخرج خارج المدينة) ولا تحدث الحرب داخل المدينة حتى لا تُضار المدينة - هو الأكثر.

خطب النبي ﷺ الجمعة ولبس لباس الحرب، ووجد بعدها أن البعض قال للصحابة: إنكم أكرهتم النبي ﷺ على هذه الحرب، وقالوا إن النبي ﷺ يحب ألا يخرج بسبب ما رآه في الرؤيا ولكنكم أكرهتموه على القتال، فقال الصحابة للنبي ﷺ: (وكأننا أكرهناك يا رسول الله؟).. فغضب النبي ﷺ وقال إنهم اتفقوا وأخذوا بالمشورة وخطب فيهم ووضعوا الخطة فانتهى الأمر، ثم قال:

«ليس لنبيٍّ إذا لبِس لَأْمَتَه أن يضَعَها حتى يُقاتِلَ»(178)

وكان القرار هنا بالتحرك.. وهذا كان المشهد في المدينة.

وعلى الجانب الآخر في مكة كان المشهد فيها يسوده الغيظ الشديد جدًّا؛ فقد تجهزوا بثلاثة آلاف مقاتل في مقابل ألف مقاتل فقط في غزوة بدر، وكان معهم مئات الفرسان ومئات الجِمَال، فكان جيشًا ضخمًا جدًّا به جميع القادة ومن بينهم (أبو سفيان) ومن تبقَّى حيًّا من موقعة بدر، وخرجت معهم النساء يضربن بالدفوف والطبول ويشجعنهم على القتال، وكان من بينهن (هند بنت عُتبة)، زوجة أبي سُفيان، فقد قُتل في معركة بدر أبوها (عتبة بن ربيعة) وعمها (شيبة بن ربيعة) وأخوها(الوليد بن عُتبة)، فكان عندها غيظ شديد من المسلمين.

وقد خرج معهم قائد عسكري مُحنَّك هو (خالد بن الوليد)، وهنا بداية ظهوره، فلم يكن قد أسلم بعد، وكان وقتها في جيش المشركين قائدًا للفرسان الذين بلغ عددهم ثلاثمائة فارس.

وبدأ الاستعداد للمعركة، فتحرك النبي ﷺ خارج حدود المدينة حتى يقف عند جبل أحد وينتظر مجيء المشركين، وكان ممن خرج مع المشركين (وحشي بن حرب)، وكان هذا الرجل عبدًا عند (جبير بن مطعم) وقد اتفق معه جبير وهند بنت عُتبة أنه إذا قتل (حمزة ابن عبد المطلب) فسيجعلانه حُرًّا، والعبيد قديمًا كانوا يُهانون ويُعاملون أسوأ معاملة، فكان العبد على استعداد للقيام بأي شيء مقابل حريته.

وخرج أيضًا شخص يُدعى (عبد الله بن قمئة)، وكان لا يحب النبي ﷺ، وقد خرج معه فرسان كثيرون، وهَمُّه كله أن يقتل النبي ﷺ، وعندما يعود يكون (سيد مكة).

وصل النبي ﷺ إلى منطقة أُحد ووصل المشركون أيضًا، ولكن قبل وصولهم عند الجبل انسحب ثلاثمائة منافق بقيادة رأس المنافقين في المدينة (عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول) الذي قال لمن معه إن النبي (أطاعهم وعصاني) وإنه يرى أنه لن تحدث حرب، وقد أتاه سيدنا (عبد الله بن حرام) الصحابي الأنصاري العظيم فطلب منه ألا ينسحب وأن يكمل معهم الحرب.. قال تعالى:

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾[آل عمران: 167]

﴿وَلِيَعْلَمَ﴾.. أي يُظهِر، ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.. أي لن تحدث حرب.

ويظهر هنا المنافقون، وينكسر جيش المسلمين بفَقْد ثلث الجيش ليصبح عدد المسلمين قبل بداية المعركة فقط سبعمائة مقاتل تقريبًا ضد ثلاثة آلاف مشرك.

الفرق بين الشخص العنيد والشخص السوي في تعاملهما مع تقلبات الحياة

يلفت انتباهك الغل الشديد الذي كان عند قُريش وهم يتجهزون بثلاثة آلاف مقاتل؛ أي ثلاثة أضعاف جنود بدر؛ حتى ينتقموا مما حدث لهم في بدر، وبالمناسبة فالشخص العنيد الذي يغلق قلبه عندما تهزمه الحياة وهو يعلم أنه على باطل يريد دائمًا أن ينتقم، أما الشخص السوي فعندما تهزمه الحياة يظل يفكر فيما أخطأ فيه ويصلح من نفسه، وتكون هزائم الحياة بالنسبة إليه مُعلِّمًا.

المشركون من قريش انهزموا في بدر في الحرب التي كانوا هم السبب فيها من الأساس؛ لأنهم كان من المفروض أن يعودوا ولا يقاتلوا، ولكن كان هذا هو اختيارهم، قال تعالى:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[الأعراف: 146]

وكأنهم مُصرون على الخطأ رغم علمهم به؛ ولذلك فإنه من المهم عندما تهزمك الحياة أن تراجع نفسك، فإذا كنت على صواب فاحمد الله وأكمِل السير، وإن كنت على خطأ فتعلَّم من أخطائك، واعلم أن الله يكرمك بهذه الكسرة فتتألم بسببها وتتعلم وتتغير، وليس المقصود أن تتألم فتعند ولا تصلح من نفسك، فمثلًا هناك من يتم القبض عليه في قضية مخدرات فيعاقب وتتم محاكمته، فعندما يخرج بدلًا من أن يصلح من نفسه تجده يريد أن ينتقم أكثر.

أو مثلًا زوجة أو زوج تم طلاقهما بسبب عصبيتهما الشديدة المفرطة في التعامل مع بعضهما، فالأصح أنهما بعد ذلك يحاولان التحلي بالهدوء حتى يكون هناك سلام في العلاقة القادمة.

أهمية الشورى في الرأي

ويظل النبي ﷺ في كل المعارك -بل في جميع خطوات الحياة- يستشير أصحابه حتى يربي رجالًا ويُعلمهم أن رأيهم مهم، فإذا تركهم بعد وفاته تعلموا أن يسمع بعضهم بعضًا.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الشورى: 38]

استجابوا: صلَّوا وأنفَقوا... ولكن مع الصلاة والإنفاق لا بد أيضًا من الشورى؛ أن يتشاوروا ويأخذوا برأي بعضهم؛ لأن الله تعالى وزع أرزاق الأفكار والحلول على العقول مثلما وزع أرزاق المال على الجيوب.. فالمتواضع يسمع كثيرًا لرأي غيره.

قبل بداية معركة أحد

وصلنا إلى اليوم السابع عشر من شوال في السنة الثالثة من الهجرة، سبعمائة مقاتل من أهل المدينة مع سيدنا محمد ﷺ يدافعون عن بلادهم وعن عقيدتهم من هجوم ثلاثة آلاف مقاتل من المشركين الذين أتوا للانتقام.

النبي ﷺ صفَّ الجيش ثم أخرج سيفه وقال: «**مَن يأخذُ هذا السيفَ بحقِّه؟**». فجميع الصحابة طلبوا وتمنوا وظل يختار من بينهم..

> فقام أبو دجانةَ سماكُ بنُ خرشةَ فقال: يا رسولَ الله، أنا آخذُه بحقِّه، فما حقُّه؟ قال: «**أن تضرب به العدو حتى ينحني**». قال: فأعطاه إياه فخرج واتبعتُه فجعل لا يمرُّ بشيءٍ إلا أفراه وهتكَه[(179)]

فكان سيدنا أبو دجانة إذا خرج إلى أي معركة يربط على رأسه العصابة الحمراء وكانت تسمى عصابة الموت؛ وهي تشبه البندانة حاليًا.

وعندما صفَّ النبي ﷺ الجيش رأى مثل الثغرة في أرض المعركة، فكان الجبل الكبير (أُحد) على اليمين وكانت مسافة كبيرة جدًّا إذا فكر المشركون في المرور من ورائه؛ لأنه يستغرق ساعات طويلة، فهو مرهق جدًّا للجيوش، ولكنه وجد أن هناك جبلًا صغيرًا عند التل سُمي بعد ذلك بـ (تل الرُّماة) يمكن عن طريقه أن يلتف الجيش من ورائه، فأوقف عليه خمسين من الرُّماة ليرموا بالأسهم بقيادة سيدنا (عبد الله بن جُبير)، وقال لهم ﷺ كلمات في منتهى الوضوح: «انْضَحِ الْخَيْلَ عَنَّا بِالنَّبْلِ».. أي دافع عنا بالأسهم،

> «لا نُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكَ»[(180)]

انتبه ألا يلتف أحد من ورائك من المشركين.

إن كانت لنا أو علينا فلا تنزل، وقال له:

> «إن رأيتُمونا تَخطفُنا الطَّيرُ، فلا تبرَحوا من مَكانِكُم هذا حتَّى أُرْسِلَ لَكُم، وإن رأيتُمونا هزَمنا القومَ وأوطَأناهُم فلا تبرَحوا حتَّى أُرْسِلَ إليكُم»[(181)]

كلام في منتهى الوضوح، وصفَّ النبي ﷺ الجيش.

وعلى الجانب الآخر قام (**أبو سفيان**) بعدة أشياء وهو يقود جيش المشركين:

الشيء الأول: بعث رسالة إلى (الأوس والخزرج) وقال لهم فيها: (**ما جئنا لقتالكم إنما أجبرتنا أولاد عمومتنا**). أي أننا لسنا نحب أن نحارب أهل المدينة ولكن ثأرنا مع المهاجرين، فكان رد فعلهم أنهم (**أسمعوه ما يكره**)، كأنهم لم يقرءوا الرسالة؛ لأنهم مع بعضهم شعب واحد بموجب الصحيفة التي أعدها النبي ﷺ من قبل، وتقدمت (هند بنت عتبة) زوجة أبي سفيان بالدفوف هي ومن معها من النساء وظللن يشجعن المشركين على القتال والنصر.

الشيء الثاني: تحدَّث أبو سفيان مع (بني عبد الدار) الذين يمسكون باللواء، و(اللواء) مثل العلم الكبير إذا تحرك يتحرك الجيش معه، وإذا سقط على الأرض فهذا يعني هزيمة الجيش، فقال لهم: **(يا بني عبد الدار، كنتم تمسكون باللواء في السنة الماضية في بدر وانهزمنا.. فماذا تنوون الآن؟)**. قالوا: **(والله لا نفر يا أبا سُفيان)**. فالهمة تملأ قلوبهم ومصممون على حمل اللواء، وستبدأ في هذه المرة الحرب بالتحام الجيشين بدون مبارزة في البداية، فتقدم جيش المشركين وكان جيشًا كبيرًا جدًّا.. تخيل ثلاثة آلاف مقاتل في مقابل سبعمائة من الصحابة، وكان في مقدمة جيش المشركين فارس شديد الشراسة اسمه (طلحة بن أبي طلحة العبدري)، وكان من بني عبد الدار، وكان يحمل اللواء، وفي أثناء تقدمه للحرب إذا بناقة ضخمة جدًّا يستقلها سيدنا (الزبير بن العوام) تقفز عليه قفزة هائلة فقتله ويسقط اللواء .. وبالطبع أسرع شخص آخر منهم وحمل اللواء ثانية ولكن بعد أن سقط ورآه الجميع.

وبدأ يحدث التحام للجيشين، وسيدنا الزبير يقول: (كنت مشغولًا بما سيفعل أبو دجانة الذي أعطاه النبي سيفه ولم يعطه لي). فقال: (فظللت أرقب أبا دجانة، فإذا هو يُشعِر). أي: يقول الشعر. فيقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل

ألَّا أقوم الدهر في الكيول أضرب سيف الله والرسول

واستطرد سيدنا الزبير بن العوام في حديثه: رأيته يشق صفوف المشركين وأنا وراءه وهو يشقها فلا يترك أحدًا في طريقه، وظل يدافع عن جيش المسلمين حتى وصل إلى النساء، وسأله: لماذا وصلت إلى النساء ورجعت؟ قال: **(أكرمت سيف رسول الله أن أقتل به امرأة)**. فقد كان النبي ﷺ ينهاهم عن قتل النساء والأطفال مثلما سيأتي التوضيح فيما بعد عن قواعد الحرب التي علمها النبي ﷺ لصحابته الكرام.

أريد أن أذكرك بالوضع أن الجيش الذي يهاجمنا ثلاثة أضعاف عددنا وأكثر، وجميع البطولات التي تتعرف عليها هذه لأناس يريدون فقط أن يعبدوا الله، وأهم آية في دعوتهم:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[النحل:125]

وأنه:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[البقرة:256]

ولكن المشركين لا يتركونهم وشأنهم، وتظهر وقتها بطولات الرجال والنساء التي تنصر دعوة رب العالمين ودعوة النبي ﷺ، ويظهر وقتها المنافق الذي انسحب وقت الشدة ولم يكن السند ولم يقدم الدعم.

الحرب كانت طاحنة (حرب أُحد) .. فإذا لم يكن عندك حرب في بلادك، لا حرب على الأوطان أو حرب على الأديان، وكنت تعيش في أمان.. فاحمد الله، واجعل جهادك تحت تعريف العلماء:

(الجهاد: هو بذل المجهود لتحقيق المقصود).. فإذا لم يكن لديك حرب فهناك ميادين كثيرة تستطيع أن تحارب فيها.. فعندما رأى النبي ﷺ شخصًا قويًّا، قال الصحابة عنه: **(لو كان هذا في سبيل الله!)**. فقال لهم النبي ﷺ وهو ينير لهم حياتهم وفكرتهم عن الجهاد:

> **«إنْ كان خرج يسعى على ولدِه صغارًا فهو في سبيلِ اللهِ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيلِ اللهِ، وإنْ كان خرج يسعى على نفسِه يعفُّها فهو في سبيلِ اللهِ»**[(182)].

فأنت إن كنت تذاكر أو تعمل، وكذلك أي شخص يعمل عملًا نافعًا يبذل فيه المجهود لتحقيق مقصود يحبه الله ويرضى عنه هو ورسوله، فهذا هو الجهاد في سبيل الله بتعريف العلماء الذي أخذوه من تعريف رسول الله ﷺ.

المواقف الصعبة تبين معادن الرجال

لو رأيت المنافقين الجُبناء عندما فروا من المعركة لعرفت حينها كيف أن المواقف تبين المعادن، وكيف أن المحن تُمثل ابتلاء.

الابتلاء: هو موقف يُظهر الحقيقة، والاختبار: موقف يُظهر الخبر.

فالاختبارات والابتلاءات تبين حقائق من الأهمية بمكان أن تراها؛ ولذلك لا تستغرب حدوث الاختبارات:

أولًا: أنها تبين حقيقتك، وهل أنت شخص جيد وشجاع حقًّا أم لا.. فتجعلك تراجع الصفة في نفسك أولًا.

ثانيًا: تبين لك حقيقة من حولك، هل هم سند لك أم مجرد أصحاب على المقهى أو في الرخاء فقط ووقت المرح والرفاهية.. فتبين الاختبارات حقيقة الشخص وتوضح له ما يريد أن يصححه في شخصيته وفي قيمه.

نصر المسلمين ثم انكسار جيشهم

اشتدت المعركة جدًّا، وخالد بن الوليد لم يكن قد أسلم بعدُ، وكان لا يستطيع أن يتحرك بالثلاثمائة فارس الموجودين معه فكان كالمشلول.. لماذا؟ لأنه وهو ينظر ناحية التل فكر أنه عندما يتحرك فالخمسون راميًا سيرمونهم ويقتلونهم جميعًا وبسرعة، وبالفعل حاول أن يتحرك فإذا بالأسهم تأتي من رُماة المسلمين فقتلت مجموعة من الفرسان معه فرجع مرة أخرى من حيث أتى، وبدأت المعركة يحدث فيها تقدم للمسلمين ومدد من رب العالمين. ويحكي وحشي بن حرب بعدما أسلم فيقول: (خرجت أطلب حريتي). أي أنه خرج ليقتل سيدنا حمزة حتى تطلقه سيدته حرًّا، يقول: وكنت راميًا ماهرًا جدًّا،

فنظرت إلى حمزة فرأيته كالجمل الأورق يهد الناس هدًّا لا يقوم له شيء، فكان يسير يشق الصفوف في منتهى القوة، فهو «أسد الله»، فعلمت أني لا أقتله إلا غيلة – من الخلف – أي أنني لا أستطيع أن أواجهه وجهًا لوجه ولكن لا بد أن أقتله من ظهره.. وسنكمل القصة في السطور القادمة.

وبدأ المشركون يفرون ويتجهون بظهورهم تجاه مكة، وبدءوا يرجعون للخلف، وهند بنت عتبة ظلت تدق بالطبول وتسبهم بسبب جُبنهم وأنهم يتراجعون إلى أن جعلوا ظهورهم للمعركة وظلوا يجرون مسرعين لدرجة أن سيدنا الزبير بن العوام يقول: (رأيت خدم ساق هند وهي تجري هي والنساء). و هذا تعبير عند العرب يفيد شدة الجري وسرعته، «خدم الساق»: أي أول جزء في القدم بعد الكعب، فعندما تجري النساء جريًا سريعًا وهن يرتدين مثل العباءة أو الفستان الطويل ترتفع العباءة فيظهر جزء من أقدامهن، وتبدأ الخلاخيل التي كنَّ يرتدينها في أقدامهن تلمع في الشمس. يقول: وكنا سنأخذهن ولكن لم نأخذهن أسرى.

وفي وسط هذا المشهد يقول القرآن:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: 152]

﴿تَحُسُّونَهُم﴾: أي مكنكم الله منهم.

ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟

ما حدث هو أن هناك أربعين من الخمسين رجلًا من الرُّماة الذين يقفون فوق التل نسوا وصية النبي ﷺ عندما قال لقائدهم ولهم:

> **«انضح عنا الخيل بالنبل، لا يأتوننا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قِبَلِك». ثم قال للرماة: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»(183)**

فنسوا تلك الوصية وقالوا: (الغنيمة الغنيمة).

والله تعالى يقول:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[آل عمران:152]

فنزل أربعون رجلًا من الرُّماة الخمسين، وخالد بن الوليد كان بصره منصبًّا على هذا المشهد، فعندما رآهم قد نزلوا ولم يتبق إلا عشرة فقط، خرج بما تبقى معه من الثلاثمائة فارس وقتل سيدنا (عبد الله بن جبير) الذي ظل ينادي على الرُّماة الذين نزلوا ويخبرهم أنه بنزولهم قد تفسد الخطة وينهزمون، وقتل خالد العشرة المتبقين كلهم، وصعد فوق التل.. فأنت عندما تزور المدينة اصعد على هذا التل واكشف

مكان أرض المعركة وتذكر هذه الكلمات.. وعندما صعد خالد التل ظل يصيح صيحات، في بعض الروايات أنه قال: (اعلُ هُبَل). و«هُبَل» كان صنمًا يعبدونه.

فرأت هند بنت عتبة هذا المشهد هي وامرأة أخرى تُسمى (عمرة بنت علقمة)، وهي من المشركات المشهورات في مكة، فأخذت اللواء ورفعته، وأبو سفيان رأى هذا المشهد، والمسلمون أيضًا شاهدوا هذا المشهد، وبدا لهم في هذه اللحظة أن الخطة بدأت تفسد.

وفي هذه اللحظة أيضًا حدث شيء كان كالصدمة للمسلمين، وهو أن سيدنا (مصعب ابن عمير) - الذي بعثه الرسول ﷺ إلى المدينة وأدخل جميع بيوت المدينة في الإسلام، والذي قال عنه النبي ﷺ إنه لم ير لمة مثل لمته؛ أي أنه كان صاحب أجمل تسريحة شعر، وكان يلبس الفاخر من الثياب.. فكان أشيك وأرق وأجمل شاب، وكان مقاتلًا شجاعًا - جعله النبي ﷺ يمسك اللواء، فجاء (عبد الله بن قمئة) ولم يكن يتذكر جيدًا شكل النبي ﷺ، فحسب أن مصعب بن عمير هو النبي ﷺ، فضربه على يده اليمنى فكأنها انقطعت، فقام سيدنا مصعب وحمل اللواء بيده اليسرى، فضربه على يده اليسرى فكأنها شُلت أو انقطعت فأمسك اللواء بين صدره، فظل يضربه حتى قتله وسقط لواء المسلمين.

سقط اللواء وفسدت الخطة، وعندما رأى ابن قمئة هذا في وسط الزحام عندما قتل سيدنا مصعب بن عمير -الذي حسبه رسولَ الله- ظل يقول: (قتلت محمدًا .. قتلت محمدًا).

كل هذا والنبي ﷺ يجهز الصفوف ويقول:

> **«أيها الناس، هلموا، إني أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»**(184)

وفي وسط هذه المعمعة ظن كثير من المسلمين أن النبي ﷺ قد قُتل وأنهم لا يرونه، ففسدت الخطة وبدأ بعضهم يتراجع ويعود إلى المدينة.

شؤم معصية كلام رسول الله ﷺ

نزول الرُّماة ومعصيتهم لسيدنا رسول الله ﷺ كان بسبب طلب الدنيا، فالدنيا المذمومة في القرآن ليست أن آكل أكلة شهية، أو ألبس الفخم والغالي، أو أسكن في بيت جيد، فهذا حلال يحب الله أن يراني متنعمًا فيه

> **«إنَّ اللهَّ يُحبُّ أن يَرى أثرَ نعمتِه علَى عبدِه»**(185)

فالله تعالى يحب أن يراك وأنت مُنعَّم قَدْرَ استطاعتك، لكن الدنيا المذمومة هي طلب الأشياء بمعصية الله، أو الانشغال بهذه الأشياء عن فرائض الله، فقد عصى الرماة كلام النبي ﷺ، والأخطاء التي حدثت كانت نعمة عليهم وعلينا؛ عليهم لكي يعلمهم النبي ﷺ ويزدادوا نورًا من علمه، وعلينا؛ لأنهم الجيل الذي حدثت فيهم جميع المواقف التي نزلت فيها آيات قرآنية وتوجيهات نبوية تنير لنا حياتنا.

فالأربعون صحابيًّا الذين استعجلوا الغنيمة وعصوا النبي ﷺ الذي كان كلامه في منتهى الوضوح في وصيته لهم بألا يتحركوا من مكانهم مهما حدث- سواء بالنصر أو الهزيمة - كانوا سببًا في الهزيمة وفيما حل بإخوانهم.

فمعصية أمر النبي ﷺ شؤم.. لماذا؟

لأن النبي ﷺ لا يوجد عنده غرض أو مصلحة عندما يأمرنا بفعل شيء، ولكن أوامره تكون نورًا لنا نحن، فهي حتى ليست لنفع الله؛ لأن رب العالمين لا ينتفع بالخلق، فهو مستغنٍ عنا، اسمه (الغني المُغني) فلا يريد منا شيئًا لنفسه سبحانه وتعالى.

وبالتالي عندما يطلب مني الطبيب أن آخذ الدواء ثم لا آخذه فأنا وقتها الذي أتأذى وسيتأخر شفائي أو سيتضاعف المرض..

وكذلك عندما يخبرني رسول الله ﷺ بشيء أو يأمرني بشيء أطيعه بالطبع؛ حتى يحبني ويفرح بطاعتي لكلام رب العالمين، وبالتالي اختلف العلماء: هل كانت هذه مقتلة عظيمة أم هزيمة كلية للمعركة؟ لكنه في النهاية كان يومًا صعبًا جدًّا على سيدنا محمد ﷺ وعلى جميع أصحابه، استشهد فيه عدد ضخم جدًّا لم يحدث في أي معركة سابقة، والسر في الهزيمة كان عدم سماع كلام سيدنا محمد ﷺ والالتزام به.

فدائية الصحابة حول النبي ﷺ

المشهد الآن.. هو أن خالد بن الوليد ومن تبقَّى معه من الثلاثمائة فارس بدءوا يلتفون حول تل الرُّماة وأتوا من خلف الجيش حيث كان هناك رسول الله ﷺ ومعه مجموعة من الصحابة، وكان ﷺ يصفُّ الجيش الذي حدث له ارتباك شديد بسبب رجوع المشركين مرة ثانية بعدما علموا أن خالدًا أفسد الخطة التي وضعها المسلمون، وكان جزء من المسلمين يظن أن النبي ﷺ قُتِل فبدءوا التحرك ناحية المدينة لحمايتها.

وسيدنا أبو بكر الصديق وسيدنا عُمر بن الخطاب في وسط هذا الزحام ظلا يبحثان عن رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ يقول: **«أيها الناس، هلموا، إني أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»**.. وهذه قمة الشجاعة، وهي أن يعلن عن نفسه وأنه ما زال حيًّا؛ فالكثير من المشركين لم يكونوا يعرفون شكل النبي ﷺ.

وبدأ الأنصار يلتفون حول رسول الله ﷺ سبعة أو ثمانية منهم، وكل واحد منهم يقف أمام النبي يُقتل، إلى أن جاء (عمار بن زياد بن السكن) وظل يقاتل قتالًا شديدًا أمام سيدنا النبي ﷺ إلى أن وقع وهو مثخن بالجراح، وسيدنا النبي ﷺ ينظر إليه ويضع رأسه على رجله، وكأنه يعلم أنه سيُستشهد الآن، وبالفعل انتقل إلى جوار ربه تعالى ورأسه في حجر النبي ﷺ.

ثم حدث بعد ذلك مشهد غريب جدًّا مع سيدنا سعد بن أبي وقاص وعتبة بن أبي وقاص، حيث كان عتبة في جيش المشركين يمسك بالحجارة ويرميها على النبي ﷺ وعلى من معه من الصحابة، وكان سيدنا سعد بن أبي وقاص بجوار النبي ومن أمهر الرُّماة، فظل النبي ﷺ يقول له:

«ارمِ فداكَ أبي وأمي»[(186)]

فكان بذلك سيدنا سعد هو الشخص الوحيد الذي جمع النبي له أباه وأمه؛ أي قال له: (فداك أبي وأمي).. فالجميع كان يقول للنبي: (فداك أبي وأمي يا رسول الله) إلا سعد؛ فإن النبي ﷺ هو الذي قال له ذلك.

وكان من الأبطال الشداد الذين ظهروا في هذا المشهد المليء بالارتباك الشديد سيدنا (طلحة بن عبيد الله الأنصاري) .. كان يقف حول النبي ﷺ ويضع جسمه أمامه ﷺ؛ ليفديه بنفسه، وظل يقول: (اخفض رأسك حتى لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك يا رسول الله).

وكأنه يقول: أنت رقبتك وحياتك تساوي الدنيا وما فيها يا رسول الله، أما أنا فأحد رجالك وروحي فداك. ووضع يده أمام النبي ﷺ فجاء سهم أصاب يده فشُلَّت، فسماه النبي ﷺ في هذا اليوم (طلحة الخير).

وجاء سيدنا أبو بكر الصديق وسيدنا عمر بن الخطاب يدافعان عن النبي ﷺ، ولكن من أكثر من دافع عن النبي ﷺ في هذا اليوم السيدة (أم عمارة)، وهي واحدة من مقاتلات جيش المسلمين، يقول عنها النبي ﷺ: «لا أنظر أمامي أو يميني أو شمالي فلا أرى إلا أم عمارة تقاتل بسيفها».

وفي وسط القتال والنبي ﷺ ينظر إليها وكأنه يقول لها إنها بمائة رجل، نظرت إليه فقالت: (ادع الله أن نرافقك في الجنة). فقال:

«اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة»[(187)]

فلم يكن هناك أحد مع النبي ﷺ إلا وهو مستعد لتقديم روحه في سبيل الحفاظ على نور النبي ﷺ.. كل هذا بسبب خطأ الرُّماة الذين بسببهم انقلب الحال واستشهد سبعون من أعظم خلق الله من الصحابة.

مواجهة الأقدار بالاختيار

إذا سألت نفسك: ما ذنب الجيش في معصية الأربعين راميًا الذين عصوا أمر رسول الله وباقي السبعمائة من الجيش كانوا في منتهى الشجاعة والإقدام والتضحية؟ فلماذا يدفعون ثمن معصية الأربعين؟

أول شيء أريد أن أنبهك له.. قِف أيها العقل عند منتهاك، فمن الممكن ألا تدرك الحكمة، فعندها سلِّم لأقدار الله التي تكون أوسع بكثير من إحاطتك وإدراكك؛ لأنك سترى هذا كثيرًا في حياتك.. سترى في حياتك أنك مُسيَّر في أقدار الله ومُخيَّر في رد فعلك معها.

فمثلًا:

ما ذنبك أن أباك وأمك كانا كثيري الشجار والمشاحنات وأنت طفل صغير؟!

ما ذنبك أنك نشأت في عائلة بسيطة لم تُعلِّمك أو تدخلك المدارس؟!

ما ذنبك أنك نشأت في عائلة غنية جدًّا لكنهم مترفون واختاروا البعد عن ربهم ؟!

فأنت مُسيَّر في أقدارك التي حولك .. وورقة امتحانك هي أنك مُخيَّر فيما ستفعل، فما رد فعلك تجاه الأحداث؟

فهل تشعر في قلبك وكأنك ضحية لرب العالمين، وتتساءل: لماذا فعل الله معي هذا الأمر؟! فتتهم رب العالمين أنه ظلمك -حاشاه سبحانه- وهنا تجد الرد من الله تعالى في القرآن وهو يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[يونس:44]

أم أنك ستتحمل مسئولية مصيرك وتقول مثلًا إن لديك نعيمًا في أشياء من حياتك، كما أن لديك ابتلاءات واختبارات في جوانب أخرى، فتكون في الرخاء وعند النِّعَم شاكرًا، وعليك أن تُذيق من حولك من نعم الله عليك، وفي البلاء تكون صابرًا وتحاول أن تخرج من البلاء بأقل خسائر، وعندما تُعصَر مثل الفاكهة تُخرج أفضل ما فيك؟

ففي كثير من الأوقات يكون بيتك به شيء من التبذير في صرف المال - أي مصروف البيت - وتُفاجأ أنك المسئول، ويجب أن تصلح مشاكل الشخص الذي صرف بطريقة خاطئة وتسد ديونه، سواء كان أباك أو أخاك.. فتقول: ما ذنبي؟

فالله تعالى ينفق لك أموالك في أعلى شيء ممكن أن تُنفَق فيه.

فمثلًا يمكن أن تقول: ما ذنبي أن يظل إخوتي يتشاجرون وأنا مَن عليَّ الإصلاح بينهم؟! أقول لك: إن أعظم شيء يمكن أن تقابل به رب العالمين هو (إصلاح ذات البين).

مثلًا تقول وتتساءل: ما ذنبي أنني جئت في زمن فيه حروب؟!

أقول لك إنك مُسَيَّر في الزمن الذي تُخلَق فيه ولكنك مُخيَّر ماذا ستفعل فيه.

ولذلك فالصحابة الذين عُصِروا - إن صح التعبير - في الغزوة نزل منهم أحلى رحيق ونُصرة للنبي ﷺ؛ فمنهم من أكمل الطريق معه، ومنهم من اصطفاه الله شهيدًا وذهب ينتظر النبي ﷺ عند أبواب الجنة:

﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: 169]

فواجه أقدارك باختيارك؛ بأن تختار: ماذا ستفعل في النعمة، وماذا ستفعل عند المحنة.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد الحبيب المحبوب، صلاةً تُطهرنا بها من غرور النفس وشواغل الحس وسائر الشرور وخائنة الأعين وما تخفي الصدور، صلاةً تغفر لنا بها جميع الزلات والآفات، وتسترنا بها في الحياة، وترحمنا بها بعد الممات.

اللهم أكرمنا ولا تُهِنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وأعنَّا ولا تُعن علينا، والطف بنا يا مولانا فيما جرت به أقدارك، واملأ قلوبنا بفيض أنوارك.

---

(177) رواه البخاري.
(178) رواه النسائي.
(179) رواه البزار وابن هشام في السيرة.
(180) رواه البخاري.
(181) رواه أبو داود.
(182) رواه المنذري.
(183) رواه البخاري.
(184) رواه ابن إسحاق.
(185) رواه الترمذي.
(186) رواه البخاري.
(187) رواه الذهبي.

18

قصص شُهداء أُحد

في الفصل السابق أوضحنا ما حدث في موقعة أُحد وأنه كان هناك ثلاثة آلاف مُقاتل من مُشركي مكة أرادوا الهجوم على المدينة انتقامًا من المسلمين الذين هزموهم في العام الماضي في موقعة بدر؛ ولهذا جهَّز المسلمون جيشًا مكونًا من ألف مقاتل، وفي أثناء خروجهم انسحب منهم ثلاثمائة منافق فأصبحوا سبعمائة مقاتل فقط يدافعون عن بلدهم وعقيدتهم من هجوم المشركين؛ امتثالًا لقول الله تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة:190]

الحرب في البداية كان بها انتصار ساحق للمسلمين بالرغم من قلة العدد مقارنةً بجيش المشركين، وقد وضع النبي ﷺ الخطة الحربية بأن يقف خمسون راميًا فوق تل الرُّماة؛ لأن جيش المسلمين كان يقف بالعرض بجانب جبل أُحد، فخشي النبي ﷺ أن يهجم عليهم خالد بن الوليد - وكان مشركًا وقتها- ويلتف حولهم بثلاثمائة فارس، فأوقف الرُّماة وقال لقائدهم عبدالله بن جبير كلامًا في منتهى الوضوح:

«انْضَحِ الخَيْلَ عَنَّا بِالنَّبْلِ»(188)

أي ارموا بالسهام عنَّا حتى لا يلتفوا من ورائنا.

«إن كانت لنا أو علينا».. أي إذا انتصرنا أو انهزمنا فلا تتبعونا.

«إن رأيتُمونا تَخطفُنا الطَّيرُ فلا تبرَحوا من مَكانِكُم هذا حتَّى أُرْسِلَ لَكُم، وإن رأيتُمونا هزَمنا القومَ وأوطَأناهُم فلا تبرَحوا حتَّى أُرْسِلَ إليكُم»(189)

كلام واضح لا التباس فيه.

وما حدث أن المسلمين انتصروا ولكن دخلت الدنيا في قلوب أربعين راميًا من الخمسين، فنزلوا من فوق التل ليجمعوا الغنائم، وقائدهم (عبد الله بن جبير) من فوق التل ظل يقول لهم: **(لا تعصوا أمر رسول الله)**. ولكنهم لم يستمعوا إليه.. عندئذٍ رآهم خالد بن الوليد عندما نزلوا فصعد وقتل العشرة المتبقين وقال: (اعلُ هُبَل).. وهي صيحة من صيحات المشركين وقتها توحي بالانتصار.

عندئذٍ عاد المشركون مرة أخرى بعدما فروا من المسلمين، والتف خالد بن الوليد بجيشه الذي كان عدده ألفين وسبعمائة مقاتل، إضافة إلى ما تبقَّى من الثلاثمائة فارس الذين كانوا معه، جاء ودخل على جيش المسلمين من الخلف وكأنها كماشة أحدثت ارتباكًا شديدًا وقتها في صفوف المسلمين، كما خرجت شائعة وقتها بأن النبي ﷺ قد قُتل، وذلك عندما قام (عبد الله بن قمئة) الذي خرج لقتل النبي ﷺ ولكنه قتل وقتها سيدنا (مُصعب بن عُمير)؛ لأنه كان يحمل راية الإسلام، فظن أنه هو النبي ﷺ؛ للشبه بين النبي وسيدنا مُصعب، وبسبب أن الكثير من المشركين لم يكونوا يعرفون شكل النبي ﷺ جيدًا، فأشيع أن النبي ﷺ قد قُتل.. وعاد الكثير من الصحابة في اتجاه المدينة ليحموها بعدما ظنوا مقتل سيدنا محمد.

فأين كان النبي ﷺ وقتها؟

كان النبي ﷺ في وسط القتال يواجه خالد بن الوليد بعدد قليل جدًّا من الصحابة في وسط ارتباك شديد.. وفي وسط كل هذه الأحداث تحدث البطولات والتي أود أن أبدأها بـ(بطولة النبي ﷺ)؛ فقد علم (عبد الله بن قمئة) بأن النبي ﷺ لا يزال حيًّا وأنه لم يُقتل، فذهب بجنوده وبدأ هو و(عتبة بن أبي وقاص) أخو سيدنا (سعد بن أبي وقاص) وقد كان مُشركًا.. بدءوا في إلقاء الحجارة على النبي ﷺ فجاءت على وجهه ﷺ وعلى أسنانه، ثم قام (عبد الله بن قمئة) وضرب النبي ﷺ وهو في وسط مجموعة قليلة من أصحابه؛ ضربة بالسيف على الرأس وضربة على الكتف.

أما الضربة التي على الكتف.. فقد ظل النبي ﷺ شهرًا بعد المعركة يتألم منها.. وأما الضربة التي جاءت على رأسه الشريف.. فقد تسببت في تحريك المغفر – الخوذة – وكان مصنوعًا من الحديد، فدخل في وجه النبي الشريف.

ثم في وسط الحرب جاء رجل يُسمى (أبو عامر الراهب) وكان يتمنى أن تنزل عليه النبوة، وعندما لم تنزل عليه ظل يعادي النبي ﷺ وقد أسماه ﷺ(أبو عامر الفاسق)، وكان من خوفه أنه يحفر حُفرًا للنبي ﷺ في وسط الغزوة حتى يجعله يسقط فيها، وبالفعل سقط النبي ﷺ في واحدة منها فارتطم وجهه الشريف بصخرة في الأرض فانكسرت رباعيته ﷺ (وهي سِن من أسنان النبي الموجودة في جانب فمه الشريف).

سيدنا النبي ﷺ عمره الآن ستة وخمسون عامًا.. دخل المغفر في وجهه، وانكسرت رباعيته، ومُلئ فمه بالدماء، وضُرِب على كتفه بالسيف.. ومن حوله الصحابة يحاربون قدر استطاعتهم.. كل هذا حدث بسبب معصية الرُّماة الذين خالفوا كلام النبي ﷺ.

وفي هذه الأثناء يأتي سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحاول أن ينزع عن سيدنا النبي ﷺ حلقات المغفر التي دخلت في وجهه الشريف، فاستأذنه (أبو عبيدة بن الجراح) أن يقوم هو بذلك، فوجد أن يده إذا وضعها ستؤلم النبي ﷺ فاستخدم أسنانه ليفك الحلقات ببطء مثل فك العُقدة بالأسنان.. فحاول أن يضع أسنانه بين حلقات المغفر ولحم وجه النبي ﷺ حتى يخرج الحلقات فانكسرت أسنانه عندئذٍ وتسبب ذلك بأن حدث عنده (هَتَم)؛ أيْ كسر في الأسنان الأمامية، وبسبب كسر أسنانه في هذا الموقف كان (أجمل أهتم في الإسلام).

وانفجر وجه النبي ﷺ بالدماء، فظل يغترف الدم بيده ويقول:

> (كيفَ يُفلِحُ قومٌ خضَّبوا وجهَ نبيِّهم بالدَّمِ؟!) (190)

الخضاب: أي الصبغة.. وكأن وجهه ﷺ صُبغ بالدماء.. فأحد الصحابة قال للنبي ﷺ: (أفلا تدعُو عليهم؟). فقال النبي ﷺ:

(إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وإِنَّما بُعِثْتُ رَحْمَةً)[(191)]

لا تتهاون في الحفاظ على قيمك

غزوة أحد هي أكثر غزوة أُصيب فيها جسد النبي الشريف ﷺ؛ فقد ضُرب على كتفه ضربة ظل يعاني من ألمها شهرًا، وضُرب على رأسه الشريف، والذي قد حماه الله بالخوذة التي كان يرتديها والتي كانت تُسمى بـ«المغفر»، و(الغفر) أي التغطية، فدخلت حلقاتها في وجهه ﷺ، وسقط ﷺ في الحفرة على صخرة فكُسرت أسنانه، وجرحت شفته السُّفلى، وكذلك جُرِحت ركبتاه كما في روايات السير، فتغيرت ملامح وجه النبي ﷺ بعد هذه الغزوة، وتأثرت صحته بشكل كبير.. تخيل عمر النبي ﷺ الآن ستة وخمسون عامًا وحدث معه كل هذا!

أوضح هذا الكلام لنفسي حتى إذا سمعت (الصلاة خيرٌ من النوم) أتذكر سيدنا النبي ﷺ وهو يبتسم لي وكأنه يقول لي: (لا تتأخر عن الصلاة)، وعندما تحدث لي ضائقة مالية أتذكر سيدنا محمدًا ﷺ وكأنه يقول لي: (لا تمد يدك إلى الحرام.. فالدين غالٍ).

ربك – سبحانه وتعالى – يقول في القرآن:

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف:169]

فمعنى هذه الآية أن هناك أجيالًا ستأتي بعد النبي ﷺ ﴿ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾: أي ورثوا القرآن.. مثل أبناء ورثوا مالًا عن والديهم ولم يتعبوا فيه، وقد ادخره الوالدان في حياتهما بعد معاناة وتعب وحرموا أنفسهما من أجل هؤلاء الأبناء، ثم بعد وفاة الوالدين بدَّد هؤلاء الأولاد المال باستهتار خلال مدة قليلة؛ لأنهم لم يتعبوا فيه، وبالتالي لم يحافظوا عليه..

ولذلك فسيدنا محمد ﷺ قد تحمَّل كل هذا من أجلك ومن أجلي؛ حتى نعيش في بلادنا في أمان ونعبد الله، ويغشانا الستر واللُّطف من رب العالمين.

فخسارة أن نستهين بمجهود النبي ﷺ الكبير من أجلنا.. فحافظ على صلاتك وعلى أمانتك في العمل؛ لأنه إذا لم يكن الشخص أمينًا وكان غشاشًا فإن هذا يتسبب في وجود شراسة في المجتمع، وهذا لا يرضي النبي ﷺ، فالشراسة هنا أنه مثلًا عندما أغشك فتتعامل مع أي شخص في نفس المجال، فإنك تُخوِّنه؛ لأنك تضررت مرة بسببي، فكما يقول المثل (اللي اتلسع من الشربة ينفخ في الزبادي)، وهكذا في جميع المجالات.. فتذهب للطبيب وأنت مخوِّنه، وكذلك للميكانيكي، وللمهندس، حتى للشيخ تكون غير مُطمئن له، لماذا؟ كل هذا بسبب لدغات سابقة من أشخاص غير أُمناء في نفس المجال، وبالتالي على كل منا أن يحافظ على قيم وسُنة النبي ﷺ وأنواره حتى يعود النور والأمان للناس، والموضوع يستحق ذلك

وأكثر؛ لأن النبي ﷺ تفانى في إيصال ما نحن فيه الآن من خير.. ونحن نتكلم الآن ببساطة عن قصته ﷺ المليئة بالتضحيات.

استشهاد سيدنا (حمزة بن عبد المطلب)

أما مشهد البطولة الثاني، ومشهد الشهادة في سبيل الله الذي حدث، فإنه في وسط زحام المشركين وهجومهم على عدد المسلمين القليل وقتها كان يقف سيدنا (حمزة بن عبد المطلب) «أسد الله» وعم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة، فقد أرضعتهما في صغرهما (ثويبة) مولاة أبي لهب عم النبي وأخي حمزة، وهناك روايتان في فرق السن بينهما وهو أن حمزة أكبر من النبي إما بسنتين أو بأربع سنوات.

فجاء (وحشي بن حرب) الذي كان عبدًا لـ(جبير بن مُطعم) الذي قُتل له أحد أقاربه في غزوة بدر، كما أن سيدنا حمزة كان قد قتل (عُتبة وشيبة ابني ربيعة).. فوقتها كانت (هند بنت عُتبة) تريد الانتقام منه لقتله أباها وعمها.. وكانت (هند) زوجة أبي سُفيان، فذهبت حينها إلى (جبير بن مُطعم) واتفقت معه على أن تدفع له المال حتى يُكلف (وحشي) - وكان عبدًا عنده، وكان من أمهر الرُّماة - بقتل حمزة؛ لأنهم يعلمون أنه من الصعب لأحد أن يُبارز سيدنا حمزة وجهًا لوجه، وسيتفقان مع وحشي أنه سيتحرر من العبودية إذا قتله، فقال لها (جبير): (ثأرك هو ثأري). أي أنه أيضًا يريد قتله، وبالفعل اتفقا مع وحشي على تحريره مقابل قتله سيدنا حمزة.. واعلم أن تحرير العبد من عبوديته شيء كبير جدًّا وكأنه سيخرج من النار من كثرة إهانة وظلم العبيد، فبالفعل وافق وحشي على هذا العرض الكبير.. يقول: (فخرجت أطلب حُريتي). يقول: (فنظرت إلى حمزة في وسط الحرب فرأيته مثل الجمل الأورق (الضخم) يهد الناس هدًّا، لا يقوم له شيء، فعلمت أني لا أقتله إلا من ظهره غيلة؛ أي أغتاله من ظهره). قال :(فهززت حربتي حتى رضيت عنها، فكانت جموع المشركين كثيرة وحمزة يحارب وسط المسلمين، ثم أطلقت الحربة فدخلت في ظهره وخرجت من بين رجليه). يقول: (فاستدار لي حمزة؛ أي نظر إليَّ، وعندما جاء ليأخذ خطوة تجاهي سقط). يقول: (فتركت المعركة بعد ذلك وذهبت إلى مكان يُسمى (السوقة) في مؤخرة الجيش يقومون فيه بإعداد الطعام للجيش، فأنا لم أكن آتي للحرب وإنما لقتال حمزة فقط من أجل حُريتي).. كل هذا الكلام يحكيه سيدنا وحشي بعد أن أسلم فيما بعد.

فقامت (هند بنت عُتبة) بفتح بطن سيدنا حمزة لتأكل جزءًا من كبده، وكانت هذه عادة عند العرب قديمًا تدل على الانتصار على الخصم والتمثيل به، فجاءت لتأكلها، ويشاء الله أنها لم تستسغها فلم تأكل منها وتركتها..

استشهاد (سعد بن الربيع)

من البطولات الأخرى بطولة (سيدنا سعد بن الربيع).. أتتذكره؟

فهو من آخاه رسول الله ﷺ مع سيدنا (عبد الرحمن بن عوف)، وهو من قال لسيدنا عبد الرحمن وقتها: أَقسم معك نصف مالي ونصف بيتي. فرد عليه بأن (بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلني على

السوق).. فهذا الصحابي الشهم النبيل بحث عنه النبي ﷺ بعد انتهاء المعركة، فكلَّف سيدنا (زيد بن ثابت) أن يبحث عنه فقال: «من ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟»[192].

وبالفعل بحث عنه سيدنا زيد فوجده في الرمق الأخير - في آخر لحظات حياته - فقال له: (النبي ﷺ يُسلِّم عليك ويقول لك: كيف أجدك؟). قال: (أبلغ رسول الله مني السلام وقُل له إني أجد ريح الجنة).

أي سأترك الدنيا والملائكة ستستقبلني، وإني أشم رائحة الجنة..أنا أيها القارئ الكريم أشهد بصدق هذا الكلام.

وقال: (**قُل للأنصار إنه لا عُذر لكم إن خُلِص إلى رسول الله وبينكم عين تطرف**). أي أبلغ الأنصار من أهلي وقومي ألا يتركوا النبي ﷺ أبدًا لينال منه المشركون ويصلوا له بالأذى ونحن لا نزال أحياء.

وكأنه يقول للناس عبر العصور: (**لا عُذر لنا أن تضيع قيم وأخلاق سيدنا محمد ﷺ ورحمته وسُنته التي هي سِر النور الموجود في الدنيا**).

ولكن الله يعلمهم

عندما أدخل الجنة -بإذن الله- سأطلب من رب العالمين أن أرى سيدنا حمزة بن عبد المطلب -سيد الشهداء- لأننا لم نعلم عنه إلا القليل.. لم نعلم كيف كانت عباداته وصلواته، ولكني متيقن أنه حتى يكون (سيد شهداء الجنة) و(أسد الله) أنه كان كبيرًا جدًّا في كل شيء..

وبهذه المناسبة فهناك الكثير ممن يعيشون في وسطنا أو حتى من استشهد في سبيل الله لم نعرف عنهم القصص الكثيرة، ولكنهم مثلما كان سيدنا حمزة في غزوتي بدر وأُحد، والمدينة لم تُستبح من جيش المشركين بسبب أنه كان صدره للعدو، فهناك الكثير من الناس الذين لم نعلم عنهم الكثير صدورهم للعدو، فنحن نعرفهم في الحرب فقط ولكن بالتأكيد كان لديهم حياة ثانية في منتهى الجمال والرحمة مثل الكثير من الناس.

فعندما أقرأ عن قصص حياة الشهداء أجد مثلًا من يتصدى للعبوات الناسفة التي كانت توضع في أماكن حيوية وإذا انفجرت تتسبب في موت الكثير من الناس مما لا ذنب لهم، فأجد أن هناك من تخصص في فك هذه العبوات الناسفة التي تفتك بالناس ويدخل بصدره رغم خطورة الوضع ويفكها وتنفجر فيه فينال الشهادة بعد أن يكون قد حمى الكثير من الخلق.. أتساءل: كيف عاش هذا الرجل؟ وكيف كان حال قلبه وقتها؟ فاللهم اجمعنا في الجنة بسيدنا حمزة سيد الشهداء..

وهذا مثلما حدث من شخصيات وأبطال مثلًا في كمين «البرث» منهم (المنسي - شبراوي- الحسيني..) وغيرهم الكثير ممن ضحوا بأنفسهم بالرغم من أنهم لم يكونوا مشهورين أو لديهم حسابات على مواقع التواصل الاجتماعي أو عدد متابعين، ولكن الله تعالى يعلمهم، فأعمالنا تُعرض عليه، قال تعالى:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[التوبة: 105]

فهؤلاء الأبطال هم من جعلونا نجلس في بيوتنا وفي أشغالنا في أمان.. فيا رب اجمعهم في الجنة مع سيد الشهداء.

وهذا هو الحال الموجود في كل العصور؛ لذلك لا تتعجب من سيدنا (سعد بن الربيع) الذي أوصى الأنصار عند وفاته فقال: (لا عُذر لكم إن خُلِص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف).. أي ما دمتم أحياء فلا تتخلوا عن نصرة رسول الله ﷺ.. وكأنه كلام مُوجه لكل شخص فينا لا يتحمل المسئولية، وبسبب تقصيره هذا تتأثر حياته أو أسرته أو بلده، فحتى إن كان يعمل في شيء صغير ولكنه مسئول عنه فسيُسأل عنه، فقد قال النبي ﷺ:

«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن رعيتِهِ»(193)

فهذا هو الجهاد الآن.

فاللهم أعنا على بذل ما بوسعنا – كل في مجاله – حتى إذا التقينا بسيدنا سعد بن الربيع في الجنة بإذن الله نقول له: (والله ما قصرنا).. فعلى قلة عملنا.. اللهم ابعثنا مع من ثقلت أعماله في الميزان..

استشهاد عبد الله بن حرام وكلام الله له

البطولة الآتية هي بطولة شخص مُختلف وهو سيدنا (عبد الله بن حرام).. كان لديه تقريبًا تسع بنات وولد هو (جابر بن عبد الله)، سيدنا عبد الله بن حرام رأى في منامه سيدنا (البشير بن المُنذر) وكان من شُهداء بدر، فقال له البشير في المنام: (**ألم تأتِ لتزورنا؟**) فسأله: (أين أزورك؟) قال له: (**في الجنة.. فنحن ننتظرك هناك**). فذهب سيدنا عبد الله وحكى للنبي ﷺ ما رآه فقال له:

«إنها الشهادة يا عبد الله»(194).

وفي اليوم التالي وقعت الغزوة، فطلب سيدنا جابر من أبيه أن يخرج في الغزوة فرفض؛ لأنه أراد أن يظل مع إخوته البنات، فكأنهما فعلا شيئًا يشبه «القُرعة» لاختيار من سيخرج منهما، فجاء الدور على سيدنا (عبد الله بن حرام) للخروج وهو يعلم باقتراب الشهادة، فعندما حزن سيدنا جابر نظر إليه والده وهو يبكي وقال: (لولا أنها الشهادة لآثرتك بها)، وقال لابنه: (أنا أراني سأكون أول من يُقتل). وبالفعل حدث ما كان، وفي بداية المعركة قُتل شهيدًا كما قصت علينا كُتب السِّيَر.

وهذا هو (عبد الله بن حرام) الذي قال لعبد الله بن أُبي ابن سلول، رأس المنافقين: (**تعال حارب معنا ولا تفر من المعركة**)، قال تعالى:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾[آل عمران:167]

وبالفعل دخل المعركة واستشهد في سبيل الله، وجاء ولده سيدنا (جابر بن عبد الله) يتفقده في وسط القتلى فوجده أشلاء، فظل يكشف وجهه ويبكي، وقد نهاه الصحابة عن ذلك، وفي اليوم التالي ذهب إلى رسول الله ﷺ فقال له:

«أفلَا أبشِّرُكَ بما لقيَ اللهُ بِهِ أباكَ؟». قلتُ: بلَى يا رسولَ اللهِ. قالَ: «ما كلَّمَ اللهُ أحدًا قطُّ إلَّا من وراءِ حجابِه، وأحيا أباكَ فكَلَّمَهُ كِفاحًا؛ فقالَ: يا عَبدي، تَمَنَّ عليَّ أُعْطِكَ. قالَ: يا ربِّ تُحيِيني فأقتلَ فيكَ ثانيةً. قالَ الرَّبُّ تبارك وتعالَى: إنَّهُ قد سبقَ منِّي أنَّهم إليها لَا يُرجَعونَ». قالَ: وأُنْزِلَت هذِهِ الآيةُ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾الآية(195)[آل عمران:169] .

يقول رب العالمين:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:169-171]

فالله تعالى يقول:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[الشورى:51]

ولكن كما نفهم من الحديث فقد كلم الله سيدنا عبد الله بن حرام بغير حجاب..

وكأن سيدنا عبد الله بن حرام كانت أمنيته أن يعرف الناس مكانة الشهيد في جميع العصور، فبسببه نزلت هذه الآيات التي بها البُشرى لكل إنسان يتفانى في سبيل ما يرضي الله، ويدافع عن قيمة ترضي الله ورسوله، سواء كانت وطنًا أو عقيدة.

مكانة الشهيد

قصص الشهداء تُحفِّزنا أنه عندما يقبض الله روح الشهيد يجعله في هذه المنزلة؛ لأن الشهيد له عند رب العالمين ست خِصال؛ منها أنه يُغفر له جميع ذنوبه عند أول دفعة دم سالت منه بسبب الإصابة، ويؤمَّن من عذاب القبر، ويؤمَّن من فتنة وأهوال يوم القيامة، ولكن انظر إلى التمكين في هذه النقطة (يُشفَّع في سبعين من أهله).. تخيل معي الشهيد يأتي يوم القيامة أمام رب العالمين يتشفع لوالده ووالدته وإخوته، لكن ما زال هناك عدد كبير، فهو مسئول عن سبعين من أهله يدخلهم الجنة، فيأخذ

أعمامه وعماته وأخواله وخالاته.. فأي كرامة ومنزلة تعدل هذه الكرامة والمنزلة يوم القيامة؛ أن يأخذ أهله ويُشفَّع فيهم ليدخلوا الجنة بإذن الله تعالى؟!

ولذلك لا تتعجب أن يقول سيدنا محمد ﷺ إن من ضمن جمال موت الشهداء أنه يرى من الكرامة عندما يموت ما يجعله يتمنى أن يعود مرة أخرى إلى الدنيا ليموت شهيدًا مرة ثانية.. فنحن لا نتخيل هذه الأمنية أن يرى شخص الموت بعينيه ويتمنى أن يعيد المشهد مرة ثانية!

ولكن النبي ﷺ قال:

«والَّذي نَفسِي بيدِه، لوَدِدتُ أنِّي أُقتَلُ في سبيلِ اللهِ ثمَّ أُحيَا، ثمَّ أُقتَلُ ثمَّ أُحيَا، ثمَّ أُقتَلُ ثمَّ أُحيَا، ثمَّ أُقتَلُ»(196)

لعلمه بما يراه الشهيد.. وأريد أن أذكرك بشيء؛ أن النبي ﷺ قال:

«من سألَ اللهَ الشَّهادةَ صادقًا بلَّغَه اللهُ منازلَ الشُّهداءِ وإن ماتَ علَى فراشِه»(197).

وبالمناسبة فهناك الكثير ممن مات على فراشه ولكنه - إن شاء الله - عند الله تعالى من الشهداء؛ لأنه عاش عيش الشهيد، والشهيد لديه صفة هامة وهي: أن ما يملكه أرخص وأقل أهمية عنده من عقيدته وأهدافه وقيمه، لدرجة أن أغلى ما يملكه وهي «روحه» تصبح رخيصة في سبيل قيمه، سواء دينه أو وطنه أو أرضه، فالتضحية بالمقتنيات في سبيل هذه الأهداف والقيم من طبع الشهيد؛ ولذلك عِش كذلك وسُتفاجأ بمقامك يوم القيامة عند رب العالمين.

بطولة عبد الله بن جحش وحنظلة بن أبي عامر ومُخيريق

ومن البطولات الخالدة بطولة سيدنا (عبد الله بن جحش).. أريد أن أُذكِّرك أن هجوم المشركين على المدينة اجتمع فيه أكبر غايتين لجيش المسلمين وهما (الدفاع عن العقيدة والدفاع عن الوطن)، وكان سيدنا النبي ﷺ علَّمهم أن من يدافع عن وطنه أو عقيدته لا يشعر بأي وجع أو ألم إذا اصطفاه الله شهيدًا وهو مُقبل على المعتدي غير مدبر.. أقول لك هذا الكلام حتى أبين لك سبب دعوة سيدنا (عبد الله بن جحش) بما دعاه.

فذات يوم كان سيدنا سعد بن أبي وقاص وسيدنا عبد الله بن جحش جالسين مع بعضهما قبل الموقعة بليلة واحدة، قال سيدنا سعد: (ألا ندعو الله؟). فبدأ سيدنا سعد يدعُو فيقول: (اللهم إني أسألك رجلًا شديد البأس شديد الحرد - الغل - أقاتله ويقاتلني فأقتله).

وقال سيدنا عبد الله بن جحش في دعوته: (اللهم إني أسألك رجلًا شديد البأس شديد الحرد أقاتله ويقاتلني، فيقتلني ويقطع أذني ويجدع أنفي ويبقر بطني حتى آتيك يوم القيامة هكذا فتقول: فيمَ يا عبدي؟ فأقول: فيك وفي رسولك يا رب).

وبعد انتهاء المعركة يحكي سيدنا سعد بن أبي وقاص فيقول: إنه رآه في وسط الشهداء بنفس الهيئة التي دعا بها وبجانبه خيط به أذنه وجزء من أنفه، وهذه كانت من عادات العرب وقتها أن الشخص الظالم المفتري عندما يقتل أحدًا يُمثِّل بجثته، وفي بعض الروايات عندما وجده هكذا قال: (صدق الله فصدقه الله). أي أنه تمنى أن يلقى الله بهذه الهيئة فحققها له رب العالمين.

ومن البطولات التي حدثت أيضًا من بطولات الشهادة في سبيل الله والأوطان (قصة سيدنا حنظلة)، فقد كان زواجه قبل ليلة أُحد بليلة واحدة، فعندما كان مع زوجته في هذه الليلة إذا به يسمع (يا خيل الله، اركبي)، وسمع أن هناك جيشًا سيهجم على بلاده فقام مسرعًا وخرج دون أن يغتسل كما في الرواية، فقُتل شهيدًا في المعركة، وعندما رآه النبي ﷺ بعد المعركة وجده يقطر ماءً، فسأل أصحابه عن سبب هذا الماء؛ لأنه من المعروف أن الشهيد لا يُغسَّل ولا يُكفَّن.. فسأل عمَّن غسَّله هكذا، فأجابه الصحابة أنه لا أحد منهم قد غسَّله وأنهم وجدوه في هذه الهيئة، فسأل النبي ﷺ عن حاله فوجده أنه كان في ليلته وقام جُنُبًا حتى لا يتأخر عن المعركة، وكأنه كان يقول إنه سيغتسل هناك، ولكنه قد قُتل شهيدًا قبل أن يغتسل فغسَّلته الملائكة، فقال النبي ﷺ:

> «إنَّ صاحبَكم حَنْظلةَ تغسِّلُه الملائكةُ»(198)

وسُمي من وقتها (حنظلة غِسِّيل الملائكة).

وأختم معك بشخص كان من يهود المدينة ولكنه أسلم اسمه (مُخيريق)، فعندما رأى العدوان على المدينة، ومن المفترض أن اليهود وقتها يدافعون عن المدينة مع النبي ﷺ بموجب الصحيفة التي تم الاتفاق عليها والتي عرضناها في الفصول السابقة، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، وقد خرج جيش المسلمين وكان عدده ألف رجل، ثم انسحب الثلاثمائة منافق، فأصبحوا سبعمائة فقط - قال مُخيريق ليهود المدينة: هيا لنحارب معهم لنحمي بلادنا. فكانت إجابتهم عليه بأن هذا اليوم يوم السبت وهذا عيد لديهم وعُطلة لا يخرجون فيه، فقال: (لا سبت لكم). وخرج وقاتل مع سيدنا رسول الله وقتل شهيدًا رضي الله عنه.

ويبقى المشهد الآن في المدينة عند عودة الجيش البالغ عدده بعد انسحاب المنافقين سبعمائة فقط، وقد فقدوا أيضًا سبعين من خيرة الصحابة، وكان أغلب بيوت المسلمين في المدينة وقتها قد لقي أحد أفرادها الشهادة رغم أنهم انتصروا على المعتدين في البداية، ولكن معصية البعض لرسول الله ﷺ ودخول الدنيا كان لها أثر كبير جدًّا فحدثت الهزيمة.. وكانت لحظة صعبة لا ينساها رسول الله ﷺ ولا أصحابه رضي الله عنهم.

صدق الله فصدقه الله

سيدنا عبد الله بن جحش (صدق الله فصدقه الله).. أتعرف ما معنى هذه الكلمة؟

أحيانًا يأتي الإنسان ليقوم بعمل صالح فتكون وراءه نيَّة كبيرة جدًّا وصادقة.

فمثلًا؛ من يُخرج من ماله خمسة أو عشرة أو خمسين جنيهًا، ويُعطي الخمسين جنيهًا لأحد المحتاجين الذي يظهر عليه شدة الاحتياج للمال، فبدلًا من أن يعطيه الخمسة جنيهات يعطيه الخمسين ونيته في ذلك أن يذهب هذا المحتاج لأولاده ويحضر لهم عشاء مُشبعًا يسد جوعهم به، فيُفاجأ يوم القيامة بأن هذا المبلغ أصبح في الميزان أثقل من جبل أُحد، فقد قال النبي ﷺ:

«مَن تَصَدَّقَ بعَدْلِ تَمْرَةٍ مِن كَسْبٍ طَيِّبٍ، ولَا يَقْبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ، وإنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ - الحصان الصغير الذي كانت العرب تعتني به اعتناءً شديدًا - حتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»(199)

فيبدو أن هذا الجنيه أو هذه التمرة خرجت بحب وبصدق؛ لأنك تريد أن تُسعِد الإنسان الذي أمامك أو تسد حاجته، فتُفاجأ بالجنيه أو التمرة يوم القيامة وهي تسد عين النار، قال النبي ﷺ:

«اتَّقُوا النَّارَ ولو بشِقَّةِ تَمْرَةٍ»(200)

فإذا كنت تأكل التمرة فوجدت جائعًا فأخرجت النصف الذي لم يلمس فمك وأعطيته إياه.. فشق التمرة هذا يسد عين النار؛ لأنك صادق فيما فعلت حتى تسعد من أمامك..

ومثلًا: تقول معلومة لصديقك وأنت تذاكر وهو معك في نفس الدفعة، وأنت من قلبك تريده أن ينجح فتساعده على المذاكرة.. فتُفاجأ أن رزقه وسعيه ونجاحه بعد ذلك في ميزان حسناتك؛ لأن الله نمَّى لك ذلك بسبب صدقك..

وكذلك الأب والأم الصادقان وهما يربيان أبناءهما وينصحانهم بصدق وإخلاص. فالقيام بالعمل بصدق وبقلب يجعل الشخص في منزلة عالية جدًّا عند رب العالمين.

سيدنا بلال يقول: (**أخلِص دينك لله.. يكفك العمل القليل**).

اللهم صلِّ بجميع الصلوات، وسلِّم بأعظم التسليمات، وبارك بأوفر البركات على سيد أهل الأرض والسماوات مولانا محمد عالي القدر فخر الأنبياء، صلاةً تشفينا بها من أمراضنا وأسقامنا، وتحفظنا بها من خلفنا ومن أمامنا، وتغفر لنا بها ذنوبنا وآثامنا، وتصرف بها عنا همومنا وأحزاننا.

اللهم ارحم كل فقير يرجو معونتك، وكل مريض يرجو عنايتك، وكل ميت يرجو رحمتك، واجعلنا لنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، وعافنا في باقي أعمارنا يا مولانا من كبر الظالمين.

---

(188) رواه البخاري.

(189) رواه أبو داود.

(190) رواه ابن ماجه.

(191) رواه مسلم.

(192)

رواه ابن هشام.

(193) رواه البخاري.

(194) ورد في الأثر.

(195) رواه الترمذي.

(196) رواه البخاري.

(197) رواه أبو داود.

(198) رواه ابن حبان.

(199) رواه البخاري.

(200)

رواه البخاري.

19

معركة حمراء الأسد وأحداث هامة بعد معركة أُحُد

ما زلنا في رحلتنا في نهاية السنة الثالثة من بعد هجرة النبي ﷺ، حيث انتهت غزوة أُحُد بما خلَّفت وراءها من مقتلة كبيرة جدًّا في المسلمين، وبما حدث من إصابة النبي ﷺ واستشهاد الكثير من كِبار الصحابة، وعاد سيدنا محمد ﷺ إلى المدينة ولكنه أراد أن يقوم بعمل موقف يبث فيه الهِمَّة في الجيش المُنكسر، وأيضًا علم النبي ﷺ أن أبا سُفيان - قائد جيش المشركين- عندما علم بمقتل الكثير من الصحابة كان يفكر في العودة مرة أخرى ليجتاح المدينة في هذا الوقت بعد ضعف وانهزام جيش المسلمين، فطلب النبي ﷺ من الصحابة وهم بهيئتهم التي كانوا عليها في الغزوة أن يجتمعوا مرة ثانية بمن فيهم من مُصاب أو مجروح أو من لا يستطيع المشي على قدميه إلا بصعوبة بسبب الإصابة، وطلب طلبًا آخر وهو

(أن رسول الله ﷺ يأمر كم بطلب عدوكم، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس)[(201)]

أي: لا يخرج إلا من رأى مشهد أُحُد فقط. ولكن سيدنا **(جابر بن عبد الله الأنصاري)** ابن سيدنا **(عبد الله بن حِرام)** الذي نزلت فيه آية:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: 169]

- لم يخرج في أُحُد مع أبيه؛ لأنه طلب منه أن يظل مع أخواته البنات ليعتني بهن، فطلب سيدنا جابر من النبي ﷺ أن يسمح له بالخروج معه هذه المرة، فسمح له النبي ﷺ، وخرج جيش المسلمين يتبع جيش المشركين الذي أصاب المسلمين وانتصر عليهم وقتل منهم سبعين صحابيًّا.

وبالفعل في الطريق - كما يروي (ابن هشام) أشهر من روى في السيرة - قال أبو سُفيان للمشركين: **(لا محمدًا قتلتم ولا الكواعب أردفتم)**. أي أنكم لم تقتلوا محمدًا أو حتى تأخذوا أسرى من النساء.. فكأننا لم نفعل شيئًا، فهيا لنستعد ونعود لنهجم عليهم مرة أخرى. وبالفعل تجمعوا وكانوا يريدون العودة.. وهذا في أثناء خروج النبي ﷺ الذي خرج ووجهه الشريف مجروح، وقد انكسرت بعض أسنانه، وجُرحت شفته السفلى، وأصابه جرح كبير في كتفه اليمنى وركبتيه، والصحابة منهكون ومجروحون، ومنهم مثلًا **(سيدنا طلحة بن عبيد الله)** الذي يقول: **(خرجت وأنا بي تسعة وثلاثون جرحًا مُتكئًا على أحد أصحابي وإخوتي)**.

تخيل المشهد!..فأنت أمام جيش حدثت به إصابات خطيرة وشُهداء كُثر، ولكن لسان حالهم يقول: لا يمكننا العودة بهذه الروح المُنكسرة.. فسنقوم ونُقاوم مرة أخرى، وينزل القرآن بقوله تعالى:

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ

الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: 172-174]

فماذا حدث؟

ما حدث هو أن النبي ﷺ خرج، وكان هناك قبيلة من القبائل فيها المسلمون وفيها المشركون تُسمى **(قبيلة خُزاعة)**، ومنهم رجل اسمه **(معبد الخزاعي)** رأى ما حدث، وقد كان مشركًا وقتها، ولكنه تأذَّى مما حدث مع النبي ﷺ ومع المسلمين؛ لأنه كان يحترم النبي ﷺ ويُعظِّمه فقال إنه سيفعل شيئًا ينصره به، وبالفعل أخذ فرسه وانطلق في الصحراء فرأى أبا سفيان وكان يعرفه، فقال له (معبد): **(أتيتك وقد رأيت محمدًا يُجهِّز جيشًا ضخمًا جدًّا لم أر مثله من قبل، وأقسم أن يأخذ بحق المسلمين بعدما حدث في أُحُد)**. «هذا معنى الكلام ببساطة وليس نصه»، فقال أبو سفيان: **(أَوَ ما تقوله حقًّا؟)**. قال: **(نعم)**.. فخاف أبو سُفيان وظل يفكر ماذا سيفعل؟ هل يرجع أم يذهب إليهم في المدينة ليخوفهم؟ ففكر وأرسل رجلًا من قبيلة **(عبد قيس)** طلب منه أن يذهب إلى محمد ويخبره بأنهم يتجهزون بجيش ضخم جدًّا حتى يجتاحوا المدينة، فلما وصل الرجل وأخبر النبي ﷺ بما قاله أبو سُفيان، قال الناس: **(حسبنا الله ونعم الوكيل)**.

وقتها كان أبو سفيان يستشير أصحابه بعدما صدَّق معبدًا الخزاعي وخاف أن يأتي النبي ﷺ ليثأر مما حدث في أُحُد، فمشى جيش المشركين، ووصل جيش المسلمين عند منطقة **(حمراء الأسد)** على بعد عشرة أميال من المدينة فلم يجدوا جيش أبي سفيان، ونزل قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران :173، 174]

ولكن دخول النبي ﷺ والصحابة المدينة بعدما فرَّ جيش المشركين كان دخول عزة وانتصار، وكانت معنوياتهم في السماء، على عكس ما حدث عندما عادوا مجروحين بعدما أصابهم القرح وسقط منهم عدد كبير من الشهداء.. فحدث ارتفاع في المعنويات بفضل الله تعالى ثم بنور النبي ﷺ..

معك للنهاية يا رسول الله

من العجيب جدًّا حالة الصحابة في استجابتهم لدعوة النبي ﷺ بالخروج في حمراء الأسد بعد ما حدث لهم من جراح شديدة وبعد المقتلة الشديدة، ولكن حالهم كان: معك للنهاية يا رسول الله.. فهم مؤمنون بقِيَمه وبرحمته وبأنه مبعوث من عند رب العالمين – سبحانه وتعالى – لينير لهم الطريق.

ومن يكون معك للنهاية.. هذا شخص مُمتن أنك وثقت به، فرق كبير جدًّا عندما تطلب مني شيئًا وآتيك به بطريقة بها تأفف، وبين من يقول لك شكرًا لك؛ لأنك وثقت بي وطلبت مني طلبًا يجعلني أفني

وقتي وجُهدي ومالي في شيء يرضي الله تعالى..

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران:172]

فبعدما سمعوا الأخبار

﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[آل عمران : 173]

قالوا: كيف نخشاهم وربنا الله؟!

مثلما يخبرك شخص أن تهرب من نملة!.. فالنملة الصغيرة كيف أخاف منها، نفس الشيء، فمن يشعر بمعية الله له، فالبشر بالنسبة له لا شيء، ولكنه إحساس فوق الخيال أن تشعر بسند ومعية الله لك وتعيش بهذا الشعور، فقال الصحابة كلمة بهذه السجية ومعناها أن الله يكفينا شر هؤلاء المشركين؛ فقالوا: **(حسبنا الله ونعم الوكيل)** وهي نفس الكلمة التي قالها سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما ألقوه بالمنجنيق في النار التي ظلوا يوقدونها شهرًا كاملًا فلم يستطيعوا أن يضعوه فيها من شدتها، فألقوه بآله تشبه المدفع الذي يرمون به الصخور على الحصون، فعندما ألقوه قال: **(حسبنا الله ونعم الوكيل)**.. أي اكفني يا من تستطيع أن تكفيني، فلما قالها الصحابة هنا جاء الرد

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾[آل عمران: 173]

أتصور أثناء عودتهم في نهاية اليوم وهم مرهقون جدًّا مما حدث، ناموا وكان النوم مريحًا جدًّا لهم.. فأجمل نومة في الكون عندما تعود وأنت مرهق ومتعب من شيء له قيمة عندك.. مثل **(توزيع الطعام، العمل، مساعدة شخص في أزمة، وسيرك معه لمسافات طويلة وقد تورمت قدماك ولكنك تمكنت من مساعدته)**، فعندما تعود إلى بيتك وتنام تجد متعة للراحة؛ لأن الله أكرمك بهذا التعب في سبيله سبحانه وتعالى.

رحمة الله في قصة تحريم الخمر

من المشاهد الهامة جدًّا في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ والمليئة بالأنوار التي ستتعلمها.. مشهد أقف أمامه متعجبًا من عظمة ورحمة الله بالناس والحكمة الربانية في تدرج التشريع.. ألا وهو **(تحريم الخمر في نهاية السنة الثالثة من بعد الهجرة)**؛ أي: بعد حوالي ست عشرة سنة من دعوة النبي ﷺ.

الخمر من أكبر الكبائر، قال فيها النبي ﷺ:

«لا تشرب الخمر، فإنها مفتاح كل شر»(202)

ولكن من حكمة الله تعالى وصبره على الناس، فهو الصبور سبحانه وتعالى، أنه أخَّر تحريم الخمر حتى يكون مناسبًا مع استقبال الصحابة لهذا الأمر، وكانت السيدة عائشة تقول: **(لو كان أول ما نزل من الإسلام أو من القرآن: لا تشربوا الخمر، لقال الناس: والله لا ندع الخمر)**؛ لأنه كان شيئًا صعبًا جدًّا لاعتيادهم عليها مثل الماء، فكان لديهم في بيوتهم براميل من الخمر مثل الماء وأكثر، ولكن سيدنا عمر بن الخطاب لم يكن مستريحًا لفكرة شرب الخمر وفقدان الوعي بسببها فكان يقول: **(اللهم بيِّنْ لنا في الخمر بيانَ شفاءٍ)**. ولم يكن هناك بعدُ آية من القرآن تحرم الخمر، ولكن فطرتنا ترفضها، ولا يكون الإنسان مستريحًا عند شربها.

وذات مرة كان أحد الصحابة يصلي فأخطأ في قراءة بعض الآيات؛ لأنه كان قد شرب خمرًا، فاشتُكي للنبي ﷺ ما حدث، فنزل القرآن :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة: 219]

فالإثم أكبر من المنفعة، فماذا يفعلون؟ فتنزل الآية التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾[النساء: 43]

فلا تصل وأنت جنب حتى تغتسل، ولا وأنت شارب للخمر، فبدأ شرب الخمر يتراجع إلى ما بعد العشاء، وهم في الأصل كانوا ينامون بعد العشاء، ولكن تظل هناك آية ستحسم المسألة بعد أن أصبح الصحابة ليس لديهم الوقت لشرب الخمر حتى وإن لم يكن قد نزل التحريم وقتها، ولكن من رحمة الله وتدريج التشريع أبعدوا الخمر عنهم إلى أن جاء الوقت.. يقول سيدنا (أنس بن مالك) خادم الرسول ﷺ: (كنت في بيت أبي طلحة الأنصاري - وكان من كبار الصحابة - وكنت ساقي القوم؛ أي من يعطيهم الخمر ليلًا ليشربوها، حتى نزلت على رسول الله ﷺ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة:90-91]

فقال الصحابة: (انتهينا).

(الميسر): هو القُمار، و(الأنصاب والأزلام): طقوس كانوا يفعلونها مع الأصنام في عبادتها..

فعندئذٍ قال صاحب البيت وهو (أبو طلحة) : **(قُم يا أنس فأرقِ الجِرابَ «البراميل»)**. أي ألقِ الخمر في الأرض.. في لحظة (سمعنا وأطعنا)، قال: **(وخضنا يومها في الخمر في طرقات المدينة)**. فالجميع

ألقى ما عنده من الخمر أول ما نزل كلام الله وأمره الحاسم في تحريم الخمر.

وبالمناسبة عندما قال الله: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ فإن بعض أصدقائنا ممن لم يتعلم على أيدي العلماء يقول إن هذه الكلمة لا تدل بشكل كبير على التحريم، ولكن يا صديقي الأصح أن لفظ (اجتنبوه) هذا أعلى درجات التحريم في الشريعة، فالله تعالى يقول:

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[الحج: 30]

فقول الزور من أكبر الكبائر في الإسلام وأيضًا عبادة الأوثان، فتخيل أن يقول رب العالمين ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ مع الخمر أيضًا.

﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾.. أي لا تجلسوا على مائدة وعليها الخمر، كما قال النبي ﷺ:

«من كان يؤمن باللهِ واليومِ الآخرِ؛ فلا يجلسْ على مائدةٍ تُدار عليها الخمرُ»[(203)].

وخرج وقتها الصحابة يخوضون في الخمر ولسان حالهم (سمعًا وطاعة)، وكان هذا الحدث من أهم أحداث السنة الثالثة هجرية في تاريخ الصحابة..

قصة تحريم الخمر مليئة بالأنوار

عدم ارتياح سيدنا عمر بن الخطاب رغم أنه لا توجد آية أو حديث يحرمها يدل على فطرة نقية سوية، فهو غير مستريح أن يغيب عقله عن رب العالمين لحظة، وغير مستريح أن تكون أجهزة الاستقبال في عقله التي تستقبل رسائل رب العالمين ومعانيه في الكون تنطفئ وتكون غير مفعلة، فقال: **(يا رب، بين لنا بيانَ شفاءٍ في الخمر)**. أي يا رب احسم لنا هذا الموضوع، فينزل القرآن موافقًا لعمر، ورحمةً من الله بعادات الخلق، انظر كيف جاء التحريم بالتدريج:

أولاً: حُرمت بعد ست عشرة سنة من الدعوة.

ثانيًا: حُرمت بالتدريج؛ لأنهم كانوا يشربونها مثل المياه، فمن رحمة الله وإرادته أن الناس توقفوا عن شربها ليس لإقامة الحُجة عليهم وليس لمجرد معلومة أخذوها إذا عملوا بها دخلوا الجنة، وإذا لم يعملوا بها دخلوا النار، وإنما توقف الناس عن شربها؛ لأن قلوبهم استقر فيها الإيمان فأصبحت مستعدة لاستقبال أوامر الله برضا واستسلام.. مثلما يفعل بعضنا عند النصيحة، فأول ما يرى الخطأ ينصح مباشرة.. انتظر فهل مَن أمامك مستعد للنصيحة الآن أم لا؟ مستعد أن يستقبلها أم لا؟ فهل أنت تنصحه من أجله أم من أجلك أنت؟ إذا كان من أجلك فانصحه في أي وقت وبأي طريقة لتأخذ الحسنات والثواب.. فهذه ليست الطريقة الربانية ولا النبوية.. ولكن الطريقة الصحيحة أن تعرف هل هو جاهز أم لا، وهل أستطيع أن أفعل معه أولًا ما يقرب قلبه ليستقبل ما أقول، وهل إيمانه يسمح بحجم النصيحة التي سأقولها له أم لا؟ أم أني بحاجة إلى أن أُحسِن له فيحبني وعندما نصير أخوين مقربين فسيسألني هو من نفسه مثلما فعل سيدنا عمر مع النبي ﷺ في قصة تحريم الخمر المليئة بالأنوار.

وأجمل ما قيل هو:

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة:91]

قال أبو طلحة الأنصاري: **(قم يا أنس فأَرِق الجراب)**.. ألقِ البراميل جميعها في الأرض.. فلم ينتظر حتى يذهب إلى النبي ﷺ ليتأكد منه ولكن هناك رجل سمع من النبي ﷺ فهم يصدقون بعضهم.. فلم ينظر إلى تكلفة سكب هذه البراميل ولكنهم لم يروا إلا تنفيذ أمر الله وأنه من المؤكد سيُخلف عليهم.

فهذا الحال هو حال الصحابة الذين كانوا منورين بنور النبي ﷺ.

وفاة أبي سلمة

مع بداية السنة الرابعة من هجرة النبي ﷺ حدثت مجموعة أحداث في المدينة.. أولها: وفاة سيدنا أبي سلمة الصحابي الشهير، وهو واحد من أوائل الناس الذين هاجروا من مكة إلى المدينة.. فتذكر قصة هجرته وما حدث من مشاحنة وقتها، فعندما مات سيدنا أبو سلمة كانت عينه مفتوحة فالناس نظرت له وهو ميت فقال النبي ﷺ:

«**إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ**»(204)

فضج الناس كأنهم تأثروا بما قاله النبي ﷺ، فقال ﷺ: «**لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ؛ فَإِنَّ المَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ**» ويعلمنا النبي ﷺ أنه عندما تحضر وفاة أحد لا نتكلم إلا بخير لامتلاء المكان بالملائكة..

وبعد ذلك فعل سيدنا محمد ﷺ ثلاثة أو أربعة أفعال:

1 – دعا لسيدنا أبي سلمة:

«**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يا رَبَّ العَالَمِينَ، وَافْسَحْ له في قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ له فِيهِ**»(205)

ثم بعد ذلك قال للسيدة أم سلمة: «ما مِن مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فيَقولُ ما أَمَرَهُ اللهُ:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[البقرة: 156]

اللَّهُمَّ أْجُرْنِي في مُصِيبَتِي، وأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْها، إلا أخلف الله له خيرًا منها»(206)

قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ وهي لا تعلم ماذا يخبئ لها كرم الله.

وجاءت واحدة من صاحبات السيدة أم سلمة حتى تشاركها في البكاء، ولكن يبدو أنها جاءت لتنوح وتصيح، فلما علم النبي ﷺ بسبب مجيئها قال:

«أَتُرِيدِينَ أَنْ تُدْخِلِي الشَّيْطَانَ بَيْتًا أَخْرَجَهُ اللهُ منه؟!»[(207)]

ونهاها عن ذلك؛ لأنه عندما تحدث وفاة فسيدنا النبي ﷺ شرع لنا البكاء، فعندما توفي ابنه إبراهيم قال:

«إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[(208)]

لكن النواح والصياح والأفعال التي كانت موجودة في الجاهلية نهى عنها النبي ﷺ.

غدر المشركين يوم الرجيع

من ضمن الأحداث الصعبة التي حدثت في بداية السنة الرابعة من الهجرة.. أن قبيلتي (**عضل وقارة**) وهما قبيلتان كانتا حول المدينة قالوا لسيدنا النبي ﷺ: (**هناك عدد كبير من المسلمين عندنا فابعث معنا من يعلمنا القرآن**). وبالفعل أرسل النبي ﷺ معهم عشرة من الصحابة فيهم سيدنا (**مرثد بن أبي مرثد وسيدنا زيد بن الدثنة وسيدنا عاصم بن ثابت وعبد الله بن طارق**).. والكثير من الصحابة، فمشوا معهم حتى يوصلوهم إلى القبائل ولكن في وسط الرحلة وعند منطقة اسمها (**ماء الرجيع**) - فالقصة تسمى (**يوم الرجيع أو بعث الرجيع «فوج الرجيع»**) فالرجيع هي منطقة بها مياه عند قبيلة اسمها هذيل - ذهبوا ووضعوا الخيام الخاصة بهم، وعندما ناموا استيقظوا على أصوات قبيلة أخرى تقف بالسيوف وتطلب منهم أن يسلموا أنفسهم فقالوا: (**هذا بداية الغدر**). قالوا لهم لا غدر ولا شيء، فنحن نريد أن نسلمكم إلى مكة، ويبدو أنه كان هناك بين هذيل وعضل وقارة مشكلة فأحبوا أن يسلموا لهم الصحابة، فانقسم الصحابة؛ بعضهم رفض أن يرضخ لتهديد السلاح الخاص بالقبيلة ومنهم مرثد بن أبي مرثد وسيدنا خالد بن بكير، وسيدنا عاصم بن ثابت، وبدءوا يرفضون، فقتل المشركون ثلاثة، وبقي سيدنا زيد بن الدثنة وسيدنا عبد الله بن طارق وسيدنا خبيب بن عدي.

وعندما قتلوا مرثد بن أبي مرثد وخالد بن بكير وعاصم بن ثابت، كانت هناك واحدة اسمها (سُلافة) في مكة، كانت تطلب أن يأتوا لها برأس عاصم بن ثابت لتشرب فيه الخمر، وكانت هذه عادة عند العرب في الحروب؛ لما فيها من إذلال للخصم، فأرادت أن تفعل به كذلك؛ لأن سيدنا عاصمًا في معركة أُحُد قد قتل أحد أقاربها، فعندما أرادوا أن يفعلوا ما يريدون بسيدنا عاصم حامت حوله دبابير طوال اليوم، فخافوا أن يقتربوا منه وانتظروا حتى يأتي الليل، وفي الليل أتى سيل جرَّف الجثمان الشريف ودخل في الوادي فلم يستطيعوا أن يصلوا إليه، وكان هذا من دعوة دعاها سيدنا عاصم قبل وفاته بألا يمسه مشرك وألا يمكن الله منه أي مشرك، أما بقية الصحابة (زيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق وخبيب بن عدي، فقد أتى المشركون بالحبل الخاص بالقوس وربطوهم فيه، فقام عبد الله بن طارق وقال: (والله هذا أول الغدر). فقاومهم فضربوه بالحجارة من بعيد فقتلوه، ودخلوا بـ(زيد بن الدثنة وخبيب بن عدي) حتى يبيعوهما في مكة..

كنز «دعاء الحمد والاسترجاع»

دعاء الحمد والاسترجاع عند المصيبة كنز من كنوز سيدنا النبي ﷺ؛ فقد علمه النبي ﷺ للسيدة أم سلمة عند وفاة زوجها فقال لها: «**قولي إنا لله وإنا إليه راجعون.. اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها**». فقالت له: (**يا رسول الله، وهل هناك خير من أبي سلمة؟!**). فما حدث أنه بعد فترة تزوجها النبي ﷺ فأخلفها الله خيرًا.. فلا تحرم نفسك مع أي حدث يحدث لك ليس على إرادتك أن تقول هذا الدعاء وأنت موقن من قلبك بأن الله سيبدلك ويعوضك خيرًا مما حدث لك أو أصابك.

فمثلًا إذا انقطعت الكهرباء فقُل: (اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها).

إذا انقطع حذاؤك (قُطع شِراك نعلك).. فقل نفس الدعاء.

إذا قال لك أحد كلامًا ضايقك فقل نفس الدعاء.

(آجره الله في مصيبته) لها معنيان:

الأول: الأجر.

الثاني: الحماية.

فقل وواظب على هذا الدعاء في كل شيء وليس فقط عند الموت.

احذر الغدر وتخلَّق بالأمانة والوفاء

يوم الرجيع وماحدث مع الصحابة من غدر، ينبغي أن نأخذ منه العبرة والعظة، فالغدار لا يعرف الله، مثل من يغدر بشخص فيسرق ماله (شقا عمره) ويحزنه، أو من يقوم بإيذاء خطيبته، أو الزوجة التي تغدر بزوجها، فأنت في الدنيا تحتاج إلى أن يسترك الله في كل شيء، ويبارك في رزقك ولا يسلط عليك من يقهرك، ويسترها معك في قبرك، فالقبر لا تستطيع أن تجلس فيه ساعة؛ لشعورك بالرعب من حساب رب العالمين، قال تعالى:

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء :56]

فمن غدروا يوم الرجيع مشركون، ولكن نحن كموحدين نحتاج إلى تيسير الله لنا في كل أمورنا، فما بالك بأحد يغدر ويستره الله في الدنيا، ربنا لحكمة يمهله في الدنيا لعله يتوب قبل مجيئه هو ومن غدر به بين يدي الله..

المسلم لا يغدر

في وقعة يوم الرجيع وصل (يزيد بن الدثنة) و(خبيب بن عدي) إلى مكة، وعندما وصلا هناك وعلم سيدنا محمد ﷺ بما حدث لهما ظل يدعو في صلاته على قبيلتي (عضل وقارة) وحزن حزنًا شديدًا على ما حدث منهم من غدر بصحابته الكِرام، فقد بعث معهم الصحابة ليعلموهم القرآن، فكيف فعلوا بهم ما فعلوه؟!

أخذوا (زيد بن الدثنة) خارج مكة؛ لأن مكة كانت حرمًا، فأخذوه في (التنعيم) حتى يصلبوه ويقتلوه، فقال له أبو سُفيان: **(أتحب أن يكون محمد مكانك؟)**، وكأنه يقول له إن محمدًا هو سبب ما حدث لك؛ لأنك اتبعته ودخلت في الإسلام، قال له: **(والله لا.. ما أحب أن يكون محمد في أهله تصيبه شوكة وأنا في أهلي)**. فأنا لا أتخيل أن يُصاب رسول الله ﷺ ولو بشوكة وأنا بخير.. وهذا من شدة حبهم للنبي ﷺ.. فمن رأى النبي ﷺ وعاش معه ورأى أنواره يتفاني في حبه ﷺ.. فصلبوه وقتها وقتلوه.

أما سيدنا (خبيب بن عدي) فحدثت معه قصة عجيبة جدًّا نتعلم منها أخلاق الصحابة وما تربوا عليه، فقد بقي عدة أيام أسيرًا ومربوطًا في أحد البيوت، وعندما علم أنهم سيقتلونه طلب من صاحبة البيت (شفرة) حتى (يستحد)؛ أي يحلق الشعر الزائد بجسده ليتطهر قبل وفاته؛ لأنه لا يعلم هل سيدفنونه أم سيرمونه أم ماذا سيحدث له.. فكأنه أراد أن يلقى الله على السنة وهو طاهر ونظيف، فأتت له المرأة بالشفرة في اطمئنان؛ لأنه موثق بالحبال فلا يستطيع الفرار أو إيذاءها، وبينما الشفرة في يده إذا بطفل صغير من أبناء أصحاب المنزل أتى إليه وجلس في حجره، فبينما نظرت المرأة ووجدت الطفل هكذا (راعها ما رأت)؛ أي خافت أن يقتل الطفل، فقال لها: (لا تخافي، فوالله لا أمسه بسوء). فما ذنب هذا الطفل، فنحن لم ننشأ على هذا؛ أن نؤذي الأطفال أو نقتلهم.

وكانت المرأة تقول: **(والله لقد كنت أرى في يد خبيب وهو أسير عندنا في البيت قطفًا من عنب يأكل منه، ووالله ما في مكة من ثمر)**.. فكان كرامة من الله تعالى أنه كان يطعمه من طعام الجنة، فكان للصحابة أحوال مع الله تعالى، وأشهد بصدق هذه الأحوال.

ثم بعد ذلك أخذوه في التنعيم أيضًا وصلبوه، فقال لهم: انتظروا فأنا أريد أن أُصلي ركعتين. وقد كان أول من سنَّ صلاة ركعتي الشهادة في سبيل الله، وقام فصلى ركعتين خفيفتين وقال: **(والله كنت أريد أن أطوِّل لولا خوفي أن تظنوا أن بي جزعًا)**. أي أن تقولوا إنني خائف من الموت فأطيل الصلاة من أجل ذلك. ويحكي القصة سيدنا معاوية بن أبي سفيان بعدما أسلم، ثم نظر إليهم خبيب وقال: **(اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تُبْقِ منهم أحدًا)**، يقول سيدنا معاوية: وكان أبو سفيان أبي يقف معي فوضع يده على رأسي وخفضها من صدق الدعوة التي خرجت من قلب سيدنا خبيب بن عدي بصدق **(أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تبق منهم أحدًا)**، وقال: **(اللهم بلِّغ عني رسول الله ما أنا فيه)**. ثم قال بيتي شعر أنشد فيهما:

ولست أبالي حين أُقتل مسلمًا على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو مُمَزَّعِ

أي أنه لا يهمني في أي صورة أموت في سبيل الله، لكن المهم أن يرضى ويبارك على الشلو (وهي مفرد أشلاء)، وكأنه كان يعرف أنهم سيؤذونه بعد قتله أو سيمزقون جسده، فالبركة منك والستر منك والحفظ منك يا رب. وقُتل سيدنا (خبيب بن عدي) شهيدًا في واقعة فيها غدر، من هنا يتبين لك كيف

أن جيل الصحابة والنبي ﷺ كانوا يبحثون عن السلام ونشر الرحمة والخير، وأنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، ولكنهم قاسوا بشدة من شراسة المشركين، ومع ذلك كانوا يشعرون دائمًا بمعية الله لهم..

أثر التربية الإيمانية للصحابة الكِرام

(مرثد بن أبي مرثد) و(خبيب بن عدي) كان لهما موقفان فيهما نور.. فمن الواضح أن تربية النبي ﷺ أثمرت وأحدثت تغييرًا كبيرًا جدًّا في شخصيات الصحابة من الجاهلية للإسلام، فأبو سفيان عندما قال لمرثد: (**أتريد أن يكون محمد مكانك؟**) بسبب اتباعك له فهو سبب تعذيبك، قال له: (**لا أحب أن أبقى في بيتي وهو يُشاك شوكة واحدة**).. فلا أحب أن يتألم من شوكة تصيبه وليس أن يُعدم.. فيبدو أن أبا سفيان لم يع قط مقدار حب النبي ﷺ في قلوب أصحابه، ففَّهمه سيدنا مرثد معنى الحب الحقيقي للنبي ﷺ.

أما سيدنا (خبيب بن عدي) وهو في يده الشفرة قبل أن يصلبوه ويقتلوه والطفل أمامه وفي حجره، فكان من الممكن أن يفكر شخص غيره فيقول أحرق قلوبهم على صغيرهم وأحزنهم عليه وأقتله، ولكن هذا ليس من التربية الإيمانية وتربية النبي ﷺ لهم، فالطفل لا ذنب له. النبي ﷺ علَّمهم وقال لهم:

> «**أدِّ الأمانةَ إلى منِ ائتمنكَ، ولا تخنْ من خانكَ**»[(209)]

فإذا كان من أخلاق المشركين (الغدر)، فأخلاق المسلمين (الوفاء والكرم والحماية)؛ ولهذا حمى سيدنا خبيب الطفل وهو جالس بين يديه ولم يؤذه.

فسبحان الله! عندما ترى خلاصة دعوة النبي ﷺ في أناس نفوسهم سوية، فهذا يعلمك أن يكون فيك الخير وأن تكون سفيرًا لدعوة سيدنا محمد ﷺ ومستنيرًا بأنواره في كل تصرفاتك وبالأخص إن كان مشهورًا عنك أنك قريب من رب العالمين وتحاول أن تتبع سُنة النبي ﷺ، ولكن إذا كنت شخصًا مؤذيًا فسيتعجب الناس كيف لمن يتبع النبي ﷺ أن يكون مؤذيًا، فهل كلام النبي ﷺ غير مؤثر لهذه الدرجة فيُخرج شخصيات مشوهه؟! فمثلًا شخص يصلي ولكن لا أتمنى أن يكون صاحبًا لي، أو لا تتمناه المرأة أن يكون زوجها بسبب أخلاقه، وهذا على عكس الشخص الذي نرى منه كل عطاء وكرم، والسِّر هنا أنه أخذ من نور النبي ﷺ واقتدى به، فيجعلك تحب أن تتعرف أكثر إلى النبي ﷺ وتتعلم من صفاته ونوره وكرمه حتى تتحسن شخصيتك.

فعلمنا هؤلاء الصحابة كيف لنا أن نجعل مَن حولنا يحب النبي ﷺ ويتعلق به عن طريقنا، وألا نكون سببًا في نفور الناس من نور سيدنا محمد ﷺ بسبب سوء تصرفاتنا.

اللهم صلِّ على سيدنا ونبينا محمد سيد الأولين والآخرين، قائد الغُر المحجلين، اللهم إنا نسألك أن تعفو عنا، ومن نوائب الدهر أن تسترنا، ومن عذاب الآخرة أن تنجينا، ومن النار أن تجيرنا، وبعبادك الصالحين أن تؤيدنا، وبملائكتك المقربين فامددنا، ولا تؤاخذنا يا مولانا إن نسينا أو أخطأنا..

(201) رواه محمد الشامي.
(202) رواه ابن ماجه.
(203) رواه الترمذي.
(204) رواه مسلم.
(205) رواه مسلم.
(206) رواه مسلم.
(207) رواه مسلم.
(208) رواه البخاري.
(209) رواه أبو داود.

حادثة بئر معونة وغدر بني النضير

حادثة بئر معونة

وصلنا الآن إلى السنة الخامسة بعد هجرة النبي ﷺ، حيث أصبح عُمر النبي ﷺ ثمانية وخمسين عامًا، أحداث كثيرة مرت فيها سلام، وأحداث أكثر فيها حروب، وربما بسبب أن الكثير من شبابنا - بفضل الله - يعيشون في بلادهم في أمان، فأحيانًا يتعجبون من أن سيرة النبي ﷺ تحتوي على الكثير من الحروب والمعارك، ولكن أجدادنا الذين عاشوا فترات الحروب مثل العدوان الثلاثي 1956، وحرب 1967، وحرب 1973.. يعون تمامًا كَم كانت فترات صعبة على الأمة وقتها.. وكيف كانت الأمة تحمي نفسها وتحافظ على حدودها، وكيف كانت ترد كيد المعتدي.. سنوات صعبة مرت، ولكن بها تقوم الحضارة، وفيها يظهر المُحِب الصادق لدينه ووطنه، فهذه السنوات كانت صعبة جدًّا في نشأة الدولة الإسلامية واستقرارها، ونحن الآن نجني خيرها وأمانها بفضل وبركة جهد النبي ﷺ ومن كان معه من جيل الصحابة الكِرام..

أتت قبيلتان اسمهما **(رعل وذكوان)** للنبي ﷺ يخبرونه بأنهم يحتاجون إلى من يُعلِّمهم القرآن بسبب حبهم للإسلام ورغبتهم في معرفة الكثير عنه، وكانت أعداد هاتين القبيلتين كبيرة جدًّا، وبالفعل أرسل معهم النبي ﷺ سبعين شخصًا من القُراء حفظة القرآن الكريم؛ ليعلموهم أحكام رب العالمين، ويدعوهم للتوحيد، ويحفظوهم القرآن، ولكن قامت الحادثة التي تُسمى **(بئر معونة)**؛ حيث إنه بمجرد أن ذهب الصحابة معهم بقيادة سيدنا **(حرام بن ملحان)**؛ بمجرد وصولهم ووقوفهم وسط القبيلتين، انطلقت حربة كبداية الغدر بالصحابة لقتلهم جميعًا، انطلقت هذه الحربة فدخلت في ظهر سيدنا **(حرام بن ملحان)** وخرجت من صدره، فعند ذلك قال: **(فُزت ورب الكعبة)**.. وقُتل وقتها جميع الصحابة السبعين غدرًا، وظل النبي ﷺ يدعو الله على هاتين القبيلتين ليالي طويلة بسبب غدرهم بقُراء القرآن الذين ذهبوا معهم ليُعلموهم دينهم كما طلبوا.

فمن حكى لنا هذه القصة؟

الذي أخبرنا بهذه القصة شخص اسمه **(جبَّار)**.. وهو من قتل سيدنا **(حرام بن ملحان)**، فعندما سمعه يقول: **(فُزت ورب الكعبة)** قال: **(هذا ما دعاني للإسلام)**. فكيف لشخص وهو يموت أن يقول: **(فُزت)**؟! فمن يموت في معتقدهم سيُلقى في الأرض، وكل متاع الدنيا بالنسبة له سيزول، وستأكل الأرض جسده وينتهي الأمر، فلم يعرفوا أن هناك بعثًا أو يوم قيامة أو جنة.. فتعجب من كلمة سيدنا حرام ومن أن المسلمين لديهم رغبة في الحياة بعد موتهم.. الحياة الممتلئة بالنعيم.. فتأثر بكلمة سيدنا حرام وذهب وأسلم عند النبي ﷺ وهو من أخبرنا بهذه القصة وللقصة تكملة هامة جدًّا فيما بعد.

قصة غدر بني النضير

ننتقل الآن إلى قصة وحدث آخر في نفس السنة، وهو أن النبي ﷺ قد أخذ سيدنا أبا بكر الصديق وسيدنا عُمر بن الخطاب وذهبوا إلى **(بني النضير)** - وهي القبيلة الثانية من اليهود الموجودين في المدينة وقتها بعد إجلاء النبي ﷺ لـ**(بني قينقاع)** بعد حادثة التحرش بالمرأة المسلمة وقتها - ليقضوا بعض

المصالح المشتركة بين المسلمين واليهود؛ لأن بينهما صحيفة ومعاهدة وحياة في بلد واحد، فعندما وصل النبي ﷺ وكان يجلس على شيء يشبه الدكّة ويسند ظهره الشريف إلى جدار بيت، أخذ زعماء بني النضير في الداخل يتشاورون فيقولون: (**هلا يصعد أحد منا على رأس البيت فيقذف عليه حجرًا فيريحنا منه؟**).. وهنا نزل سيدنا جبريل على النبي ﷺ يخبره بما قالوه بوحي من رب العالمين - سبحانه وتعالى- فقام النبي ﷺ مُسرعًا كأنه أراد شيئًا وأخذ معه صاحبيه أبا بكر وعُمر، وذهب النبي ﷺ فجهّز لهؤلاء الغادرين جيشًا من الصحابة وحاصر بني النضير وأجلاهم عن المدينة، وعندما حاصرهم جاء (**عبد الله بن أُبي ابن سلول**) رأس المنافقين هو ومجموعة من المنافقين معه يدعون بني النضير لقتال النبي، فقال لهم: إذا حاربتموهم فنحن معكم، وإذا حاولوا إخراجكم من المدينة فنحن معكم لا نترككم.

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[الحشر: 11-12]

ولكن خافت بنو النضير أن تحارب النبي ﷺ؛ لأن الغدار يتملكه الخوف دائمًا، وخرجوا من المدينة وخذلوا المنافقين، وهنا لم يتبقَّ في المدينة إلا (بنو قريظة).

الفرق بين نفسية المؤمن والغادر

حادثة (بئر معونة) حادثة غدر، والغادر تصفه بأنه شخص يرى الناس مثل الأشياء يحقق بهم مصالحه بغض النظر عن مشاعرهم وأحاسيسهم وحقوقهم، ولكن المهم لديه أن يصل للمنفعة التي يريدها، بعكس المؤمن الذي لديه اليقين أن الرزق بيد الله تعالى، والمنفعة بيد الله، والبشرعنده أغلى وأكرم المخلوقات في الكون، فهم أكرم عند الله من الملائكة.

والنبي ﷺ نوَّر قلوبنا ونظرتنا تجاه الخلق يوم أن قال:

«**لزوالُ الدنيا أهونُ على اللهِ مِنْ قتلِ رجلٍ مسلمٍ**»(210)

وعندما أشار إلى الكعبة وقال:

«**فإنَّ دِمَاءَكُمْ، وأَمْوَالَكُمْ، وأَعْرَاضَكُمْ، وأَبْشَارَكُمْ، علَيْكُم حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا**»(211)

كما قال ﷺ في إشارة للجميع:

«المُسلِمُ مَن سَلِمَ الناسُ مِن لِسانِه ويَدِه»[212].

ولكن الغدر شيء صعب جدًّا وخبيث، ومن الدناءة أن يكون الغدر في المال بين اثنين شريكين، أو متزوجين ومتعاهدين على حُسن العِشرة، أو من يغدر بأولاده، أو الأولاد الذين يغدرون بأهليهم، فكلما كانت الرابطة قوية كان إحساس الغدر أصعب، حتى قال النبي ﷺ:

«قال الله: أنا ثالِثُ الشَّريكينِ ما لَمْ يَخُنْ أَحدُهُما صاحِبَه، فإذا خانَ خَرَجْتُ مِن بيْنِهما»[213]

فيوضح العلماء أن المقصود بـ«خَرَجْتُ مِن بيْنِهما». أي أنه بقي مع المظلوم ضد الظالم الغادر.

فتخيل عندما يغدر أحد بزوجته ويأخذ جميع مالها من أجل سفره وخروجه، أو من تغدر وتترك أبناءها من أجل مستقبلها وترفض أن توفر لهم الوقت والمجهود وتتفرغ فقط لمصالحها الشخصية؛ تخيل كيف يكون حاله يوم القيامة أمام الله وأمام الخلائق كلها؛ ولذلك قال النبي ﷺ:

«إنَّ الغادِرَ يَنْصِبُ اللهُ له لِواءً يَومَ القِيامَةِ، فيُقالُ: ألا هذِه غَدْرَةُ فُلان»[214]

أي مكتوب على الراية التي يحملها أمام جميع الخلق ومن قبلهم أمام رب العالمين والنبي ﷺ والأنبياء والملائكة، وأمام الجنة التي تزينت للصالحين، وأمام النار التي تجهزت وبدأت تزأر من غيظها من العُصاة..

فالوفاء خُلُق جميل وهو من الأخلاق الأولى عند المؤمنين، بينما الغدر مُظلِم فاحذر منه.

زواج النبي ﷺ من السيدة زينب

من المشاهد الهامة جدًّا في بداية السنة الخامسة من بعد هجرة النبي ﷺ.. **«قصة زواج النبي ﷺ من السيدة زينب بنت جحش»** والتي كانت في البداية متزوجة من **(زيد بن حارثة)** والذي كان يُسمى **(زيد بن محمد)**؛ لأن النبي ﷺ كان قد تبنَّاه فتسمَّى باسمه، وكان العرب قديمًا عندهم عادة التبني، حتى إن الشخص عندما يموت وهو متبنٍّ أحدًا يصبح من تبناه كابن له ويرثه مع أولاده الأصليين، فأراد الله تعالى أن يُبطِل عادة التبني في تشريع في منتهى الوضوح ويجعل النبي ﷺ يتزوج السيدة **(زينب بنت جحش)**.

ولكن هذه القصة لها بداية، وهي أن السيدة زينب بنت جحش كانت من قبيلة كبيرة من العرب، بينما (زيد بن حارثة) كان في الأصل عبدًا، وعندما أتى (حكيم بن حزام) قديمًا في مكة ببعض العبيد أتى بهم من الشام، وجعل السيدة خديجة - رضي الله عنها - تختار أحدهم، فاختارت (زيد بن حارثة)، وعندما أخبرت النبي ﷺ به استوهبه النبي ﷺ أي طلبه منها هدية ليكون ملكه، وعندما أخذه أعتقه رسول الله وتبناه وصار اسمه (زيد بن محمد) وظل كذلك وكبر إلى أن تزوج زينب بنت جحش والتي كانت دائمًا كثيرة الشجار معه ولم تكن حياتها مستقرة معه بسبب أنه لم يكن كبيرًا بالقدر الكافي

عندها، فلم تكن هناك أريحية في علاقتهما ببعضهما، وكان كثيرًا ما يذهب سيدنا (زيد بن حارثة) ويشتكي للنبي ﷺ من زوجته ويبدي رغبته في تطليقها، والنبي ﷺ يقول له:

«اتَّقِ اللهَ، وأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»(215)

فيُنزِل الله تعالى القرآن فيقول:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾[الأحزاب: 37].

فمعنى الآيات أن النبي ﷺ كان يطلب من زيد أن يتمسك بزوجته ويتقي الله؛ لأن الحُكم بإلغاء التبني لم يكن قد نزل وقتها، ولكن النبي ﷺ كان يعلم من رب العالمين أن الحكم سينزل بإبطال التبني وأن الله سيأمره بالزواج من زينب بنت جحش، فكان يخفي في نفسه هذا الخبر حتى يأتي الأمر من رب العالمين، وكان يخشى على الناس من التغيير؛ لأن هذا التغيير كبير عليهم، وهذا من حب النبي ﷺ وحرصه على قلوب المؤمنين وخوفه عليهم.

قال تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: 128]

وقال تعالى:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[الأحزاب: 37]

وكان سيدنا أنس يقول: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾.

فعندما طلق سيدنا (زيد) السيدة (زينب بنت جحش) تزوجها النبي ﷺ؛ وذلك بأمر من رب العالمين؛ ولهذا قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾[الأحزاب:37]

وبهذه المناسبة فإن سيدنا (زيد بن حارثة) هو الصحابي الوحيد الذي ذُكر اسمه في القرآن، فالعلماء يقولون إن هذا من جبرالخاطر له؛ لأنه كان يُسمى (زيد بن محمد)، فلما أُلغي التبني عاد (زيد بن حارثة)، حيث قال الله تعالى:

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾

[الأحزاب: 5]

أي نادوا عليهم بأسماء آبائهم الحقيقيين، فإذا لم تعلموا أسماءهم الحقيقية يكونون إخوانكم في الله أو خدَمَكم﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ ولكن لا يجوز التبني بعد ذلك بهذه الصورة..

وتزوج النبي ﷺ السيدة (زينب بنت جحش)، وكانت من أقرب الزوجات لقلبه ﷺ، والسيدة عائشة كانت تقول: (زينب هي التي كانت تساميني). أي تقترب من مقامي عند النبي ﷺ، وكانت امرأة عابدة مُصلِّية..

وبهذه المناسبة هناك قصة يمكن أن تقرأها في الكتب - وهي قصة موضوعة ومكذوبة على النبي ﷺ - تقول: (إن النبي ﷺ ذات يوم ذهب إلى بيت زيد ابنه فنظر إلى زينب بنت جحش وهي تغتسل فلما رآها النبي وقع في قلبه شيء من التعلق بها).. قصة مكذوبة مؤلَّفة، والعلماء دونوها في الكتب وكتبوا تحتها إن هذا الحديث مكذوب وموضوع؛ ليحذرونا من انتشارها.. فالمحترمون من الناس لا يفعلون مثل هذا التصرف، فما بالك بالنبي ﷺ؟!

وتزوجها النبي ﷺ، وقبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى قال:

«أسرَعُكُنَّ لُحوقًا بي أطوَلُكُنَّ يدًا». (216)

فكانت زوجات النبي ﷺ يقسن طول أذرعهن، ولكن لم يكن ذلك هو المقصود؛ بل كان المقصود (أكثركن إنفاقًا في سبيل الله)، وكانت السيدة زينب هي أولى زوجاته ﷺ لحوقًا به..

سبب وجود القصص الموضوعة والمكذوبة في كُتب التفاسير

قصة زواج سيدنا رسول الله ﷺ من السيدة زينب بنت جحش هي من أشهر القصص التي بها أحاديث مكذوبة وموضوعة على سيدنا رسول الله ﷺ، وهي من أشهر القصص التي سمعها الكثير من المسلمين بطريقة خطأ، وكأنهم انزعجوا من داخلهم تجاه النبي ﷺ، ولكنهم سكتوا وتركوا هذه الحيرة بداخلهم بدون أن يسألوا.. فهذه القصة المكذوبة موجودة في بعض كتب التفسير.. لماذا؟ لأن كتب التفسير أغلبها ليست مؤلَّفة للعوام من الناس ولكنها للعلماء أو لطلبة العلم الذين يفهمون جيدًا «علم الأسانيد».

فما هو علم الأسانيد؟

فمثلًا ابن كثير في تفسير القرآن كثيرًا ما يقول إن هناك قصة موضوعة أو مكذوبة أو إسرائيليات لا يقبلها عقل، ولكنه ذكرها وقال قبلها إنها مكذوبة، فقال ذلك عن طريق (الإسناد)، وهو أنه عندما يقول: (عن فلان عن فلان) يفهم العلماء هنا من خلال علم الجرح والتعديل - أي علم الرجال - أن القصة مكذوبة، ولكنه وضعها في هذا المكان حتى تكون مؤرشفة وموضوعة في مكانها؛ (لأنه يجب تدوين الخطأ والإشارة إليه؛ ليرجع الناس للمعلومة عند قراءتهم لهذا الخطأ في أي مصدر)، فذكره للقصة والمعلومات المغلوطة فيها فيه إشارة إلى أن هناك كذبًا في هذه القصة، فالعالِم يفهم هذا الكلام، ويفهم أن سبب وضعها هو أن كتب التفسير يكون بها جميع المعلومات الواردة عن نفس الموضوع سواء الصحيح أو المغلوط، ويُعلِّق عليها بالإشارة إلى ما هو صحيح وما هو مكذوب، فعندما تأتي لتقرأ وأنت غير متخصص تفاجأ؛ ولذلك من المهم جدًّا أن تسأل مُعلِّمك وأستاذك ماذا تقرأ من كتب التفسير وتسأله عندما تريد أن تقرأ أمهات الكتب في التفسير، كيف تقرؤها، وكيف تفهمها.

فعندما تأتي أمامك قصة مكذوبة مثل هذه القصة التي لا تليق أبدًا بقدر وشرف النبي ﷺ عليك أن تسأل أحد العلماء، وبلادنا - ولله الحمد - زاخرة بالعلماء الأجلاء الذين يدلونك على الطريق الصحيح.. والحمد لله على وجود الأزهر الشريف بيننا..

غزوة بني المصطلق وخُبث ابن سلول المنافق

من الأحداث الهامة التي حدثت في السنة الخامسة للهجرة أنه كان هناك قبيلة تُسمى (بني المصطلق) تريد أن تهجم على المدينة.. وسُميت الغزوة (غزوة بني المصطلق أو المريسيع)، و«المريسيع» كانت منطقة بها مياه حدثت عندها الحرب بين أهل المدينة «النبي والمسلمين» وبين «بني المصطلق».

ومن المعلومات المهمة التي نحتاج إلى معرفتها أن العرب كانوا قديمًا في الجاهلية من ضمن موارد الثروة لديهم أن يهجموا على بعضهم، فإذا وجدوا مكانًا مستقرًّا هجموا عليه وأخذوا موارده وثرواته، وأخذوا رجاله عبيدًا لهم، وأخذوا النساء سبايا. وكان هناك حالة من عدم وجود قوانين بين البلاد إلى أن جاء النبي ﷺ وحفظ الحقوق، وعلَّم الناس أن كيان الإنسان أعظم عند الله من الكعبة، وسنذكر فيما بعد كلام النبي ﷺ في هذا الموضوع؛ لأن فكرة أن تتحارب قبيلتان أربعين سنة بسبب قتل أحد للآخر، أو بسبب مقتل جمل لأحدهم، فتشب الحرب وتظل عشرات السنين.. فهذا الكلام اختفى بعد استقرار أمة النبي ﷺ.

فبنو المصطلق جاء في مخيلتهم أن يحاربوا النبي ﷺ ويهجموا على المدينة، فعندما بلغ النبي ﷺ هذا الأمر جهَّز الجيش وخرج، وكان الخيار ألا تحدث الحرب في المدينة حتى لا تُدمَّر البلد بسبب الحرب، فخرج إلى أن وصلوا إلى منطقة تسمى«المريسيع» ووقعت الحرب هناك، وانتصر النبي ﷺ، وفي أثناء عودتهم حدث موقفان مهمان جدًّا في هذه السنة:

الموقف الأول: أن هناك أحد المهاجرين وأحد الأنصار دخلا المياه وهما يركبان جملين فضيق أحدهما على الآخر بجمله - مثلما يحدث الآن أن يكسر أحد أصحاب السيارات على صاحبه - فحدثت مشاجرة

بينهما، وقام أحدهما بضرب الآخر، فقال الرجل:(يا لَلمهاجرين!)، وقال الثاني: (يا لَلأنصار!).. سنحارب.. سنحارب من؟!ونحن مسلمون وأمة واحدة، فلما سمع النبي ﷺ بما حدث قال:

«أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟»، ثم قال: «دَعُوهَا، فإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»(217).

فهذا الكلام مُنتن.. كناية عن أن المؤمن عليه أن يرتقي عن هذا المستوى من الخلاف.

مَن وقتها تدخَّل في هذه المشكلة؟

(عبد الله بن أُبي ابن سلول).. رأس المنافقين.. تدخَّل حتى يحثهم على القتال ويوقد الفتنة بينهما، فالأنصار كانوا سيتقاتلون مع المهاجرين، والأنصار هنا هم: (الأوس والخزرج) الذين كانوا قد اتفقوا قديمًا على أن يجعلوا «عبد الله بن أُبي ابن سلول» زعيمًا عليهم، ولكن عندما جاء النبي ﷺ أصبح هو زعيم القلوب، فظل ابن سلول مغتاظًا مما حدث، فذهب إلى الأنصار وقال لهم: (ما هذا؟ كاثرونا في بلادنا ونافرونا وأكلوا معنا من أكلنا).. وكأنه يقول إن المهاجرين جاءوا إلى بلادنا فزحموها وشاركونا في رزقنا، ثم قال: (وكما قالوا قديمًا: سمِّن كلبك يأكلك).. أي أنك تظل تُغذي كلبك إلى أن يأكلك ويغدر بك.

فمَن سمع هذا الكلام؟

سمعه سيدنا (زيد بن أرقم) أحد الصحابة، وسمع عبد الله بن أُبي ابن سلول أيضًا وهو يقول: (**والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.. لا تنفقوا عليهم**). أي أنه طلب من الأنصار ألا ينفقوا على المهاجرين مرة ثانية، وكان يقصد بالأعز نفسه، ويقصد أن النبي ﷺ هو الأذل، (حاشاه ﷺ). كل هذا قد سمعه سيدنا (زيد بن أرقم) فذهب إلى النبي ﷺ وقصَّ عليه ما قاله ابن سلول، فقال سيدنا عمر بن الخطاب للنبي ﷺ: (**ما رأيك؟ أأضرب عنقه يا رسول الله؟**) قال ﷺ:

«لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»(218).

فرغم أن النبي ﷺ يعلم أن ابن سلول منافق وأنه أشد عداوة من المشركين ويتفق مع اليهود ويغدر بالمسلمين ولكنه في النهاية اسمه مؤمن ومسلم في وسطنا، وقد جاء ابن سلول بعد هذا الموقف وظل يُقسِم له أنه لم يقل مثل هذا الكلام؛ لأن الناس خوفوه أن ينزل فيه القرآن، وطلبوا منه أن يطلب من النبي ﷺ أن يستغفر له، ونزلت سورة «المنافقون» تُصدِّق سيدنا (زيد بن أرقم) الذي كأنه اهتز من داخله؛ لأن سنه صغيرة، فقال الناس: (لعل زيدًا وَهَم) بسبب قسم ابن سلول بعد قوله الحديث، فنزلت سورة «المنافقون» في الجزء الثامن والعشرين، قال تعالى:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[المنافقون :1، 2]

وفي آخر السورة:

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[المنافقون:7]

ونزل القرآن بنص كلام (ابن سلول) يُصدِّق كلام سيدنا (زيد بن أرقم).

فجاء ابنه سيدنا (**عبد الله بن عبد الله بن أُبي ابن سلول**) وهو صحابي شريف عظيم، فقال: (**يا رسول الله، إن شئت أتيت لك برأس أبي فلا تأمر غيري بأن يقتله حتى لا أرى قاتل أبي**).. فحسب أن النبي ﷺ سيقتل أباه عندما نزل القرآن، فطلب منه أن يقتله هو حتى لا يرى أحدًا قتل أباه، فقال ﷺ:

«**بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا**»(219).

وعلَّمه أن القتل ليس ردَّ فعل تجاه ما فعله أبوه، وطلب منه أن يبر أباه، وأنه سيكون محميًّا ما دام يعيش في وسطنا..

من أفضل أعمال الإسلام.. إصلاح ذات البين

يحب عبد الله بن أُبي ابن سلول الإيقاع بين الناس وزرع الفتنة، فهذه الأفعال هي أقوى فأس ومِعول تضرب به تماسك أي أصحاب أو عائلات أو المجتمع والبلد، فالوقيعة بين الخلق هي أحد أكبر أسباب عذاب القبر حتى لا تستصغر هذا الفِعل، فعندما كان النبي ﷺ يمر على أحد القبور - والحديث في البخاري ومسلم - سمع صوت عذاب، فقال:

«**يُعَذَّبَانِ، وما يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ**»، **ثُمَّ قالَ: «بَلَى، كانَ أحَدُهُما لا يَسْتَتِرُ مِن بَوْلِهِ، وكانَ الآخَرُ يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ**»(220)

فالنميمة أنه كان ينقل الكلام حتى وإن كان ظاهره للنصح ولكنه يقصد الإيقاع بين الأشخاص.

مثال للوقيعة: شخص يتحدث مع صاحبه عن آخر فيقول له: لا أعلم لماذا يتحدث معك بهذه الطريقة؟! أو لماذا لا يتركك وشأنك؟! ثم يشجعه على الانتقام منه! أو بنت تقول لصديقتها: كيف يتصرف معك زوجك بهذه الطريقة؟ ثم تقترح عليها أخذ موقف عنيف وتطلب الطلاق منه!.. وهي لا تدري أن بسبب كلمتها يمكن أن تكون قد حدثت مشكلة كبيرة بينهما بعدما عادا للمنزل.

فما فعله ابن سلول أنه كان يريد أن تكون حرب بين المهاجرين والأنصار، وظل يوقع بينهم، بينما النبي ﷺ قال لهم:

«**أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟**». **ثم قال: «دَعُوهَا؛ فإنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»(221)

ولذلك فقد قال النبي ﷺ إن من أكبر أعمال الإسلام التي نقابل بها رب العالمين هي أن نصلح ما بين اثنين متخاصمين، وأن من أقبح الأخلاق أن نوقع ما بين اثنين.

قال النبي ﷺ:

«أَلَا أَدُلُّكُم على أَفْضَلَ من درجةِ الصلاةِ والصيامِ والصدقةِ؟ قالوا: بلى يا رسولَ الله. قال: إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ، فإنَّ فسادَ ذاتِ البَيْنِ هي الحالِقَةُ. لا أقولُ إنها تَحْلِقُ الشَّعْرَ، ولكن تَحْلِقُ الدِّينَ». قلنا: (بلى يا رسول الله)(222)

(**إصلاح ذات البين**).. أي إصلاح العلاقات التي بيننا، (**فإن فساد ذات البين هي الحالقة. لا أقولُ: إنها تَحْلِقُ الشعر، ولكن تحلق الدين**). فالحلاقة هي أن تزيل شعرك بالموس من جذوره، فالإنسان عندما يكون مغتاظًا ومتشاحنًا مع أحد يمكن أن يفقد جميع أخلاقه ويفقد الأدب والذوق والصِّدق ويُجيِّش جميع جيوش «**الأذية**» حتى ينتصر، وبذلك ينتصر عليه شيطانه ويُسيطر عليه..

والعجيب أن سيدنا عُمر طلب من النبي ﷺ أن يأذن له ليقتل عبد الله بن أُبي ابن سلول، ولكن النبي ﷺ رفض وقال: «**لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**» حتى ابنه طلب قتله ولكنه قال له: «**بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا**».

فيعلمنا ﷺ وينير لنا طبيعة العلاقة مع الآباء والأمهات مهما كانت التصرفات؛ أن نُحسِن إليهم ونبرهم ما داموا معنا..

الموقف الثاني:

بداية حادثة الإفك

وما زال في غزوة بني المصطلق حدث ضخم سيحدث في المدينة، فبعد أن ظل النبي ﷺ والمسلمون أقل من شهر تقريبًا في هذه الغزوة، وعاد عبد الله بن أُبي ابن سلول، وابنه ممتلئ بالضيق والغيظ تجاهه وأنه فُضح أمره بسبب ما قاله عن النبي ﷺ، فبعد أن عاد الجميع بفترة قصيرة جاءت السيدة عائشة ودخلت وهي تركب جملًا يقوده (**صفوان بن المُعطِّل**).. فنظر إليهما ابن سلول وتساءل أين كانا؟ وماذا كانا يفعلان مع بعضهما؟ ومن هنا بدأت حادثة الإفك.

«**الإفك**»: أي الافتراء والشائعات، والحديث في سُمعة أشرف الخلق، فالسيدة عائشة تقول إنها في غزوة بني المصطلق مع النبي ﷺ حيث إنه عندما كان يخرج خارج المدينة – سواء في تجارة أو غزوة – كان يقرع بين نسائه فمن يخرج سهمها تصاحبه في رحلته، تقول: وكنت وقتها جارية خفيفة لا أحمل اللحم (رفيعة) فبعد ما انتهوا من الغزوة وجئتُ لأركب الهودج – وهو صندوق من الخشب والقماش كانت تجلس فيه النساء قديمًا – تلمَّست صدري فلم أجد العِقد. فما حدث أنها عندما ذهبت لتقضي حاجتها وراء الجبل وعادت تتلمس العِقد الذي كانت ترتديه فلم تجده، تقول: (**فذهبت أتلمس عِقدي**).. أي

عادت لتبحث عنه، قالت: (**فحبسني ذلك**). فعندما جاء الجنود وحملوا الهودج ظنوا أنها بداخله فحملوا الهودج على البعير وانطلقوا.

وفي هذه الأثناء كان (صفوان بن المُعطل) وظيفته أن يقعد بعد ذهاب الجيش ليتلمس أي شيء قد نسوه من متاع الحرب من أسلحة أو أي أشياء ثمينة افتقدوها، تقول السيدة عائشة إنها عندما عادت لم تجد أحدًا من الجيش فجلست تنتظر أن يعود أحد إليها، فنامت من شدة التعب ولم تستيقظ إلا على صوت من يُحوقل (أي يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله) وإذا به (صفوان بن المُعطل)، تقول: (وكان صفوان يعرفني قبل نزول آية الحجاب). فقال: (لا حول ولا قوة إلا بالله) وسألها عن سبب وجودها وأنها لم تعد مع الجيش، فقصت له ما حدث، فقال لها: اركبي، فركبت وساق بها الجمل وهو يمشي وهي راكبة حتى لا يتركها وحدها في الصحراء، وعندما دخلت المدينة هكذا أثار عبد الله بن أُبي ابن سلول مثل هذه الشائعة من كثرة غيظه من النبي ﷺ.

وكانت السيدة عائشة مريضة وقت دخولها المدينة، تقول: (**فظللت في بيتي شهرًا لا أعلم ما يدور في المدينة والناس يلوكون في حادثة الإفك، ولكن ما كان يريبني وأنا مريضة أني كنت لا أرى اللطف الذي أراه من رسول الله**). فكان يدخل فيجلس على طرف السرير ويقول:

«كيفَ تِيكُمْ؟»[(223)]

يعني كيف حالها؟ فتخيل النبي ﷺ ظل شهرًا يسمع كلامًا في سُمعة زوجته وأحب الناس إليه! تقول: فلما برئت بعد شهر خرجت مع أم مِسطح بن أثاثة، وكان مِسطح قريبًا لهم وكان فقيرًا وسيدنا أبو بكر أبوها هو من ينفق عليه، تقول: فعندما خرجنا إلى متبرزنا (مكان قضاء الحاجة وراء الجبال) تعثرت أم مِسطح في عباءتها فقالت: (تَعِس مِسطح). فقالت لها السيدة عائشة: (أتسبين رجلًا شهد بدرًا!). أي لماذا تسبينه وهو رجل شهد غزوة بدر؟ فأم مسطح كانت تعلم أن السيدة عائشة لا تعلم ما يحدث ويُقال عنها في المدينة منذ شهر، فقالت لها: (يا هنتاه). أي يا من لا تعلمين شيئًا، فحكت لها ما حدث بالتفصيل أو قالت لها إن مسطحًا من بين الناس الذين ينقلون هذه الشائعة عنها، فقالت السيدة عائشة: (فازددت مرضًا على مرضي، وعُدت إلى بيت أبي).. وكان هذا الشهر من أصعب الشهور التي مرت بالنبي ﷺ.

فتخيل النبي ﷺ ظل شهرًا مهمومًا بما يُقال في سمعة زوجته.

وحاول سيدنا أبو بكر أن يُخفف عنها ما هي فيه ويطمئنها أن الأمر سينتهي على خير، ولكن الحدث كان صعبًا و شديدًا عليها؛ فقد صعد النبي ﷺ على المنبر وقال:

«يا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، مَن يَعْذِرُنِي مِن رَجُلٍ قدْ بَلَغَ أَذَاهُ في أَهْلِ بَيْتِي؟ فَوَاللَّهِ ما عَلِمْتُ علَى أَهْلِي إلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا ما عَلِمْتُ عليه إلَّا خَيْرًا، وَما كانَ يَدْخُلُ علَى أَهْلِي إلَّا مَعِي»[(224)].

فقام سيدنا (**سعد بن معاذ**).. سيد الأوس وقال: (**يا رسول الله، إن كان رجلًا من الأوس أخبِرْنا فنضرب عنقه، وإن كان رجلًا من إخواننا من الخزرج أمرتنا فضربنا عنقه**).

السيدة عائشة تقول: (**فقام سعد بن عبادة**).. سيد الخزرج، وكان رجلًا صالحًا، ولكن أخذته الحمية فقال لسعد بن معاذ: (**والله لا تستطيع أن تضرب عنقه**)..

انظر لنزغة الشيطان هنا .. خرجوا عن الموضوع الأساسي للحديث وتطرقوا إلى (الأوس والخزرج)، وكأنهم دب بينهم الشِّجار، وهذا من فِعل الشيطان الذي دخل بين الصالحين الأكابر من الصحابة وقتها.

وقام (أُسيد بن حُضير) من الأوس مع (سعد بن معاذ) ورد على (سعد بن عبادة) وقال: (**والله يستطيع وإنك لمنافق تجادل عن المنافقين**).

وثار الحيَّان؛ أي الأوس والخزرج، وظل رسول الله ﷺ يُخفضهم، فكانت محنة وفتنة كبيرة كادت تعصف بالمدينة، ودخل النبي ﷺ على السيدة عائشة وقال:

> (**أَمَّا بَعْدُ يا عَائِشَةُ، فإنَّه قدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فإنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وإنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إلَيْهِ، فإنَّ العَبْدَ إذَا اعْتَرَفَ بذَنْبٍ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عليه**)[(225)].

قالت: (فلما انتهى النبي ﷺ من مقالته قلص دمعي -توقفت عن البكاء- وقلت لأبي: **ماذا تقول لرسول الله؟**). قال لها: (والله لا أعلم يا بُنيتي). فقالت: والله ما أجد ما أقول لكم إلا كما قال أبو يوسف:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف: 18]

ونسيت و هي تتكلم اسم سيدنا يعقوب من كثرة ما بها من ألم وحزن.

جبر خاطر السيدة عائشة بعد حادثة الإفك

موقف مُزعِج جدًّا وثقيل على النفسية وهو «حادثة الإفك»، ولكن نزل القرآن فيه بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[النور: 11]

وانتهت القصة بتبرئة السيدة عائشة في القرآن، وهي نفسها لم تكن تتوقع ذلك، فكانت تقول: (وكان شأني في نفسي أحقر من أن ينزل فيَّ القرآن)..

فتأمل ما حدث لها من جبر الخاطر، وذِكرها إلى يوم القيامة في القرآن، ولكن هل شعرت في هذه القصة بما تحمَّله النبي ﷺ بما قيل عن زوجته وبما حدث من مشاحنات بين الصحابة في المسجد حتى كادوا يقتتلون.. موقف صعب جدًّا، ولكن أحيانًا ما تكون «العصرة شديدة» جدًّا حتى ينزل أحسن الرحيق، وتنزل علينا بعدها جميع الخيرات.

أحمي سمعي وبصري.. ما أجملها من أخلاق!

من بين المواقف العظيمة في قصة الإفك ما قالته السيدة (**زينب بنت جحش**) زوجة النبي ﷺ والتي كانت تقول عنها السيدة عائشة: (**وزينب هي التي كانت تُساميني**). أي لها مكانة مقاربة من مكانتي في قلب النبي ﷺ، فعندما سُئلت السيدة زينب عن السيدة عائشة وما يُقال عنها قالت: (**أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عنها إلا خيرًا**)..

بعكس ما قد يحدث الآن، وهو أنه إذا كانت هناك منافسة مثلًا مع أحد وسألك أحد عنه من الممكن أن تقول كلامًا مثل (ربنا يهديه)، أو تقول مثلًا جملة مثل: (لا أحد معصوم من الخطأ).. كلام ظاهره التقوى ولكن بداخله سم يؤثر على سمعة هذا الإنسان، رغم اعتقاده بأنه بذلك متدين وأنه لم يقل كلامًا سيئًا عن الشخص الآخر، ولكن مجرد الصيغة التي تُبلَّغ بها توحي بأنك تُصدِّق و تؤكد أنه فعل الفِعل السيئ، ولكن هنا أم المؤمنين السيدة (**زينب بنت جحش**) قالت: (**أحمي سمعي وبصري**). أي أنني لا أسمح من البداية أن يدخل هذا الكلام في أذني، وتقول: (**والله ما علمت عنها إلا خيرًا**).

فانتبه لأنه من الممكن في وسط الأزمات أن يخطئ أحدنا ويرتكب ذنبًا من أكبر الكبائر عندما يسمع فضيحة عن أحد فيقول كلمة يؤكد فيها بغير يقين وهو لا يعي ما يقول، فقال النبي ﷺ:

> «... **وإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ**»[(226)]

فانتبه لكلامك..

وتكمل السيدة عائشة فتقول: (وما لبث سيدنا رسول الله يتحدث إذ أخذته سِنة من الوحي). أي بدا وكأنه نزل عليه الوحي، وكانت تقول: (وكان شأني في نفسي أحقر من أن ينزل في قرآن). تقول: فلما استفاق النبي ﷺ قال لها:

«أبشِري يا عائشةُ؛ فإنَّ اللهَ قد أنزل عذرَكِ»(227)

ونزلت سورة النور التي تُبرئ السيدة عائشة بعد شهر من حادثة الإفك، وقد كان النبي ﷺ يستطيع أن يُبرئها من وقتها؛ لأنه قال: «**و الله ما علمت على أهلي إلا خيرًا**»..ولكنه ﷺ لا يتكلم إلا بوحي، فهو الصادق الأمين، وانتظر أن ينزل القرآن ببراءتها، حتى يعرف الجميع أن الله هو من برأها، ونزل القرآن:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النور: 11]

فبعض من الصحابة الذين نشروا الشائعة برغم أنهم صالحون، فإنه كان عليهم عقاب بنص القرآن بسبب ما اقترفوه من إثم، أما صاحب القصة نفسه (عبد الله بن أُبي ابن سلول) فله عذاب عظيم عند الله في الآخرة.

﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾[النور : 12]

أي بدلًا من أن تنشروا الكلام كان الأفضل أن تظنوا خيرًا وتسكتوا عن نقل مثل هذه الشائعة يا مجتمع المدينة، ثم بعدها بأيام ينزل القرآن فيقول الله:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[النور: 15]

يلوم على من نشر الشائعة بدون تفكُّر أو تمهل.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾[النور: 15-16]

فالآية الأخيرة هنا هي نَص كلام سيدنا (أبو أيوب الأنصاري) فماذا حدث؟

ما حدث هو أنه في وسط هذا الشهر كان أبو أيوب وزوجته يجلسان في المنزل، فقالت له: **(أرأيت ما يُقال عن عائشة يا أبا أيوب وعن صفوان بن المعطل؟)**. قال لها: **(يا أم أيوب، أأنت أفضل أم عائشة؟)**. قالت: **(عائشة)**. قال: **(وصفوان أفضل مني)**. فمن هم أحسن منا يقينًا من المستحيل أن يفعلوا مثل هذا لأننا لن نفعل هذا، وقال لها: **(يا أم أيوب، ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم!)**. فنزل القرآن بنص كلام سيدنا أبي أيوب وكيف أنهم أرادوا أن يئدوا الفتنة بينهم، ولا ينقلوا الكلام، فيقف عندهم ولا ينتشر.

فلما نزل القرآن بتبرئة السيدة عائشة، قالت السيدة **(أم رومان)** لابنتها عائشة: **(قومي إلى رسول الله فاحمديه)**. قالت: **(لا.. والله لا أحمد إلا الله سبحانه وتعالى)**. وقامت وحمدت الله، ويبدو أن السيدة عائشة كانت حزينة من الأحداث التي وقعت، وبعدها أقسم سيدنا أبو بكر ألا يُنفِق على مسطح قريبه الذي شارك بدون نية سيئة في نقل الكلام على ابنته، فنزل القرآن:

﴿وَلْيَصْفَحُوا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: 22]

فقال أبو بكر الصديق: **(بلى، أحب أن يغفر الله لي)**. وأعاد النفقة على مسطح بن أثاثة مرة أخرى، وانتهت حادثة الإفك بتبرئة السيدة عائشة في القرآن من فوق سبع سماوات.

الرُّقي في إدارة الحوار.. من أثر التربية النبوية

أقف منبهرًا من كلام (أبي أيوب الأنصاري) مع زوجته (أم أيوب) عندما كانا يتحدثان في منزلهما كزوج مع زوجته بكل أريحية، فقالت له زوجته: **(أرأيت ما حدث يا أبا أيوب مع عائشة؟)**. فسألها: هل هي أفضل أم عائشة، فأجابته بالطبع عائشة، فهي أم المؤمنين، فقال لها وأيضًا (صفوان بن المعطل)، والمتهم في هذه الحادثة هو أفضل مني .. فتأمل في إدارة الحوار كيف كان فيها من الرُّقي، وكان من الممكن أن يكون حوارًا مسمومًا جدًّا وفيه كبائر في الغيبة والاتهام بالباطل، ونقل الكلام بدعوى الفضفضة في الكلام في البيت كرجل مع زوجته أو العكس، ولكن هنا نزل القرآن يشكرهما على حديثهما عندما قال أبو أيوب: (سبحانك هذا بُهتان عظيم) فقال تعالى:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[النور: 16]

أُذكِّر بهذا الكلام نفسي وكل من يقرأ هذا الكلام.. أن الفضفضة مع زوجك أو زوجتك لا بد وأن تخلو من الغيبة والنميمة، وإذا كان هناك شكوى أو مشورة أطلب فيها النصيحة فبها ونعمت، ولكن أن يتخلل الكلام ليصل ويمس شرف إنسان... انتبه من ذلك؛ لأن الإنسان من الممكن بدون قصد أن يخرج منه الكلام فيه عُجب ومعايرة وتزكية نفس.. فيقول بعض الكلمات مثل: (مستحيل أن أفعل مثل هذا)، أو (لماذا وضعت نفسها في هذا الموقف؟)، أو (لماذا وافقت أن تجعله يوصلها إلى المدينة على الجمل؟)..

كلام كأنه تعليق من شخص مستاء يدعي الفضيلة برغم أن المشهد لا يوجد به أي أخطاء، فانتبه لكلامك وتعلَّم من أنوار تربية النبي ﷺ التي ظهرت في كلام أبي أيوب الأنصاري وزوجته أم أيوب.

النبي ﷺ قدوة للجميع حتى في أصعب المواقف

من العجيب جدًّا أن من ضمن القدوة والأسوة التي نتأسى بها في سيدنا محمد ﷺ أنه يحدث أن يتكلم أحد على شرف زوجته، فهذه من القصص العجيبة جدًّا، فالنبي ﷺ قد حدثت له كل الحوادث التي يمكن أن تحدث لأي إنسان، والتي يحتاج إلى أن يعرف كيف يتصرف في مثل هذه المواقف، فالمنافقون وعلى رأسهم (عبد الله بن أُبي بن سلول) وصلت بهم الوقاحة أن يتكلموا في شرف زوجة النبي ﷺ، والسيدة عائشة هنا لم تُخطئ أي خطأ تُلام عليه.. لم تُخطئ قط في هذا الموقف، فما حدث فقط أن شيئًا ضاع منها فذهبت تبحث عنه وهذا من قدر الله، فظن الجنود أنها تجلس في الهودج فحملوا الهودج وساروا به، وهي وحيدة في الصحراء.. أتدري معنى وجودها بمفردها في صحراء موحشة بدون ماء أو طعام ووجود حيوانات مفترسة ووحوش؟! وهنا أتى سيدنا (صفوان بن المعطل) وأركبها على الجمل وبمنتهى الرجولة والحياء أوصلها إلى المدينة يمشي على رجليه وهي راكبة، ولكن من يريد أن يتكلم لن تستطيع أن توقفه، لن تستطيع أن توقف من يُنشئ الفكرة، وليكن لك في رسول الله أسوة حسنة، إذا تكلم عليك أحد في ظهرك كلامًا سخيفًا، فإذا أردت أن توقفه فافعل، فهناك من الناس من لا يجد شيئًا في حياته ليفعله، فكلما رآك ناجحًا ومتميزًا في حياتك كان موجوعًا؛ لأنه لا يوجد لديه معنى يعيش من أجله؛ لأنه كان يتمنى أن يكون أمامك ولم يستطع؛ لأنه كان يريد أن يُحقق جزءًا من نجاحاتك ولكنه لم يقم بربع مجهودك، وبالتالي لم يصل إلى ما وصلت إليه، فلم يجد عنده إلا الكلام عليك.

فالبشر يحبون أن يتحدث الناس عنهم بالخير؛ لأن هذا من القبول الاجتماعي الذي خلقنا الله نحب أن نشعر به، بينما الرفض الاجتماعي موجع، ولكن الاستعانة بالله والعلم واليقين بأنه لا يضر ولا ينفع إلا الله، وأن من يدافع عنك عندما يخوض أحد في سيرتك هو الله، حتى وإن طال الوقت - مثلما حدث في حادثة الإفك واستمر شهرًا - ستكون العاقبة كبيرة جدًّا في رد الاعتبار.. ولكن الموضوع يحتاج إلى بعض الصبر، قال تعالى:

﴿فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود :49]

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد بعدد ذرات الوجود، صلِّ وسلِّم وبارك على سيد كل والد ومولود؛ سيدنا محمد حائز الفضيلة وصاحب الوسيلة، ذي الجانب الرفيع سيدنا ومولانا محمد الشفيع.

اللهم وفقنا إلى ما يُقربنا إليك، وأَقرَّ أعيننا بما يرضيك عنا، واهدنا إلى التوكل عليك في جميع أمرنا، واكتب لنا يا مولانا في كل يوم خيرًا وعلمًا وفهمًا وتوفيقًا ورُشدًا..

---

(210) رواه الترمذي.

(211) رواه البخاري.
(212) رواه أحمد.
(213) رواه الحاكم.
(214) رواه مسلم.
(215) رواه البخاري.
(216) رواه الحاكم.
(217) رواه البخاري.
(218) رواه مسلم.
(219) رواه ابن إسحاق.
(220) رواه البخاري.
(221) رواه البخاري.
(222) رواه أبو داود.
(223) رواه مسلم.
(224) رواه البخاري ومسلم.
(225) رواه البخاري.
(226) رواه البخاري.
(227) رواه أبو داود.

الخاتمة

وبانتهاء حادثة الإفك ينتهي الجزء الأول من السيرة بهذا الموقف الكبير في بيت رسول الله ﷺ، وهذا المشهد الذي برَّأ الله فيه زوجته الشريفة من فوق سبع سماوات؛ لنبدأ مرحلة جديدة من السير إلى الله في نور سيدنا رسول الله ﷺ وبداية معركة كبيرة في السنة الخامسة الهجرية، وهي معركة الأحزاب التي تضافرت فيها قوى الشر من المشركين والمنافقين ويهود المدينة على رسول الله ﷺ وأصحابه، ولكن الله دائمًا مع أهل الحق، يؤيدهم بنصره وبعونه، كما ذكر ذلك لنا في سورة الأحزاب التي نزلت تحكي لنا هذه القصة.

ونلقاكم على خير في الجزء القادم والذي فيه باقي السيرة حتى انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى.